www.idafabooks.com

محنة الإسلام الكبرى

الطبعة الأولي عام ١٩٤٧م

محنة اللإسلام الكبرى

زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى المغول

تاريخ
د.مصطفى طه بدر
طبعة جديدة : ٢٠٢٠
رقم الإيداع : ١٤٣٥٨ / ٢٠٢٠
ISBN 978 -977-85739 -8 -5
٢٧٢ ص ، ٢٠ سم

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية
ج ٠ م ٠ ع
{جميع الحقوق محفوظة ©}

تحقيق : عادل أبو الأنوار
غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

محنة الإسلام الكبرى

أو

زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى المغول

د. مصطفى طه بدر

إضافة
للنشر والتوزيع

الفهرس

مقدمة ٩

الباب الأول: ضعف الخلافة العباسية

الفصل الأول: تخلص الخلفاء العباسيين من السلاجقة ١٣
اضمحلال السلاجقة وأسبابه ١٦
انعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقي ٢٢
ظهور دولة الأتابكة ٢٣
ظهور طائفة الإسماعيلية ٢٦
حسن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين ٢٩
الفصل الثانى: أيام العباسيين الأخيرة في العراق ٤٠
الحالة الداخلية ٤٠
الناحية السياسية ٤١
الناحية الحربية ٤٩
الناحية الطائفية. أهل السنة. أهل الشيعة. أهل الذمة ٥٢
الناحية العمرانية ٥٦
الحالة الخارجية ٥٨
العالم الإسلامي في عهد استقلال الخلفاء ٥٩
الدولة السلجوقية في فارس ٥٩
الدولة الخوارزمية ٥٩
الإسماعيلية ٦١
الدولة الأيوبية ٦٣
الروم السلاجقة ٦٦
أتابكة الموصل ٦٧
علاقة الخلافة العباسية بالدول الإسلامية ٦٩
تأمين العراق من الأخطار الخارجية. ٦٩
نشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي ٧٤

الباب الثانى:انتشارنفوذ المغول

الفصل الأول: البيئة المغولية وأثرها في تكوين المغول ٧٩
بيئة المغول الأصلية ٧٩
معيشة المغول ٨٣
المأكل ٨٤
الملبس ٨٥
المسكن ٨٦
القوانين ٨٨
الدين (الشامانية) ٩٠
صفات المغول: الصفات الجسمية وملاءمتها للبيئة المغولية ٩٣
جيوش المغول: تنظيمها، إمدادها بالأسلحة، خططها الحربية ٩٩
المغول في نظر المؤرخين ١٠٣
رأينا الخاص في المغول ١٠٧
الفصل الثانى: توحيد المغول ١١٠
أصل المغول ١١٠
الأمم المغولية القديمة ١١١
حالة الأمم المغولية القديمة حتى أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ١١٣
توحيد الأمم المغولية القديمة على يد تيموجين ١١٥
حروب تيموجين مع الأمم المغولية المتحالفة ١١٦
حروب تيموجين الفردية ١١٧
حرب المركيت ١١٧
حرب النيمان ١١٨
حرب التتار ١١٩
حرب الكريت ١٢٠

الفصل الثالث: التوسع المغولي في آسيا وأوربا ١٢١
جنكيز خان ١٢٢
المرحلة الأولى ١٢٢
المرحلة الثانية ١٢٣
المرحلة الثالثة ١٢٤
عهد خلفاء جنكيز خان (أجطاى وكيوك) ١٢٧
نشر نفوذ المغول في الصين ١٢٧
نشر نفوذ المغول في أوربا ١٢٩
نشر نفوذ المغول في غرب آسيا ١٣١
غارات المغول على أملاك الخلافة العباسية ١٣٥

الباب الثالث: الفتح المغولي للعراق

الفصل الأول: بغداد قبيل الفتح المغولي ١٣٩
طبوغرافية بغداد: إشارة إلى بغداد كما بناها المنصور ١٣٩
حكم المستعصم ببغداد ١٤٧
الحالة الداخلية في عهده ١٥٠
النزاع بين الرؤساء في بغداد ١٥٠
ضعف الجيش ١٥٣
اضطراب الأمن في بغداد ١٥٤
الحالة الخارجية ١٥٧
العالم الإسلامي ١٥٧
مصر ١٥٨
بلاد الشام ١٦٠
آسيا الصغرى ١٦١
بلاد الجزيرة ١٦٢
الإسماعيلية ١٦٣
علاقة الدولة الإسلامية بالخلافة في أيام المستعصم ١٦٥

الفصل الثانى: حملة هولاكو ١٧٠
إعداد الحملة ١٧٠
قضاء هولاكو على الإسماعيلية ١٧٤
قضاء هولاكو على الخلافة العباسية ١٨١
دعوة الخليفة المستعصم إلى التسليم ١٨٣
الاستعداد للحرب ١٨٧
مسير هولاكو إلى بغداد ١٩١
حصار بغداد ١٩٨
سقوط بغداد ٢٠٣
إتمام فتح العراق ٢١٧
الفصل الثالث: موقف أهل بغداد من الفتح ٢١٨
موقف أهل السنة ٢١٩
الخليفة المستعصم ٢١٩
الدفتر دار الصغير ٢٢٢
سليمان شاه ٢٢٣
موقف الشيعة ٢٢٤
موقف الوزير ابن العلقمي ٢٢٦
المؤرخون الذين يتهمون ابن العلقمي بالخيانة وأقوالهم ٢٢٧
المؤرخون الذين يبرئون ابن العلقمي وأقوالهم ٢٣٦
مجهود الفرنجة في بحث موقف ابن العلقمي ٢٣٩
تحليل أقوال المؤرخين في موقف ابن العلقمي ٢٤٤
الرأى الأخير في ابن العلقمي ٢٥٢
موقف أهل الذمة ٢٥٤
خاتمة القول في زوال الخلافة من بغداد ٢٥٦

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. أما بعد، فهذا كتاب جديد في موضوعه يتناول بالتأريخ فترة من فترات التاريخ الإسلامي التي أهملها الناس من زمن بعيد ولا يكاد يعرف عنها الكثيرون إلا القليل. فترة يكاد يكون المعروف عنها طيفا غامضًا وسرابًا خادعا. وهذه الفترة لها أهميتها العظيمة بغير شك وإن كانت فترة اضمحلال قد انتهت إلى زوال، وذلك لأن فترات العظمة والقوة إن كانت دراستها تفيد للعظة والعبرة. إذ لا شك أن التاريخ هو المعلم الأول الذي يحفظ ذكريات الماضي وتجاربه ليعرضها على الناس لتكون لهم هداية ونورًا يسلكون بفضله الطريق ويصلون إلى بر السلامة. وقد تكون فترات المحن والاضطرابات أفضل من فترات الهدوء والاستقرار في تبليغ هذه الرسالة العزيزة.

ولن أتكلم هنا كثيرًا عن الموضوعات التي يتناولها الكتاب والنقط المهمة التي يعالجها، فحسب القارئ أن يتصفح الفهرس أو يقلب الصفحات ليبدو له الكتاب على حقيقته.

ولكن يكفي أن أشير إلى أن القارئ لهذا الكتاب يستطيع أن يكون صورة واضحة للعالم الإسلامي في أواخر القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع، ويرى كيف أصبح هذا العالم مسرحًا لظهور كثير من الدول الصغيرة المتباغضة المتنازعة، بعد أن كانت تجمعه سلطة واحدة وتظله راية واحدة هي راية الخلافة العباسية ذات المجد التليد والصيت البعيد. وقد أدى هذا إلى ضعفه أمام الخطر الأكبر الذي ظهر في تلك العصور، وهو خطر المغول وعجزه عن مد يد المساعدة إلى الخلافة العباسية حين هددها هذا الخطر بالزوال.

ويستطيع القارئ أيضًا أن يكوّن صورة جلية للخلافة العباسية منذ أخذ الضعف يدب في أرجائها ويحيلها إلى هيكل أجوف قد عدم الحياة والقوة، ويجعلها ألعوبة في أيدي الأجانب يفعلون بها ما يشاءون دون أن تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا. حقا إنها أفاقت من غشيتها مدة من الزمن وأخذت تحاول استعادة شيء من عظمتها الذاهبة وقوتها المتداعية؛ ولكنها على ما يبدو كانت قد نسيت كيف تلعب دورها وفقدت إرادتها فلم تستطع أن تصل إلا إلى مظاهر جوفاء واحترام شكلي ونفوذ اسمي لم ينفعها عندما تعرضت للخطر المغولي العظيم.

أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب يقدم لأول مرة في اللغة العربية وبالأسلوب العلمي الحديث، صورة كاملة مجسمة للمغول فلا يهمل

ذكر البيئة التي نشأوا فيها ولا أثر هذه البيئة في صفاتهم البدنية والخلقية، كما يعنى عناية فائقة بتوضيح قوانينهم ونظمهم الحربية، ويتناول الكلام على نشأتهم الأولى وإتمام وحدتهم السياسية في عهد عاهلهم العظيم جنكيز خان وتوسعهم في آسيا وأوربا وتقدمهم تدريجياً نحو العراق العربي في عهود خلفائه.

وكل هذا الذي مضى لا يعد شيئا مذكوراً بجانب ما ورد في الكتاب عن ذلك الحدث التاريخى المهم، وهو حملة هولاكو التي قضت على الإسماعيلية ثم على الخلافة العباسية. ولا شك أن القارئ هنا سيشبع عاطفة حب الاستطلاع فيه التي طالما سمعت عن قضاء المغول على الخلافة العباسية أو قرأت القليل دون أن تجد ما يشفى غلتها. اذ سيرى أمام عينيه كيف أعدت حملة هولاكو هذه وكيف سارت في طريقها وكيف استطاعت أن تقضى على مقاومة الإسماعيلية وتجعلهم أثرا بعد عين، ثم كيف تبودلت المراسلات بين هولاكو وبين الخليفة العباسي المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، وكيف سار المغول نحو بغداد وأحاطوا بها وكيف انتهى أمرهم باذلالها واذلال الخليفة وقتله بعد قتل رجال الدولة وأغلبية سكانها، وكيف كانت هذه النتيجة المؤلمة أثرا من آثار ضعف شخصية الخليفة وضعف مركز الخلافة بوجه عام.

وسيرى أيضًا كيف كان موقف كل طائفة من طوائف بغداد المهمة، وهى أهل السنة والشيعة واليهود والنصارى أمام هذه النازلة، كما سيرى موقف بعض كبار الرجال من أمثال ابن العلقمي والدفتر دار الصغير وسليمان شاه وحكم التاريخ عليهم. وفى الختام سيرى وصف الأهوال والفظائع التي حلت بالإسلام والمسلمين في تلك الظروف القاسية. وما كان لإزالة الخلافة العباسية من بغداد من أثر في حياة المسلمين السياسية والأدبية في العصور التالية.

وأحب أن يعلم القارئ أن هذا الكتاب ألّف منذ سنوات وقُدم كرسالة حصلت بها على درجة ماجستير في التاريخ من كلية الآداب بجامعة فؤاد في يونية سنة ١٩٣٩، وأن أكبر الفضل فيما يبدو فيه من ترتيب وتنظيم يرجع إلى أستاذنا الدكتور حسن بك إبراهيم حسن الذي أشرف على الرسالة أثناء وضعها وكان خير مرشد وموجه لنا.

وأسأل الله أن يوفقنا جميعًا إلى ما فيه خير العلم وطالبيه.

مصطفى بدر

الجيزة في ١٩٤٦/١٢/٩ م

الباب الأول: ضعف الخلافة العباسية

الفصل الأول

تخلص الخلفاء العباسيين من السلاجقة

يرجع ضعف الخلافة العباسية إلى عدة أسباب منها اعتماد العباسيين على الفرس والأتراك، وسوء معاملة هؤلاء الخلفاء لأعدائهم السياسيين من أمويين وعلويين مما كان سببًا في انسلاخ كثير من أجزاء دولتهم كما حدث في الأندلس وشمال إفريقية، ومما كان سببًا أيضًا في ظهور الحركات الهدامة، مثل حركة صاحب الزنج (٢٥٥-٢٧٠) والقرامطة، وكذلك ولاية العهد لأكثر من واحد، ونحن لا ننسى ما كان لذلك من أثر في قيام النزاع بين الأمين والمأمون،

والعصبية في الجيش العباسي بين اليمنية والمضرية، وقد كان لها أثر كبير في ضعف الدولة العباسية في بلاد المغرب والأندلس، وغزوات البيزنطيين، وتنافس الكبراء على الوزارة كانت من عوامل ضعف الخلافة العباسية أيضًا، ولا يمكن أن ننسى ما كان من ارتقاء خلفاء ضعاف عرش الخلافة من أمثال المقتدر (٢٩٥- ٢٣٠هـ = ٩٠٨- ٩٣٢م) الذي كان مسرفا في وقت قل فيه دخل الدولة، والذي ترك أمر الدولة للنساء.

وقد حاول الخليفة الراضي (٣٢٢- ٣٢٩= ٩٣٤- ٩٤٠م) أن يخلص الدولة العباسية من الضعف فأنشأ منصب أمير الأمراء[١] (٣٢٤- ٣٣٤هـ) ولكن محاولته هذه أتت بعكس ما كان يؤمل؛ بسبب تنافس الكبراء على هذا المنصب كما كان من قبلهم يتنافسون على الوزارة.

وكان من أثر التنافس على إمرة الأمراء بين الكبراء توجيه نظر الأجانب إلى العراق، فاستولى عليه الحمدانيون في مستهل شعبان سنة ٣٣٠هـ.

(١) الصولي- الأوراق ج٣ ص٨٥- ٨٦، وتجارب الأمم ص٣٣٢، والفخري ص٢٠٩

ثم جاء بعدهم معز الدولة بن بويه[1] (جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ) وأسس دولة ظلت قائمة أكثر من مائة سنة (٣٣٤- ٤٤٧ هـ) تناوب السلطة فيها أحد عشر أميرًا كان آخرهم خسرو فيروز الذي يطلق عليه الملك الرحيم، ولم تنته أيام بني بويه في العراق إلا على يد طغرل بك السلجوقي الذي دخل بغداد وقبض على الملك الرحيم وأتباعه في رمضان سنة ٤٤٧هـ [2] وبذلك بدأ عهد النفوذ السلجوقي في العراق الذي ظل حتى سنة ٥٥١هـ.

(١) ابن الأثير ج٨ ص ١٧٦.
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٥٥.

١. اضمحلال السلاجقة وأسبابه

وظل السلاجقة أصحاب الكلمة العليا في العراق طول حكم طغرل بك (٤٤٧- ٤٥٥ هـ) وألب أرسلان (٤٥٥- ٤٦٥هـ) وملكشاه (٤٦٥- ٤٨٥هـ) وبركياروق بن ملكشاه (٤٨٥- ٤٩٨ هـ) ومحمد بن ملكشاه (٤٩٨- ٥١١ هـ) وهي مدة لا تقل عن ثلاث وستين سنة تمتع العراق فيها بالسلام والطمأنينة وقلت فيها المنازعات بين أهل السنة والشيعة بعد أن كانت لا تكاد تنقطع في أي عهد من العهود[١].

على أن الاضمحلال بدأ يدب في جسم السلطنة السلجوقية في العراق منذ ارتقى عرشها محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ ثم أخذ يتغلغل تغلغلا عظيما في عهد خلفائه حتى زال نفوذهم عن العراق في عهد محمد بن محمود سنة ٥٥١هـ.

ويمكننا أن نعزو ضعف السلاجقة إلى عدة عوامل، منها ضعف شخصية السلاطين الذين ارتقوا عرش السلطنة منذ أيام محمود بن ملكشاه، وانعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقي في ذلك العهد، وظهور دول الأتابكة، وظهور طائفة الإسماعيلية.

(١) ابن الأثير ج٩ ص ٢٦٤ وج ١٠ ص ٨٨ و١٩١.

جدول سلاجقة العراق

(٤٧٧- ٥٥١هـ)

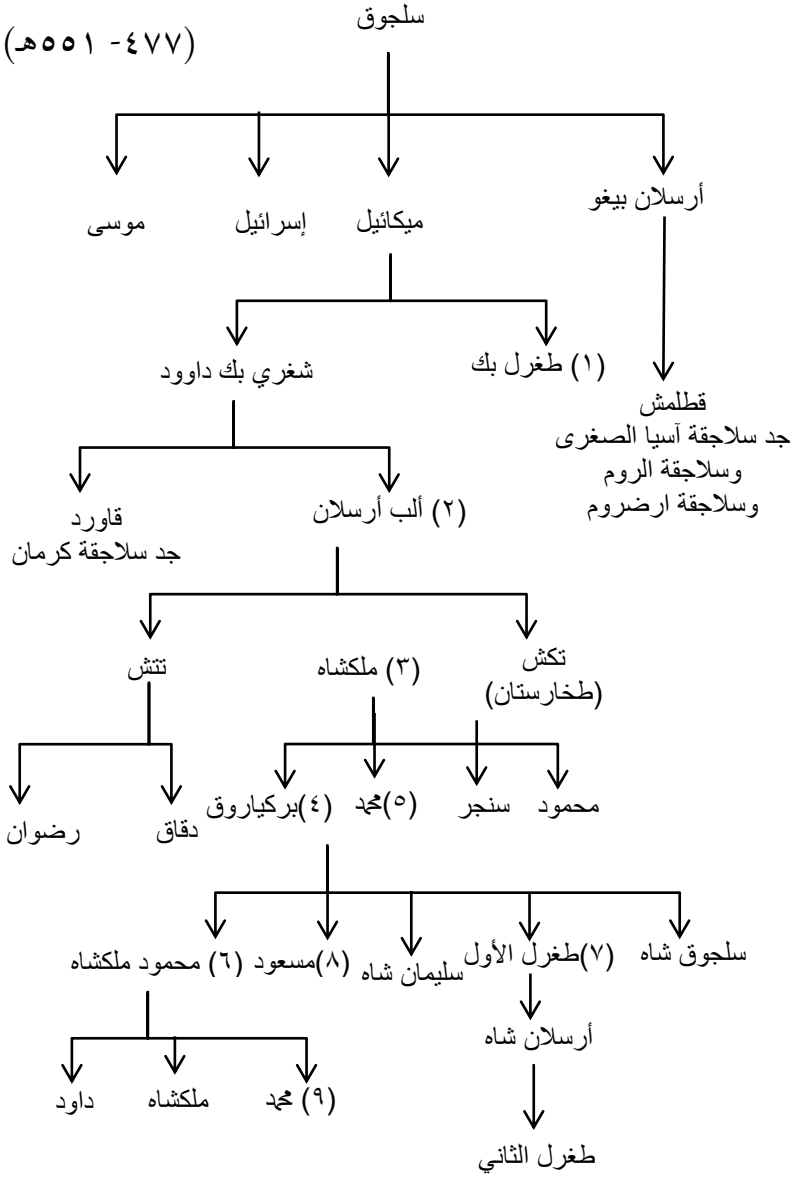

(أ) ضعف شخصية السلاطين:

كان محمود بن محمد ضعيفًا خاملا، ولذلك نجد عصبة من الأمراء على رأسها علي بار ووزيره أبو القاسم الإنسا باذي الدركزيني[١] قد اغتصبت السلطة منه ومن وزيره كمال المُلك السميرمي، ثم أخذت تعمل ما فيه مصلحتها غير ناظرة إلى ما يسببه عملها من أضرار. فقتلت الشخصيات الكبيرة مثل أنوشتكين شيركير قائد محمد بن مُلكشاه، الذي كان حارب الإسماعيلية ليخلو لها الجو كما بددت أموال الخزانة السلطانية في ملذاتها، بل إنها خرضت الكثيرين مثل دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي، ومسعود بن محمد أخي السلطان على الخروج على محمود حتى يشتغل بمحاربتهم عنها[٢]. وقد كان لأعمال هذه العصبة أثرها السيء لأنها أفقدت الدولة كثيرًا من عظماء الرجال كما أفقرتها وبددت أموالها. وقد كان طغرل بن محمد الذي خلف محمودًا مسلوب السلطة مع أبي القاسم الدركزيني كما كان سابقه، وهو وإن حاول أن يفك القيد بقتله الدركزيني على أبواب ليستر Lishter[٣] فإن القضاء لم يمهله ومات سنة ٥٢٧هـ بعد غريمه بقليل.

---

(١) دركزين بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الكاف وزاي مكسورة وياء ونون... قال أنوشروان بن خالد الوزير، هي بلدة من أقليم الأعلم ينسب إليها أبو القاسم ناصر بن على الدركزيني وزير السلطان محمود بن السلطان محمد السلجوقي، ثم وزير أخيه طغرل وهو الذي قتله في سنة ٥٢١هـ وأصله من قرية من هذا الإقليم يقال لها أنساباذ فنسب نفسه إلى دركازين لأنها أكبر قرى تلك الناحية... وقال وأهل هذا الإقليم كلهم مزدكية ملاحدة". (راجع اللفظ في معجم البلدان لياقوت).

(٢) البنداري- زبدة النصرة ونخبة العصرة، ص ١٥٥ وابن الأثير ج١٠، ص٢٨٥.

(٣) Brown, Account of a Rare Ms. Hist. of the seljuks, p. 53.

ولم يكن مسعود بن محمد أشد سطوة وأقوى مِراسًا من سابقيه، ولذلك كثر خروج الأمراء عليه. وقد ذكر ابن خلكان وابن الأثير أنه لم يكن له من السلطة غير الاسم[1]. وأول الخارجين كان قره سنقر صاحب أران الذي أحس بنية الغدر من كمال الدين محمد الخازن وزير السلطان، ولذلك ذهب إلى همذان سنة ٥٣٣هـ بعشرة آلاف ثم أرسل إلى مسعود يطلب منه إعدام وزيره أو تسليمه: "فإما أن تعدمه وإما أن تسلمه، فإن دفعته إلينا فنحن طائعون، وإن دافعت عنه فنحن عن أنفسنا مدافعون". وقد سلم مسعود الوزير لقره سنقر فضرب عنقه، كما اتخذ مجد الدين عبد الملك البروجردي وزيرًا له تبعا لرغبة قره سنقر. وقد خرج بعد ذلك على مسعود عباس صاحب الري وبوزابه صاحب فارس ولم يخضعا إلا بعد أن استعان السلطان بجاولي الجاندرا، الذي كان قد خلف قره سنقر على أذربيجان. هذا إلى أن جاولي الجاندار نفسه خرج على السلطان مسعود واتفق مع بوزابه على محاربته، ولولا موته لما نجا السلطان من خطره[2]. ويظهر ضعف السلطان مسعود بكل وضوح فيما حدث بعد ذلك سنة ٥٤٠هـ؛ إذ اتفق بوزابه صاحب فارس والحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن غايرك وعباس صاحب الري على

(١) ابن خلكان ج٢ ص ١٢٢، وابن الأثير ج١١ ص ٣٠.
(٢) البنداري ص ١٧٨و ٢٠٢- ٢٠٤ وابن الأثير ج ١١ ص٥٣.

اغتصاب السلطة من السلطان مسعود، ولم يسعه إلا أن "رأى السلامة في سلمهم وأقسم على رضاهم"[1] وعزل وزيره وعين تاج الدين أبا الفتح بن دارست الفارسي وزير بوزابه بدلا منه، يضاف إلى ذلك أنه خضع لرأيهم حين قرر الثلاثة أن يكون أحدهم بالنوبة ملازمًا لخدمته، وبمعنى آخر حين تناوبوا حراسته والإشراف عليه. كذلك لم يعارضهم حين أبعدوا من رأوا في وجوده بالقرب منه خطرًا عليهم مثل خاصبك بن بلنكري، فإنهم أرسلوه مع فخر الدين بن طغايرك - أحد الثلاثة - الذي ولي أذربيجان وأران سنة ٥٤١هـ[2].

حقيقة أن مسعودًا لم يرضخ للأمر طويلا وحاول أن يسترد سلطته، واقتنص فرصة قتل خاصبك بن بلنكري لفخر الدين بن طغايرك غيلة في أذربيجان؛ ليقتل هو بدوره في نفس السنة عباس صاحب الري الذي كان عليه الدور في خدمته، ويصرف تاج الدين بن دارست عن وزارته. كما أنه حين رأى ثالث الشركاء بوزابه يغتاظ لفقد زميليه ويسير ومعه ابن شريكه عباس صاحب الري إلى همذان لاقاه هو أيضًا ومعه خاصبك بن بلنكري وأسره وقتل ابن عباس.

---

(١) البنداري، ص ٢١٤.

(٢) البنداري، ص٢١٤ وابن الأثير ج١١ ص٤٧.
وذكر ابن الأثير ج١١ ص ٧٣ أن خاصيك كان صبيًا تركمانيا اتصل بالسلطان مسعود، ثم تقدم على سائر الأمراء.

إلا أنه بسبب ضعفه لم يستفد من مجهوده الذي بذله، وما لبث أن وقع تحت سيطرة خاصبك، الذي أخذ بدوره يتخلص من منافسيه والذي وجد في الوزير الأصم شمس الدين أبي النجيب الدركزيني أداة لنشر راية الظلم والإرهاب[١].

ويلاحظ أن السلطان سنجر بن ملكشاه - عميد البيت السلجوقي وصاحب الأمر في خراسان - هاله ما حل بالعراق من الفوضى، في أيام محمود بن محمد وطغرل ومسعود، وحاول إصلاح أموره، ولكن محاولاته لم تجدِ فتيلا. ذلك لأنه حين قصد العراق في أيام محمود قابله هذا ووقعت بينهما موقعة هزم فيها محمود، إلا أن سنجر عفا عنه وجعله وكيله في العراق كما زوجه من ابنته ماه ملك خاتون واكتفى بإعادة الوزارة إلى كمال الملك السميرمي[٢]. وكذلك حين قصد العراق في أيام مسعود سنة ٥٤٤هـ وتلاقى مع مسعود في الري عاد أدراجه وترك الأمر على ما هو عليه[٣]، فكانت بذلك أعماله قليلة الأهمية ولم يمكنه إنقاذ الموقف.

---

(١) ابن الأثير ج١١ ص٥٢- ٥٤و ٦١و .....
Brown, Account of a Rare Ms. Hist. of the seljuks, pp. 61- 63.
(٢) البنداري، ص ١٤٣و Ibid, pp. 45, 53.
(٣) البنداري ص ١٤٣ وابن الأثير ج١١ ص٦٠و ٦٤.
. Brown, Acc, of a Rare Ms. Hist. of the seljuks, p. 47.
ذكر الراوندي أن المقابلة بين سنجار ومسعود في الري كانت سنة ٥٤٢هـ.

(ب) انعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقي:

لم يكن أفراد البيت السلجوقي متضامنين فيما بينهم، بل كان الشقاق بينهم متفشياً. وقد كان الأمراء الذين يخرجون على السلاطين يعرفون ما لهذا الشقاق من أثر، ولذلك تجدهم يحاولون توسيع الهوة وزيادة شقة الخلاف، وكثيراً ما نجدهم يستميلون أحد أفراد البيت السلجوقي إلى صفوفهم ويمنونه بالسلطنة فيكون لهم من وراء ذلك كثرة عدد أعوانهم والفت في عضد أعوان السلطان. وقد حدث ذلك عند النزاع بين قره سنقر والسلطان مسعود، إذ استدعى قره سنقر الملك سلجوق بن محمد ووعده بأن يمضي معه إلى فارس ويستخلصها له، كما أخذ معه داود بن محمود وأتابكه أباز[١]. كما حدث أيضًا عندما قام النزاع بين عباس وبوزابه من جهة وبين السلطان مسعود من جهة أخرى، فقد استدعيا سليمان بن محمد أخا السلطان وأغرياه ووعداه بالسلطنة، ولما اتفق بوزابه مع جاول الجاندار على الخروج على مسعود بعد ذلك تعهد له بأن يأتيه بالملك محمد بن محمود[٢]، وأخيرا لم ينس بوزابه حين سار للأخذ بثأر شريكيه ابن طغايرك وعباس، أن يأخذ معه محمد وملكشاه ابني السلطان محمود إلى أصبهان حيث توجها ثم صار إلى همذان ليلاقي حتفه[٣].

(١) البنداري، ص١٨٧و Brown, Acc. Ms. H. selj, p. 58.
(٢) البنداري، ص٢٠٣ و Ibid, p. 60.
(٣) البنداري ص ٢٠٣و Ibid, p. 63.

(ج) ظهور دول الأتابكة:

ذكر ابن خلكان[١] أن "الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك، وأن الأتا بالتركية هو الأب، وبك هو الأمير، فأتابك مركب من هذين المعنين ومعناه إذن أبو الأمير". كما ذكر ابن الأثير أن السلطان ملكشاه خلع على نظام الملك ولقبه ألقابًا من جملتها أتابك ومعناه الأمير الوالد[٢].

وكان سلاطين السلاجقة يعينون أولادهم وهم صغار على أجزاء من أملاكهم ويرسلون معهم رجالا يكونون لهم بمثابة المربين يديرون الأمور باسمهم ويطلقون عليهم اسم الأتابكة. وكان هذا النظام ممكنا عندما كان رئيس الدولة رجلا قويًا مثل ملكشاه له هيبة في القلوب، ولكن عندما ضعف السلاطين وضاعت هيبتهم كان هذا النظام سببًا في إضعاف الدولة السلجوقية؛ لأن كثيرًا من الجهات انفصلت عنها نتيجة لاستقلال الأتابكة بها وعملهم على تثبيت حكم أسراتهم فيها[٣].

وقد ظهرت بهذه الطريقة الدولة البورية (٤٩٧- ٥٤٩هـ= ١١٠٣- ١١٥٤م) التي أسسها طغطكين الذي عينه تتش أتابكًا لابنه دوقاق في دمشق، ولكنه لم يلبث أن اتخذها لنفسه،

(١) ابن خلكان ج١ ص١٤٢و ٢٤١.
(٢) ابن الأثير ج ١٠، ص٣٣.
(٣) Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 313.

والتي ظل حكمها في أبنائه من بعده حتى سنة ٥٤٩هـ حين انتزعها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من الفرنجة الذين كانوا قد أخذوها من مجير الدين أرتق آخر أفراد الدولة البورية في نفس السنة والتى امتد نفوذها في دمشق وحماة ردحًا من الزمن. كما ظهر أيضًا الدولة الأرتقية (٤٩٥- ٧١٢هـ= ١١٠١-١٣١٢م) التي أسسها أرتق بن أكسب، والتي امتد نفوذها في حصن كيفا وماردين وآمد وخرتبرت وميافارقين، بل حلب والقدس زمنا طويلا. وكذلك يجب إلا ننسى دولة دانشمد (٤٩٠- ٦٥٠هـ= ١٠٩٧- ١١٦٥م) التي أسسها كمشتكين بن الدانشمند في كبادوكيا، والتى شملت سيواس وقيصرية وملطية، والتي ظلت حتى ضم أملاكها سلاجقة الروم إليهم. ودولة الأتابك عماد الدين زنكي (٥٢١- ٦٤٨هـ= ١١٢٧- ١٢٥٠م) التي بدأت في الموصل ثم اتسعت حتى شملت جزءًا عظيما من الجزيرة الفراتية والشام. ودولة أتابكة أذربيجان (٥٣١- ٦٢٢هـ= ١١٣٦- ١٢٢٥م) من أفراد أسرة أيلدكز الذي أسسها وحكمها بعد أن كان رجلا عاديًا نشأ في بلاط السلطان مسعود ثم أعطيت له حكومة أذربيجان مع زوجة أخي السلطان مسعود ثم أعطيت له حكومة أذربيجان مع زوجة أخي السلطان الأرملة، ثم خلفه عليها أولاده وأحفاده. والدولة الغورية التي بدأت في ولاية الغور بين هراة وغزنة ثم امتدت إلى غزنة وظلت قائمة حتى قضى

عليها محمد خوارزمشاه. ودولة شاهات خوارزم نفسها التي أسسها أنوشتجين أحد مماليك السلطان ملكشاه بعد أن عينه حاكمًا عليها، ودخل في حوزتها العراق العجمي وفارس وخراسان وما وراء النهر، والتى ظلت قائمة حتى قضى عليها المغول في عهد أجطاي بانتصارهم على جلال الدين منكبرتي ابن خوارزمشاه وموت جلال الدين مشردًا سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) فكانت مدتها حوالي قرنين من الزمان (٤٧٠- ٦٢٨هـ= ١٠٧٧- ١٢٣١م).

والدولة السلغرية التي تنسب إلى سلغر Salghar رئيس جماعة من التركمان نزحوا إلى خراسان ثم انضموا إلى طغرل بك الذي جعل سلغر من ضمن حجابه، وتمكن واحد من نسل سلغر هو سنقر بن مودود من حكم فارس سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) وتأسيس دولة لأسرته فيها ظلت أكثر من قرن (٥٤٣- ٦٨٦هـ= ١١٤٨- ١٢٨٧م)، وقد دفع بعض أمرائها الجزية للدولة الخوارزمية كما خضع آخرون للمغول عند ظهورهم[1].

(١) ابن الأثير ج١٠، ص١٢٤و ١٤٣و ١٤٨ وصبح الأعشى ج٤ ص١٦٥- ١٧٦ و٣١٦و
Brown, Acc.Ms. h. Seljuks, p. 8.
و Cam, Med. H., Vol. IV, pp313- 315.
و Lane poole, Muth. Dyns., pp. 159- 180.

(د) ظهور طائفة الإسماعيلية (الحشيشية):

أول ما ظهرت دعوة الإسماعيلية في بلدة ساوة في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي[١] وقد ساعد على سرعة انتشارها في طول البلاد وعرضها إلغاء ملكشاه لنظام أصحاب الأخبار، ثم قيام النزاع بعد موته بين ابنيه بركياروق ومحمود[٢] وقد تمكن الإسماعيلية في أيام بركياروق من نشر دعوتهم في أصبهان ثم الاستيلاء عليها وذلك حين كان يرأسهم أحمد بن عطاش، كما أنهم في عهد رئاسة تلميذه الحسن بن الصباح استولوا على ألموت وعلى كثير من القلاع الأخرى مثل قهستان وزوزن وتون وغيرها من أمثال خالنجان وآمل وكركوه[٣]. فلما مات بركياروق وتولى السلطنة أخوه محمد بن ملكشاه رأى فيهم خطراً شديداً على نفوذه، وسيّر جيوشه لمحاربتهم وظل يكافحهم مكافحة شديدة، ولكنه لم يعش طويلا حتى يقضي عليهم قضاء تاماً[٤].

---

(١) ابن الأثير ج١٠، ص ١٣٠.
(٢) البنداري ص ١١٧ وابن الأثير ج١٠، ص١٣٠.
(٣) ابن الأثير ج١٠، ص١٣١- ١٣٢ وصبح الأعشى ج١ ص١٢٠- ١٢١.
(٤) ابن الأثير ج١٠ ص١٨٠- ١٨٢و ٢٠٢و ٣٢٢.
Camb. Med. H.,
Browne, Acc, Ms., PP. 38, 43, Vol. IV, p. 311.

هذا وقد كان ظهور هؤلاء الإسماعيلية سبباً في إضعاف الدولة السلجوقية ليس فقط باستيلائهم على البلاد التي تقدمت الإشارة إليها وسلخها عن أملاك الدولة السلجوقية أو باضطرارهم السلاطين إلى تسيير الجيوش إليهم، بل لأنهم زعزعوا الأمن في جميع أرجاء الإمبراطورية السلجوقية، كما أدخلوا الرعب في قلوب الأهلين[١].

أضف إلى ذلك أن الإسماعيلية كانوا سنداً لمن تسلطوا على البلاد في أيام سلاطين السلاجقة الضعاف مثل أبي إسحق الدركزيني في أيام السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، ومثل خاصبك بن بلنكري في أيام السلطان مسعود، فعاونوهم في سياستهم التخريبية كما أزالوا أعداءهم من الوجود. وقد بلغ من اعتماد هؤلاء المستبدين على مساعدة الإسماعيلية لهم في عدوانهم أن قال أبو اسحق الدركزيني للسلطان طغرل بن محمد الذي خلف محمودًا على السلطنة، والذي وزر له الدركزيني وقتا قصيرًا حين سأله عن الجند الذي يلزم للقضاء على ثورة أخيه مسعود: "لا تبالِ ولا تخطر خطراً بالبال، فإني قد ندبت جماعة من الحشيشية لقتل أعدائك" [٢].

هذا وليس في إمكان الباحث عن أثر الإسماعيلية في إضعاف السلاجقة أن ينسى أن هؤلاء الإسماعيلية بقتلهم كثيراً من

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص١٣٠. Browne, Acc, Mc.,. pp. 40- 42.

(٢) البنداري، ص ١٦٩.

الشخصيات البارزة في أيام السلاجقة حرموا الدولة من معاونتهم، وليس هناك من ينكر ما خسرته الدولة بقتل أمثال نظام الملك وزير ملكشاه، وجمال الملك السميرمي وزير محمود بن محمد بن ملكشاه، وفخر الملك بن نظام الملك وزير السلطان سنجر صاحب الأمر في خراسان [1].

(١) ابن الأثير ج١٠، ص١٣٠و ٢٥٦و ١٧٥.

٢. حسن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين وأثرها في زوال النفوذ السلجوقي من العراق

لم تكن حالة الخلفاء العباسيين في أيام السلاجقة تختلف اختلافا كبيرًا عما كانت عليه في أيام بني بويه. ذلك لأنه بينما كان أمراء بني بويه يقيمون في بغداد ويجمعون في يدهم كل السلطة، كان نواب السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالنفوذ فيه(١).

وقد بلغ من عجز الخلفاء عن تدبير الأمور في ذلك الوقت وضآلة أثرهم أن الناس في بغداد قاموا في أيام الخليفة القائم سنة ٤٦٥هـ "وأنكروا كثرة المغنيات والخمور، فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندي، فثار به الجندى الذي كانت عنده فضربه، فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة.. واستغاثوا إلى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والخانات وتبطيلها فوعدهم أن يكاتب السلطان في ذلك"(٢)، ولم يجرؤ أن يتخذ قرارًا في هذا الشأن.

أضف إلى ذلك أن الخلفاء العباسيين ظلوا يعيشون في أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها لهم عمال من بينهم الوزير وكاتب الإنشاء

---

(١) Riohard Coke, Baghdad the city of peace, p. 114.

(٢) ابن الأثير، ج١٠، ص٣٨.

على ما كان عليه الأمر في أيام بني بويه[١]، ولم يكن لهم من الأمر سوى ذكر اسمهم في الخطبة، كما كانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها[٢].

على أن هذا يجب إلا يحجب عن أنظارنا تلك الحقيقة الواضحة وهي أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بني بويه لهم[٣]، فقد وصف لنا ابن الأثير الاجتماع الذي حدث بين السلطان طغرل بك – عندما عاد إلى بغداد سنة ٤٤٩هـ على أثر إخضاعه الموصل وقضائه على مناوأة دبيس بن مزيد وقريش بن بدران – وبين الخليفة القائم فقال[٤]:

"وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوسًا عامًا وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد وحضر السلطان في الماء وأصحابه حول في السميريات، فلما خرج من السميرية أُركِب فرسًا من مراكب الخليفة، فحضر عند الخليفة، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع وعليه بردة النبي وبيده القضيب الخيزران، فقبّل السلطان الأرض وقبل يده وأجلِس على كرسي، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء:

---

(١) البنداري، ص ١٩٤.

(٢) ابن خلكان ج٢، ص ١٦٣، و:
Le Strange, Baghdad During the Abbassid Caliphate, p. 327.

(٣) Cambridge Medieval history, Vol. IV, p. 227.

(٤) ابن الأثير ج٩، ص٢٦٤– ٢٦٥.

قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك وقد ولّاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية. فقبل الأرض، وأمر الخليفة بإفاضة الخلَع عليه، فقام إلى موضع لبسها فيه وعاد وقبّل يد الخليفة ووضعها على عينيه، وخاطبه الخليفة بملك مشرق ومغرب وأعطى العهد وخرج، وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسون ألف دينار وخمسون مملوكا أتراكا من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وغيرها".

ولا شك أن هذا الوصف يبين ما كان يحمله طغرل بك للخليفة من الود والاحترام الحقيقي، كما يوضح أن ما حدث في هذا الاجتماع كان طبيعيا لا تكلف فيه بعكس ما حدث عند اجتماع الخليفة الطائع وعضد الدولة بن بويه، ذلك الاجتماع الذي لم يدعُ إليه سوى رغبة عضد الدولة في إظهار أبهته ونفوذه أمام رسول الخليفة الفاطمي العزيز، الذي كانت تغلب عليه الكلفة والتصنع.

والأمثلة على احترام السلاجقة للخلفاء العباسيين وحسن معاملتهم لهم كثيرة، منها أن طغرل بك عندما عاد إلى بغداد مرة أخرى سنة ٤٥٥هـ قادمًا من أرمينية وعلم أن الخليفة القائم يريد أن يستقبله بنفسه، أعفاه من ذلك واكتفى بأن يستقبله وزيره ابن جهير.

ومنها أن السلطان ملكشاه عندما وفد عليه الشيخ أبو إسحق الشيرازي سنة ٤٧٥هـ يحمل رسالة من قبل الخليفة المقتدي تتضمن شكواه من العميد أبي الفتح بن الليث عميد العراق، أكرمه وأجابه إلى جميع ما التمسه، فأهين العميد ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة. ومنها أن السلطان ملكشاه أيضًا عندما ذهب إلى بغداد سنة ٤٧٩هـ في أيام الخليفة المقتدي، طلب أن يقبّل يد الخليفة ولكن هذا لم يجبه إلى ذلك، فسأل أن يقبل خاتمه، ولما أعطاه إياه قبّله ثم وضعه على عينيه، كما أنه أمر أن يزاد في إقطاع وكلاء الخليفة نهر برزى من طريق خراسان وعشرة آلاف دينار من معاملة بغداد [١].

وإن أقوى العلاقات بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة لتتجلى فيما كانوا يتبادلونه من الخلع والتفويض فقد كان الخليفة عند ارتقائه عرش الخلافة يرسل إلى السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا، كما كان السلطان السلجوقي بعد أن يتولى السلطنة يلتمس التفويض من الخليفة العباسي[٢]. كما تظهر تلك العلاقات أيضًا فيما كان بين البيتين السلجوقي والعباسي من الارتباط بأواصر الزواج، وإن المؤرخين ليذكرون لنا أمثلة كثيرة لذلك، فهذا طغرل بك قد تزوج سنة ٤٥٤هـ ابنة الخليفة القائم،

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص٩و ٥١و ٦٤- ٦٥.
(٢) ابن الأثير، ج١٠، ص٤٠و ٦٤.

وذاك الخليفة القائم نفسه قد زوج ابنه المقتدي من ابنة السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٤هـ، كما أن الخليفة المستظهر ابن المقتدي تزوج من ابنة السلطان ملكشاه سنة ٥٠٢هـ، وتزوج الخليفة المقتفي فاطمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان مسعود(١).

ولا شك أن السبب فيما كان هناك من علاقات طيبة بين السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين يرجع إلى أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني الذي كان الخليفة العباسي رئيسه الأعلى، وقد ذكر في ذلك السير توماس أرنولد: "أن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي لا لمركزه السياسي، بل لأنه خليفة الله(٢)".

وإن ما ذكره وإن كان يدل دلالة واضحة على ما كان بين السلاجقة والخلفاء العباسيين من طيب العلاقات وحسن التفاهم وتبادل الاحترام، إلا أنه في الوقت نفسه لا يحول دون ذكر ما حدث من سوء تفاهم بين الطرفين في بعض الأحيان وتعدى السلاطين على الخلفاء، ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما غضب السلطان ملكشاه على الخليفة المقتدي وأمره بالخروج من بغداد والذهاب إلى البصرة بسبب تدخله في شئون الحكم على ما ذكره سير وليام ميور(٣)،

(١) ابن خلكان ج٢، ص٦٢و ٦٣ وابن الأثير ج١٠و ص٨و ٢٩و ١٩٩.
(٢) Arnoid, the caliphate, p. 80.
(٣) Muir, The Caliphate, its rise, decline & fall, p. 577.

أو بسبب رغبة ملكشاه في إسناد الخلافة إلى جعفر بن الخليفة المقتدي من أخته على ما ذكره ابن خلكان[١]. كما أنه لم يمنع اعتداء السلاجقة على الخلفاء في بعض الأوقات، وقد ذكر في ذلك السير توماس أرنولد أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب ظل الله الذي كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم في الماضي وأنهم أخذوا من الخليفة المسترشد بردة الرسول التي كان الخلفاء يلبسونها عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية[٢]. غير أن مثل هذه الأعمال لم تصدر من السلاجقة إلا نادرًا، بل إن الأمثلة المذكورة قد تكون كل ما ذكر في هذه الناحية.

ولم يكن احترام الخلفاء العباسيين في ذلك الوقت مقصورًا على السلاجقة، بل إن غيرهم من الأمراء الذين كوّنوا إماراتهم بقوة السيف كانوا لا يزالون ينظرون إلى الخليفة العباسي كواسطة لتثبيت عروشهم وإكساب حكمهم صبغة شرعية. وقد ذكر سير توماس أرنولد[٣] أن يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين في إسبانيا أرسل إلى الخليفة المقتفي يلتمس منه تثبيته في حكم أملاكه،

---

(١) ابن خلكان- وفيات الأعيان، ج٢، ص١٦٤.

(٢) Arnold, The Caliphate, p. 80.
جاء في مجموعة كمبردج للقرون الوسطى أن ملكشاه لقب بأمير المؤمنين وهذا اللقب لم يطلق قبل ذلك إلا على الخلفاء.

(٣) Arnold, the caliphate, p. 38.

فكان في قوله هذا دليل على أن الخلفاء ما زالوا في ذلك العهد يتمتعون بسلطة أدبية في داخل بغداد وخارجها.

على أن أهم ما يجب ملاحظته هو أن معاملة السلاجقة للعباسيين بالحسنى أعادت إلى أنفسهم الأمل وجعلتهم يفكرون في إعادة مجد الخلافة العباسية السالف[١]. وقد ذكر سير وليام ميور[٢] أن الخليفة المقتدي تدخل في شئون الحكم في أيام السلطان ملكشاه، وأن هذا السلطان حين أحس بتدخله طلب منه عدم التدخل وأصدر أمرًا بتوجهه إلى البصرة حتى يكون بعيدًا عن مركز الحكومة، ولولا موت السلطان لأصبح أمر انتقاله إلى البصرة في حيز الوجود. كما ذكر ابن خلكان[٣] أن ملكشاه لما دخل بغداد في آخر مرة "وكان للخليفة ولدان أحدهما المستظهر بالله والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان.. وكان الخليفة قد بايع لولده المستظهر بولاية العهد من بعده لأنه كان الأكبر، ألزم السلطان الخليفة أن يخلعه ويجعل ابن بنته جعفراً ولي العهد ويسلم بغداد إليه ويخرج الخليفة إلى البصرة. فشق ذلك على الخليفة وبالغ في استنزال السلطان عن هذا الرأي فلم يفعل، وطلب المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله، فقيل إن الخليفة في

---

(١) Arnold, the caliphate, p. 80, Coke, Baghdad, p. 114.
Cambrridge Med. Hist, Vol. IV, p. 277.

(٢) Muir, the Caliphate, p. 577.

(٣) ابن خلكان- وفيات الأعيان، ج٢، ص١٦٤ .

تلك الأيام جعل يصوم ويطوى، وإذا أفطر جلس على الرماد للإفطار وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان، فمرض السلطان في تلك الأيام ومات وكفى الخليفة أمره".

وإذا كان المقتدي قد فعل ذلك في أيام ملكشاه العظيم وحين كان نفوذ السلاجقة في العراق لا يزال كبيرًا، فإن خلفاء ساروا على شاكلته وشجعهم ما أصاب السلاجقة من الضعف في ذلك الوقت. والخليفة المسترشد أول من سار بخطى جدية في هذا السبيل، وأول ما نعلمه من خطواته هذه ما ذكره ابن خلكان[1] من أنه عندما ولّى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي دبيس على الموصل وكان الخليفة لا يوده عمل ما في وسعه حتى أقنع السلطان بتولية زنكي وعطل أمر دبيس. وقد خرج الخليفة المسترشد بعد ذلك سنة ٥٢٠هـ على السلطان محمود بن محمد وهزم قواته وكاد يستقل بالأمر لولا مساعدة زنكي حاكم البصرة في ذلك الوقت للسلطان. كما أنه عند موت هذا السلطان أخذ المسترشد يحرض بعض أفراد البيت السلجوقي على الخروج على السلطان الجديد، ولما أراد زنكي أن يضع حدًا لعمله حاربه وشتت قواته وتبعه حتى الموصل وحاصره بها ثلاثة شهور وكان ذلك سنة ٥٢٧هـ[2].

(١) ابن خلكان- وفيات الأعيان، ج١، ص٢٤١ .

(٢)وفيات الأعيان، ج٢، ص١٦٤وابن الأثير ج١٠، ص ٢٧١- ٢٧٢ و ٢٨٩ و ج١١ ص٢.

ولم يكتف بذلك بل سار بجيشه ومعه سلجوق أحد أمراء البيت السلجوقي وهاجم قوات مسعود قرب همذان، فكان بذلك مثلا أعلى لمن أتى بعده من الخلفاء[1].

وإذا كان المسترشد لم ينجح في تنفيذ أغراضه وهزمه جند السلطان مسعود وأمروه ووضعوه في خيمة حيث قتله نفر من الحشيشية، فإن ابنه الراشد الذي ارتقى بعده عرش الخلافة سار على شاكلته وأدى به حب الثأر لأبيه إلى إهانة رسول السلطان مسعود ودعوة العامة إلى تدمير قصره، كما أنه أخذ يستعد لامتشاق الحسام بعد أن انضم إليه زنكي بسبب قتل السلطان لصديقه دبيس بن صدقة، متهما إياه بقتل الخليفة، وقد كانت خاتمة الراشد كخاتمة أبيه لأن السلطان مسعود لم ينتظر حتى يهاجمه الخليفة، بل سار حتى وصل إلى بغداد وحاصرها وضيّق عليها الخناق واضطر الخليفة إلى الفرار منها إلى الموصل حيث صديقه زنكي ثم قتله بعض الحشيشية بعد ذلك عندما ذهب إلى أصبهان[2].

---

(١) وفيات الأعيان، ج١، ص١٤٢و Arnold. the Caliphate, pp. 80- 81 C و , Muir, The calipjate, p. 580 و Acount of Ms., p. 57 .

(٢) ابن الأثير ج١١، ص١١- ٢٨.
Muir, The Caliphatr, p. 580.
Account of a rare Manuscript History of the Seljuks, p. 58.

ولما صار المقتفي لأمر الله خليفة بعد موت الراشد، عمل جهده لتنفيذ رغبة أسلافه وإتمام ما بدأوه. ويعتبر الدور الذي قام به في هذا السبيل من أهم هذه الأدوار لأنه توج مجهودات من سبقه بالنصر المبين. وقد بدأت مجهودات المقتفي في آخر عهد السلطان مسعود، ولم تكن ضد السلطان مباشرة بل كانت ضد بعض الأمراء السلاجقة. فإن السلطان مسعودًا بعد أن قتل بوزابة استدعى محمد ابن أخيه محمود الذي كان يرافق بوزابة وعطف عليه وزوجه من ابنته، كما ملكه خوزستان وبذلك أصلح حاله وجمع له بعض أسباب النفوذ، ولكن بعد ذلك تسلط جماعة من الأمراء على هذا الأمير ورغبوه في الخروج على السلطان وأقنعوه بالسير معهم لحصار بغداد فسار معهم هو وأخوه ملكشاه بن محمود وحاصر الجميع بغداد سنة ٥٤٣هـ وقتلوا من أهلها زهاء خمسمائة نفس، أبوا أن يرفعوا الحصار إلا بعد أن يدفع لهم الخليفة ثلاثين ألف دينار. وقد وقف الخليفة المقتفي أمام هذا الخطر موقف البطولة، إذ استشار رجاله فوافقوا على دفع المبلغ للأمراء، ثم أخذ رأي يحيى بن محمد بن هبيرة وكان يومئذ صاحب الديوان فنصحه بأن يستخدم هذا المبلغ في إعداد جيش لدفع خطرهم، وفضّل الخليفة رأي ابن هبيرة ونجح في دفع هذا الخطر، وكان في عمله هذا إرضاء السلطان مسعود كما كان فيه

فرصة حسنة ساعدت على جمع جيش قوي كان سند الخليفة في مراحل جهاده المقبلة[١].

وقد حدث بعد ذلك أن مات السلطان مسعود سنة ٥٤٦هـ وولي السلطنة ملكشاه بن محمود الذي اشتغل باللهو والخمر وترك الأمر لخاصبك بن بلنكري، ثم تبع هذا خلع خاصبك لملكشاه واستدعاؤه لأخيه محمد بن محمود وجعله سلطانه[٢]، فبدأت بذلك المرحلة الثانية من مراحل النزاع بين الخليفة المقتفي والسلاجقة، ولم يكن محمد بن محمود في هذه المرة هو المعتدي، بل إن الخليفة ووزيره ابن هبيرة طردا نائبه من بغداد وأخذا يبسطان نفوذ الخلافة في العراق ويقطعان أجزاءه لعمال الخلافة، كما أنهما بعد ذلك حين لجأ إليهما سليمان بن محمد بن ملكشاه أمناه وأرسلا معه جيشًا تقابل مع جيش السلطان محمد بن محمود ولم يعد إلى بغداد إلا بعد أن تقاعس سليمان عن السير. وقد كان ذلك سببًا في نجاح الأمراء في إقناع السلطان محمد بن محمود بمهاجمة بغداد، فسار لهذا الغرض سنة ٥٥١هـ وحاصرها وانتهى أمره بالفشل والعودة من حيث أتى، وكان في ذلك نهاية عهد النفوذ السلجوقي في العراق[٣].

---

(١) ابن الأثير، ج١١، ص٦٠و ٦٦.
والبنداري- زبدة النصرة ونخبة الغصرة، ص١٧٣.
(٢) ابن الأثير ج١١، ص٧٢- ٧٣.
(٣) وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٢٨.

الفصل الثاني

أيام العباسيين الأخيرة في العراق

١. الحالة الداخلية

بعد أن تمكن المقتفي لأمر الله من صد السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي عن بغداد سنة ٥٥١هـ، حكم مستقلا في العراق حتى سنة ٥٥٥هـ. وبعد موته ارتقى عرش الخلافة المستنجد (٥٥٥- ٥٦٦هـ) ثم المستضيء (٥٥٦- ٥٧٥هـ) ثم الناصر. (٥٧٥- ٦٢٢هـ) ثم الظاهر (٦٢٢- ٦٢٣هـ) ثم المستنصر (٦٢٣- ٦٤١هـ)، وقد تمكنوا جميعًا من الاحتفاظ باستقلال العراق أكثر من مائة سنة، ولكن أيامهم لم تكن أيام يسر وطمأنينة للعراق بل كانت على العكس أيام فقر واضطراب، كما أن الخلل والضعف لم يكن مقصورًا على ناحية واحدة من نواحي الحياة بل شملها جميعا[1].

وابن الأثير ج١١ ص٩٢- ٩٦.

وأبو الفدا، ج٣، ص٣٢.

و Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall, p. 580.

Account of a. rare Manuscript History of the Seljuks. p. 67.

(١) جاء في مجموعة كمبردج للقرون الوسطى ج٤ ص٢٧٨ أن أملاك الخلافة العباسية في أيام الخليفة الناصر أعظم خلفاء هذه الفترة كانت تمتد من تكريت حتى رأس الخليج الفارسى.

(أ) الناحية السياسية:

كان معظم خلفاء هذه الفترة ضعاف الشخصية ليس لديهم دراية بشئون الحكم. وقد مدح مؤرخو العرب أكثر من واحد من بينهم؛ ولكنهم لم يزيدوا عن القول بتقواهم وورعهم ولم يذكروا أعمالا لهم تستحق الذكر. كما أن مستر لبرخت في الفصل الذي كتبه تذييلا للجزء الثاني من ترجمة آشر لرحلة بنيامين التطيلي[١] شبه الخليفة العباسي في الفترة التي أعقبت حكم الراضي وامتدت حتى المستعصم بالمنتخب الأعظم Great Elector في مشروع سييس الذي وضعه في سنة ١٧٩٩[٢] إحدى سني الثورة الفرنسية ولم ينفذ. فقد كان هذا المنتخب طبقا لهذا المشروع يشترك مع قنصلين هما المسئولان عن أعمال الحكومة، بينما هو يقيم في القصر (الملكي) في فرساي تحت حراسة ثلاثة آلاف من الرجال ويتقاضى ستة ملايين من الفرنكات كل عام. وقد ذكر مستر لبرخت أيضًا أن كثيرين من هؤلاء الخلفاء لم يزد الواحد منهم عن أن يكون مثل هذا الشبح الأجوف.

---

(١) Asher (Trans) Itinerary of Rabbi Benjamin if Tudela, Vol. II, p. 347.

(٢) جاء في كتاب A General, History of Europe, By Thatcher & Schwill, Vol, II, pp. 470- 573

أن نابليون بعد أن عاد من مصر في أكتوبر سنة ١٧٩٩ قضى على حكومة الإدارة ثم وضع هو وإخوانه دستور القنصلية وكان هذا الدستور من وضع سييس (Sieyes).

أما بنيامين التطيلي، فقد أمدنا بوصف شامل لحياة الخليفة العباسي وأفراد أسرته وذلك عندما زار بغداد في أيام المستنجد ونقله عنه أسبورن في كتابه "الإسلام في عهد خلفاء بغداد" وها نحن نسوقه في هذا المقام[1]: "يبلغ اتساع قصر الخليفة في بغداد ثلاثة أميال. وتوجد في هذا القصر حديقة واسعة بها كل أنواع الشجر سواء منه النافع أوالمستعمل للزينة وكل أنواع الوحوش، كما توجد به أيضًا بركة يمتد إليها الماء من نهر دجلة. وفي أي وقت يحس الخليفة برغبته في المتعة والتريض تجهز له الطيور والوحوش والأسماك.

وهذا العباسي العظيم يعطف على اليهود ويتخذ من بينهم كثيرًا من عُمّاله، كما يفهم كل اللغات ويعلم القانون الموسوي علما تامًا ويقرأ اللغة العبرية ويكتبها، ولا يطيب له إلا ما يحصل عليه بكد يده؛ ولذلك يصنع الأغطية ويسمها بخاتمه ثم يبيعها عماله في السوق العامة للأغنياء ويقتني بثمنها الأشياء التي تلزمه. والخليفة رجل فاضل موثوق به طيب القلب لا يضمر شرًا لأحد، ولكنه يحتجب عادة عن المسلمين، ويحب الحجاج الذين يفدون من الأقطار البعيدة عند مرورهم ببغداد في طريقهم إلى مكة أن يحظوا برؤيته فينادونه: سيدنا يا نور المسلمين ومجد الدين أرنا نور وجهك، ولكنه لا يعير كلماتهم اهتمامًا.

(١) Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, pp. 305- 312 .

وبعد أن يتقدم عماله ويقولون له أيها السيد اشمل هؤلاء الناس بسلامك لأنهم أتوا من بلاد بعيدة ويحبون أن يأووا إلى ظل عظمتك، يقوم ويضع أطراف ردائه خارج الشباك فيلثمها الحجاج بشغف ثم يقول لهم أحد الكبراء انصرفوا سالمين فسيدنا نور المسلمين مغتبط كل الاغتباط ويباركم. ولما كانوا يعتبرون هذا الأمير ممثلا نبيهم، فإنهم يسيرون في طريقهم يملؤهم الفرح لتلك الكلمات التي وجهها إليهم هذا الكبير ناقلا رسالة السلام. ومن عادة كل إخوة الخليفة وأفراد أسرته أن يلثموا ملابسه، كما أن كل واحد منهم يملك قصرًا داخل قصر الخليفة؛ ولكنهم جميعا مقيدون بسلاسل من حديد، ويقوم ضابط على كل مسكن ليحول دون ثورتهم ضد الرئيس الأعظم. وقد اتخذ الخليفة هذه الاحتياطات بعد أن ثار إخوته عليه واختاروا واحدًا من بينهم بدلا منه، فلكي يمنع حدوث مثل هذا في المستقبل قرر أن يقيد كل أعضاء أسرته بالسلاسل حتى يكبت ميولهم الثورية. ومع ذلك، فإن كل واحد منهم يقيم في قصره معززًا كما أنهم يملكون القرى والمدن ويجمع مديرو شئونهم إيجارها كما يأكلون ويشربون ويعيشون حياة كلها لهو. ويحوي قصر الخليفة مباني وأعمدة من الذهب والفضة وكنوزًا من الأحجار الكريمة. ويترك الخليفة قصره مرة كل سنة وذلك في وقت العيد المسمى رمضان (كذا)؛ فيجتمع زوار كثيرون مع الجهات البعيدة

ليحظوا برؤية وجهه، بينما يعلو صهوة بغلة مرتديًا الملابس الرسمية المصنوعة من نسيج الذهب والفضة وواضعًا عمامة مزينة بأحجار كريمة لا تقوم بمال فوقها قناع أسود كأنه رمز التواضع (كذا)، فكأنه يقول انظروا إلى هذه العظمة الدنيوية ستصير إلى الظلام يوم الممات، وتحف به حاشية كثيرة العدد من الأشراف يلبسون الملابس الفخمة ويركبون الخيول والأمراء الذين جاءوا من بلاد العرب وميديا وفارس بل ومن بلاد التبت التي تبعد ثلاثة شهور عن بلاد العرب. ويتقدم هذا الموكب من القصر إلى المسجد الواقع عند باب البصرة وهو المسجد الجامع، وهؤلاء جميعًا الذين يسيرون في موكب الخليفة، سواء أكانوا من الرجال أم النساء يلبسون الحرير. أما في الطرق والميادين فيكون الغناء والطرب وترقص الجماعات أمام الأمير العظيم الذي يسمى خليفة، وتحييه بقولها: "باركك الله يا سيدنا ومليكنا"، بينما هو يرد تحيتها بلثم ردائه ولمسه بيده. ثم يسير الموكب إلى ساحة المسجد ويعتلي الخليفة منبرًا خشبيًا ويشرح للناس قوانينهم. وينهض العلماء المسلمون ويصلون من أجله (كذا)، ويطرون عطفه العظيم ورحمته ويجيبهم المجتمعون بقولهم: آمين. وبعد ذلك يباركهم الخليفة ويذبح جملا مُعدًا لهذا الغرض وهو بمثابة قربان يوزع على الأشراف الذين يرسلون أجزاء منه إلى أصدقائهم الذين يشتهون أن يذوقوا اللحم الذي ذبحه أميرهم المقدس.

ثم يترك المسجد ويعود وحده إلى قصره على شواطئ دجلة يصحبه الأشراف في قوارب حتى يدخله. ولا يعود الخليفة من الطريق الذي أتى منه أبدًا، كما أن السبيل الذي سلكه على شاطئ النهر يوضع تحت الحراسة الدقيقة طول العام حتى لا يسلكه غيره. ولا يترك الخليفة قصره مرة أخرى طول العام".

ولا شك أن هذا الوصف على الرغم مما تخلله من الأخطاء بسبب جهل بنيامين التطيلي بتعاليم الدين الإسلامي يرينا كيف كان الخلفاء العباسيون في ذلك الوقت يقضون حياتهم في اللهو واللعب، كما يرينا تمسكهم بأهداب الرفعة وميلهم إلى الظهور أمام الناس بمظهر القدسية، وأنهم كانوا يقضون حياتهم خائفين على مراكزهم أن ينتزعها منهم أحد أفراد أسرتهم فيصبحون بعيدين عن الناس وعن إدارة شئون الدولة.

والواقع أن هؤلاء الخلفاء جميعًا كانوا ضعافا ولم يستفد العراق من حكمهم كثيرًا أو قليلا، بل إن حكمهم جر عليه الويل. وإذا كان الناصر قد شذ عنهم بشخصيته القوية ومطامعه الكبيرة ونشاطه الجم وميله إلى العمل، فإنه لم يكن لأعماله من الأثر ما يختلف عما كان لأعمال الآخرين من آثار، بل إن أيامه لتعد من أسوأ الأيام في العراق، وذلك لأن قوته كان يشوبها الظلم والتجبر فكان يثقل كاهل

الناس بالضرائب والمكوس[1] كما كان يشوبها الغرور وليس أدل على ذلك من العلم بأنه أراد أن يحيط نفسه بهالة من السمو فابتعد عن الناس كما ادعى العلم بالغيب. وإن المؤرخين ليذكرون لنا كثيرًا من أخبار ادعاءاته، فمن ذلك ما ذكره السيوطي[2] "من أن رسول صاحب مازندران دخل بغداد وكانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل... فخرج من بغداد وهو لا يشك أن الخليفة يعلم الغيب"، وكذلك ما ذكره من أن "رسول خوارزمشاه أتى بغداد برسالة مخفية (يقصد سرية) وكتاب مختوم، فقيل له: ارجع فقد عرفنا ما جئت به"، وأيضًا من ذكره من أن "رجلا أتى ببيغاء تقرأ قل هو الله أحد تحفة للخليفة من الهند فأصبحت ميتة، وأصبح حبران (كذا) فجاءه فراش يطلب منه البيغاء فبكى وقال: الليلة ماتت، فقال: قد عرفنا هاتها ميتة. وقال: كم كان ظنك أن يعطيك الخليفة. قال: خمسمائة دينار. قال: هذه خمسمائة دينار خذها فقد أرسلها إليك الخليفة فإنه أعلم بحالك منذ خرجت من الهند".

ونحن لا نكاد نجد لأي واحد من خلفاء هذه الفترة يدًا في إدارة شئون البلاد؛ لأنهم كانوا يعيشون في قصورهم الواسعة ولا يظهرون للناس إلا نادرًا. وقد كانت الحكومة في زمنهم في أيدي غلمان

(١) السيوطي – تاريخ الخلفاء. ص١٨١.
(٢) المصدر نفسه، ص١٨٠.

القصر وعلى رأسهم أستاذ دار الخليفة يحركها كيف يشاء. وتمتاز هذه الفترة على وجه العموم وبغير استثناء بازدياد سلطة أساتذة الدار. ففي أولها تمكن عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء أستاذ دار المستنجد من تدبير مؤامرة ذهب الخليفة ضحيتها وذلك حين خاف بطشه، هذا إلى أنه بعد ذلك أحضر ابن الخليفة المقتول ووضعه على عرش الخلافة ولقبه بالمستضيء وذلك بعد أن اشترط عليه شروطًا قبلها[١]، فكأنه تمكن من التخلص من خليفة ووضع آخر مكانه ثم وضع لمن أجلسه على العرش السياسة التي يسير عليها، وليس بعد هذه السلطة أمل لمؤمل.

وفي أيام الناصر كان نفوذ أستاذ الدار لا يزال كبيرا أيضًا، بدليل ما ذكره ابن جبير في كتابه[٢] بعد زيارته لبغداد سنة ٥٨٠هـ، حيث قال إن أستاذ الدار قيم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية، وكان يدعى له إثر الدعاء للخليفة. وقد بلغ من ازدياد سلطة أساتذة الدار أن طغوا على الوزراء فلم نعد نسمع عنهم شيئا. ونحن لا نكاد نرى بعد ابن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد وزيرًا واسع السلطان مسموع الكلمة. وقد ذكر ابن جبير في رحلته[٣] أنه وجد في بغداد

(١) الفخري، ص٢٣٣.
(٢) رحلة ابن جبير، ص٢٠٥.
(٣) المصدر نفسه.

نائب وزارة ولم يقل إنه وجد وزيرًا، وفي هذا ما يكفي للدلالة على أن الوزير وإن كان موجودًا إلا أنه كان لا يكاد يحس بوجوده إنسان.

وكان من أثر ضعف الخلفاء في هذه الفترة وتقلص سلطة الوزراء أمام تيار غلمان القصر وأساتذة الدار الجارف، إن اعتلت الإدارة في العراق وبدأ العامة يحسون بضعف الحكومة وعجزها عن تسيير دفة البلاد، ولذلك نجدهم يستهترون بها فتعم الفتن وتكثر الاضطرابات فيما بينهم. وإننا لنعجب حين يذكر لنا ابن الأثير[1] عند كلامه على سنة ٦٠١هـ أن ثلاث فتن وقعن في بغداد فيما لا يتجاوز الشهر بين أهالي المحلات المختلفة، ثم لا يلبث عجبنا أن ينقلب إلى دهشة حين يذكر لنا أن السبب في وقوع اثنتين منها هو أن أهل محلة من المحلات قتلوا سبعًا وأرادوا أن يمروا في المحلة الأخرى فاشتبك بهم أهلها، وأن الفتنة الثالثة كان السبب فيها أن رجلين من محلتين مختلفتين اختصما وتوعد كل منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا. والأدهى من ذلك وأمرّ هو ما ذكره من أن حكومة الخلفاء كانت تتدخل في كل هذه الفتن، فأحيانا تطفئها بعد أن يناوئها الأهلون وأحيانا تتركها حتى تسكن من تلقاء نفسها.

(١) ابن الأثير، ج١٢، ص٩٤.

(ب) الناحية الحربية:

لم تكن الناحية الحربية خيرًا من الناحية السياسية، فقد أخذ جيش الخلفاء العباسيين يفقد شهرته منذ تسرب الضعف إلى جسم الدولة العباسية، وكانت أيام بني بويه والسلاجقة في بغداد أيام انحطاط إن لم تكن أيام زوال لهذا الجيش؛ لأنه لم يكن من مصلحة هؤلاء الأجانب بقاء جيش يناوئهم النفوذ وقد يطردهم في يوم من الأيام حين يجد في نفسه القدرة على التغلب عليهم.

وعلى الرغم من أن هذا الجيش بدأ يزداد عددًا وعدة منذ أيام الخليفة المقتضي لأمر الله[1]؛ فإنه لم يبلغ الدرجة التي كان عليها في أيام العباسيين الأُوَل، ولم يزد عن أن يكون قوة ثانوية ليس في إمكانها أن تلعب دورًا مُهما في الحوادث الجسام. حقيقة أن خلفاء تلك الفترة استعملوا هذا الجيش في أمور عدة، فالمقتفي لأمر الله تمكن بوساطته من صد محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي عن بغداد سنة ٥٥١هـ[2] وحقق بذلك استقلال العراق وخلص الخلافة العباسية من سيطرة الأجانب بعد أن ظلت خاضعة لهم نحو أربعة قرون، وأن المستنجد تمكن بوساطته من القضاء على بني أسد أصحاب الحلة المزيدية حين رآهم يعيثون في بلاده فسادًا[3].

(١) ابن الأثير ج١١ ص٧٢ وما يليها.
(٢) ابن الأثير ج١١ ص٩٥- ٩٦.
(٣) أبو الفدا- المختصر في أخبار النشر، ج٣ ص٤٣.

إلا أن هذه الأعمال كانت ثانوية أيضًا، فقد كان السلاجقة حين صدهم المقتفى لأمر الله قد وصلوا إلى أشد درجات الضعف، هذا ونحن نعلم أن جيوش السلاجقة هزمت جيوش الخلافة بعد ذلك في أيام الخليفة الناصر، إذ إن هذا الخليفة عندما رأى ازدياد نفوذ طغرل بن أرسلان شاه بن طغرل جهز عسكرًا كثيفا سنة ٤٨٥هـ وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس ثم سيرهم لمحاربته ولكنه هزمهم قرب همذان[١]، كما أن بني أسد الذين انتصر عليهم الجيش العباسي في أيام المستنجد لم يزد أمرهم عن أن يكونوا قبائل بدوية لا يربطها نظام ولا يجمعها حكم.

ويثبت لدينا أن هذا الجيش كان قوة ثانوية لا أكثر ولا أقل، حيث نراه في أيام الخليفة الناصر يظهر العجز والقصور أمام جيوش محمد خوارزمشاه، فقد أرسله بقيادة وزيره ابن القصاب إلى خوزستان فاستولى عليها كما استولى على بعض مدن في فارس، ولكنه حين وصلت جيوش محمد خوارزمشاه انسحب منها وولى الأدبار[٢]، ولذلك كان الناصر يتحاشى ملاقاة جيوش محمد خوارزمشاه بعد ذلك.

Richard Coke, Baghdad the city of peace, p. 429.

(١) ابن الأثير، ج١٢، ص١٢ وأبو الفدا، ج٣، ص٨٠.

(٢) أبو الفدا، ج٣، ص٩٥.

ويضاف إلى ذلك أن الخليفة المستنصر كان يلجأ إلى الأمراء المسلمين يطلب معونتهم حين تهاجم حدود بلاده جيوش التتار. وإننا لنعلم أن الأيوبيين كانوا يرسلون إليه فرقا من جيوشهم، كما كانوا يستخدمون له جندًا مرتزقة[1] ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا لأن الخليفة كان يؤمن بضعف جيشه أمام تلك الغارات القوية من تلك الجيوش العظيمة.

(١) المقريزي – السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٣٥٧.

(ج) الناحية الطائفية:

كان خلفاء تلك الفترة كغيرهم من الخلفاء العباسيين يعتنقون المذهب السني؛ ولذلك نجدهم يتخذون الوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة من طائفة أهل السنة. هذا إلى أنهم كانوا ينشئون لهم المدارس والربط والمارستانات والمساجد، وقد ذكروا أن مدارسهم في بغداد بلغت الثلاثين في أيام الناصر[١]. ولم يقتصر الأمر على هذا بل إن الخلفاء كانوا يحضرون مجالس الوعظ التي جرى هؤلاء على إقامتها في ذلك الوقت، ويذكر ابن جبير[٢] أن الخليفة الناصر جعل الشيخ جمال الدين أبا الفضائل ابن علي الجوزي، أحد علمائهم، يقيم مجلسه في ساحة قصر الخليفة ومناظره مشرفة عليه حتى يسمعه، وكان يفرش هذا المكان بالحصر ليحضره العامة.

أما الشيعة فإنهم وإن لم يكونوا في ذلك الوقت موضع استبداد أو ظلم من الخلفاء؛ إلا أنهم كانوا في مكانة أدنى من مكانة أهل السنة، ولم يكن الخلفاء يتخذون منهم وزراء أو أعوانا، وقد حدث أن الخليفة الناصر – وكان يتشيع[٣] – اتخذ رجلا من الشيعة هو نصير الدين العلوي سنة ٦٠٤هـ بعد ابن القصاب وزيراً له فغضب أهل

(١) رحلة ابن جبير، ص٢٠٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠١.
(٣) أبو الفدا، ج٤، ص١١٩.

السنة وكثرت أقوالهم فيه حتى اضطر إلى عزله، ومن أقوالهم هذه الأبيات[1]:

ألا مبلِـغٌ عنـي الخليفـةَ أحمـدا توقّ وُقيتَ السوءَ ما أنتَ صانعُ
وزيرُكَ هذا بينَ أمرينِ فيـهما فعالُـك يـا خيرَ البريّةِ ضائعُ
فإن كانَ حقًـا مِن سلالةِ أحمدٍ فـهذا وزيرٌ في الخلافـةِ طـامعُ
وإن كان فيما يدّعي غيرَ صادقٍ فـأضيعُ مـا كانت لديهِ الصنائعُ

وقد كان لسياسة الخلفاء هذه إزاء الطائفتين أثرها السيء، لأن الشيعة أصبحوا يكرهون أهل السنة ويحقدون عليهم تمتعهم بالمراكز العليا دونهم وقربهم من الخلفاء، ولذلك كانت المعارك كثيرًا ما تقوم بين الفريقين فيقوض النظام ويضطرب الأمن.

وكان للمسيحيين في بغداد مركز ثابت، كما كان الخلفاء العباسيون يعاملونهم معاملة حسنة. وقد سمحوا لبطريق النسطوريين منهم بالإقامة في بغداد، كما سمحوا لهم جميعًا بإقامة الكنائس والأديرة ومزاولة طقوسهم الدينية. وكان للمسيحيين في بغداد الغربية أديرة كثيرة، منها دير العذاري في حي الكرخ ودير درتا وهو يحاذي باب الشماسية راكبًا على دجلة ودير القباب شمال حي الزبيدية ودير أشموني وهو بقطر بل شمال المدينة المستديرة،

(١) ابن الأثير، ج١١، ص١٢٩.

ودير مديان أو دير سرجيوس على قناة الكرخ، ودير الثعالب بقرب قبر معروف الكرخي، ودير الجاثليق بقرب دير الثعالب. وكانت توجد في بغداد الشرقية كنيستان إحداهما للنسطوريين والأخرى لليعقوبيين. وكان للنسطوريين أيضًا دير الروم ويحيط به حي النصارى الذي كان يقع إلى الشمال من قناة المهدي عندما تسير غربًا لتلتقى بقناة السور في حي الشماسية، كما أن لهم ديرين خارج باب الشماسية، هما دير درمالس ودير سمالو وشمالها دير سابر ودير مارجرجس. أما في بغداد الجديدة، فكان لهم دير الزندورد بقرب باب الأزج، وعندما كتب ياقوت كتابه البلدان، كان كثير من هذه الأديرة قد تهدم وأصبح أماكن نزهة يذهب إليها أهل بغداد لقضاء أعيادهم. على أن المسيحيين مع ذلك كانوا لا يزالون يحتفظون بمركزهم القديم في بغداد، واذا كانت بعض مبانيهم قد تهدمت في أثناء المنازعات التي كانت تقوم بين أهل السنة والشيعة فقد تهدم أيضًا من جراء هذه المنازعات كثير من مساجد المسلمين. ولا شك أن المسيحيين لم يلاقوا من الخلفاء العباسيين إلا كل عطف[1].

ولم تكن حالة اليهود في تلك الفترة من حياة الخلافة العباسية تختلف عن حالة المسيحيين من حيث الحرية والطمأنينة، فقد كان عددهم

(١) ياقوت- معجم البلدان، ج٤، ص١١٩- ١٨٥.
Le Strange Baghdad During the Abbassid Caliphate, pp. 208- 212.

في بغداد يبلغ الألف نفس عندما زارها بنيامين التطيلي في أيام المستنجد، كما كانوا يتمتعون بسلام وراحة وجاه عظيم، وكانت لهم مدارس لدراسة القانون الموسوي بلغت العشرة، وكان لهم رئيس يسمونه أمير الأسر ويسميه المسلمون حفيد داود النبيل، تحت سلطته كل الجمعيات اليهودية ويتمتع بدخل واسع، وكان الخلفاء العباسيون يقربون اليهود ويأمرون الناس - سواء منهم المسلمون أو المسيحيون - باحترام رئيسهم والقيام في حضرته. وكان لليهود ثمانية وعشرون معبدًا بعضها في بغداد الشرقية والبعض الآخر في الكرخ. وكانت هذه المعابد فخمة بها أعمدة الرخام ونقوش الذهب؛ وذلك لأن اليهود في بغداد كانوا أغنياء يملكون البساتين والعقارات ويشتغلون بالتجارة[1].

(١) Asher (Irans.) Itinerary of Rabbi Benjamln of Tudela, pp. 100-104.

(د) الناحية العمرانية:

العراق قطر زراعي والعمل الأساسي الذي يقوم به أهله هو الزراعة، وأهم ما تحتاج إليه الزراعة هو الاهتمام بمشروعات الري اهتمامًا يكفل للزراع الحصول على الماء حين يحتاجون إليه. ولما كان الخلفاء العباسيون بعد أن استقلوا بشئون العراق ساروا على شاكلة السلاجقة وأهملوا مشروعات الري إهمالا جعل الحصول على الماء اللازم للزراعة في حينه متعذرًا، كما جعل المزروعات عرضة لفيضانات الأنهار في كثير من الأحيان - فقد صار أهل العراق في هذه الفترة في أسوأ حال[١].

وزاد من سوء حال أهل العراق في ذلك الوقت ما اشتهر به الخلفاء من حب للمال وعملهم على جمعه. فإنهم لم ينسوا أن يثقلوا كاهل الناس بالمكوس والضرائب، وقد ذكروا أن المستنجد (٥٥٥-٥٦٦هـ) حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج[٢]، كما ذكروا أن الناصر (٥٧٥- ٦٢٢هـ) كان سيء السيرة خربت في أيامه العراق مما أحدثه من الرسوم، وما اغتصبه من الأموال والأملاك[٣]،

(١) Coke, Baghdad the City of peace, p. 125 .
(٢) الفخري، ص٢٣٢.
(٣) السيوطي – تاريخ الخلفاء، ص١٨١.

وأن الخراج في أيامه أصبح كبيرًا جدًا لدرجة أن بعقوبا[١] التي كان يحصل منها قبل زمنه عشرة آلاف دينار، أصبح يؤخذ منها في أيامه ثمانين ألفا[٢].

وكما أن الخلفاء أهملوا الزراعة والري فقد أهملوا التجارة وكان جشعهم سببًا في كسادها، وليس أدل على ذلك مما ذكره السيوطي حين قال إن فقيها خرج من سمرقند في أيام الخليفة الناصر يقصد الحج على فرس جميلة، فقال له أهله لو تركتها عندنا لئلا تؤخذ منك في بغداد[٣]، فإن جشع الخليفة الذي صار مضرب الأمثال وأصبح الناس يتقونه لدرجة أنهم يخافون على فرس يركبها رجل بقصد الحج، لا بد أخاف التجار وأزعجهم وجعلهم لا يقدمون إلى العراق.

ولم يُعنَ الخلفاء بإقامة المباني وتشييد القصور كما كان من سبقهم في أيام السلاجقة؛ وذلك لأن ظهور الدولة الخوارزمية أولا ثم ظهور الخطر المغولي بعد ذلك استغرق معظم جهودهم، ولذلك فإننا لا نكاد نعثر في هذه الفترة على مباني تستحق الذكر اللهم إلا المدرسة المستنصرية التي أسسها الخليفة المستنصر (٦٢٣- ٦٤٠هـ= ١٢٢٦-١٢٤٢م) وعلى العموم، فقد كانت هذه الفترة فترة تأخر للزراعة وكساد للتجارة وتأخر لفن العمارة.

---

(١) بعقوبا بالفتح ثم السكون وضم القاف وسكون الواو والباء موحدة ويقال لها بأعقوبا أيضًا قرية كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان، راجع اللفظ في معجم البلدان لياقوت.

(٢) صبح الأعشى، ج٤ خص ٣١١.

(٣) السيوطي – تاريخ الخلفاء، ص١٨٠.

٢. الحالة الخارجية

كانت حالة الخلافة العباسية الخارجية في هذه الفترة على العكس مما قد يتوقعه البعض - أحسن من حالتها الداخلية. فقد كانت الخلافة لا يزال لها في العالم الإسلامي مركز ممتاز وكان الخلفاء لا يزالون يتمتعون باحترام عظيم من المسلمين، وليس أدل على ذلك مما ذكره الذهبي في مخطوطه عند كلامه على سنة٦٢٢هـ، فقد قال إن الملك المعظم (يقصد الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل الذي حكم في دمشق من سنة ٦١٥ إلى سنة٦٢٤هـ) حين دعاه جلال الدين خوارزمشاه لمحاربة الخليفة الناصر كتب إليه يقول: "أنا معك على كل حال إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين". هذا إلى أن معظم خلفاء هذه الفترة كانوا يسيّرون الخلع والتقاليد إلى الأيوبيين في مصر والشام ومكة وأحيانا إلى فارس وخراسان وخوارزم وما وراء النهر. على أنه يجب علينا إذا أردنا أن نستوفي الكلام على الحالة الخارجية أن نتكلم على الدول الإسلامية في ذلك الوقت ثم على علاقة هذه الدول بالخلافة العباسية.

(أ) العالم الإسلامي في عهد استقلال الخلفاء (٥٥١- ٦٤٠هـ):

١. **الدولة السلجوقية في فارس:** بعد أن تضعضعت الأسرة السلجوقية وفقدت نفوذها في العراق سنة٥٥١هـ على أثر فشل السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه في التغلب على جيوش الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله التي قامت بالدفاع عن بغداد، لم يبق لها إلا فارس. وقد تمكن سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه عم محمد بن محمود المذكور من أن يصبح سنة ٥٥٤هـ صاحب الأمر فيها، واستقر في همذان وذلك بعد أن تغلب على ملكشاه ابن أخيه محمود وعلى أرسلان شاه ابن أخيه طغرل الأول وحكمها سنتين؛ وخلفه على العرش أرسلان شاه ابن أخيه طغرل وظل في الحكم إلى أن مات سنة ٥٧٣هـ، فخلفه ابنه طغرل الثاني الذي حكم سبع عشرة سنة فقد بعدها حياته وملكه، حين هزمه تكش خوارزمشاه وقتله وضم أملاكه إلى أملاك الدولة الخوارزمية سنة ٥٩٠هـ[1].

٢. **الدولة الخوارزمية:** أما الدولة الخوارزمية، فقد أسسها أحد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي واسمه أنشستجين Anushtigin حين جعله هذا السلطان العظيم حاكمًا على ولاية خوارزم

(١) البنداري، ص٢٩٤ وابن الأثير ج١٧، ص٥٠١ وأبو الفدا ج٣، ص٩٤.
و Muir, The Caliphate, p. 583
و Lane- poole, The Muhammadan Dynasties, p. 154.

سنة٤٧٠هـ. فقد خلفه ابنه قطب الدين محمد سنة ٤٩٠هـ ثم حفيده أطسن Atsiz سنة٥٢١هـ الذي كان أول من أظهر استقلاله عن الدولة السلجوقية العظمى سنة ٥٣٣هـ في أيام السلطان سنجر الذي مد نفوذه حتى مدينة جند الواقعة على نهر سيحون – وكان من المصادفات أن مات أطسن في سنة ٥٥١هـ-١١٥٦م التي بدأ فيها عهد استقلال الخلفاء العباسيين وتخلصهم من نير السلاجقة – ثم تولى بعده أبناؤه وأحفاده حتى وصل الأمر إلى تكش بن أيل أرسلان فضم إلى أملاكه خراسان والري وأصبهان فيما بين سنتي ٥٨٩ و٥٩٠هـ (١١٩٣ و١١٩٤م). وبعد موته سنة ٥٩٦- ١١٩٩م تولى ابنه علاء الدين محمد فسار في الطريق الذي سلكه أبوه واستولى على كرمان ومكران وبلاد الجبل وفارس[١]. كما أخضع لنفوذه بخارى وسمرقند وغزا أملاك الخطا واستولى على عاصمتهم أترار. وفى سنة ٦١١هـ- ١٢١٤م قضى على الدولة الغورية واستولى على غزنة. ولم يكن هذا هو كل ما فعله محمد خوارزمشاه، بل إنه في سنة ٦٢٤هـ- ١٢١٧م اعتنق المبادئ الشيعية وعول على السير إلى بغداد ولم ينقذها منه إلا غضب

(١) مكران بالضم ثم السكون وراء وآخره نون أعجمية، وهي ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها. راجع لفظ مكران في معجم البلدان لياقوت.

الطبيعة على جيشه ونزول الثلج على جنوده. وقد تبع ذلك ظهور المغول في شرق أملاك الدولة الخوارزمية ثم مهاجمتهم لها وفرار محمد خوارزمشاه أمامهم وموته حزنا على ضياع ممتلكاته سنة ٦١٧هـ، ثم قيام ابنه جلال الدين منكبرتي بعده بمحاربة المغول وانتهاء أمره بالهزيمة ثم الفرار والموت سنة ٦٢٨هـ وزوال الدولة الخوارزمية من الوجود(١).

٣. **الإسماعيلية (الحشيشية):** أما الإسماعيلية فإنهم كانوا من قوى العالم الإسلامي التي لا يستهان بها في ذلك الوقت، وأول ظهورهم كان في أصبهان على يد أحمد بن عبد الملك بن عطاش، وفى أيام تلميذه الحسن بن الصباح اتسع نفوذهم على قلاع أخرى كثيرة في بلاد فارس من بينها زوزن وكردكوه. وظهر لهم بعد ذلك أتباع في الشام في عدة مراكز من بينها حلب في أيام أميرها رضوان بن تتش ودمشق في أيام تاج الملوك بوري. وقد ظهر رجل منهم يسمى بهرام قوي نفوذه وتمكن من الاستيلاء على بانياس وعلى سبع قطع أخرى بين حماه وحمص وكاد يستولي على دمشق نفسها لولا أن أحس بوري بخطره. ثم تنقلت رئاسة الإسماعيلية بعد ذلك من واحد لآخر؛ حتى صارت في أيام صلاح الدين الأيوبي إلى أبي

(١) أبو الفدا- ج٣، ص١٢٤ والكامل لابن الأثير، ج١٢، ص١٧٠و ٢٣١.
و177 -178 .Lane- poole, The Muhammadan Dynasties, pp.

الحسن راشد الدين سنان المصرى. واشترك الإسماعيلية في الشام في كثير من الحروب الصليبية، كما أنهم حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبي فحاصر قلاعهم سنة ٥٧٢هـ ثم عفا عنهم، وقد مات رئيسهم سنان سنة ٥٨٨هـ ولم يأتوا بعد ذلك بأمر ذي بال.

وقامت حكومة الإسماعيلية في ألموت بزعامة الحسن بن الصباح، فلما مات سنة ٥١٨هـ تناوب الزعامة سبعة سموا مشايخ الجبل في مدى قرنين من الزمان بسطت فيهما نفوذها على كثير من بلاد قوهستان وتمكنت من مقاومة السلاجقة ثم الخوارزميين. وقد كان هؤلاء الرؤساء جميعا بعيدين عن العمل بالشريعة الإسلامية، فلما تولى الرئاسة جلال الدين بن حسن الكيا الصباحي أظهر التوبة في سنة ٥٥٧هـ وبقي على ذلك إلى سنة ٦٠٨هـ فأظهر شعائر الإسلام وكتب إلى جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام فأقيمت فيها، وبقي على ذلك حتى توفي سنة ٦١٨هـ فقام من بعده ابنه علاء الدين محمد الذي عاد إلى ما كان عليه أسلافه من الإلحاد، ثم ولي بعده ابنه ركن الدين خورشاه بعد أن حرض حسن المازندراني على قتل أبيه سنة ٥٦٣هـ[1].

---

(١) ابن الأثير ج١٠، ص١١٦ و ١٣٠- ١٣٢ والقلقشندي- صبح الأعشى ج١، ص ١٢٠- ١٢٢.

و Browne, Account M. H., pp. 40- 42.

و Browne, Lit. Hist. of persis, II, p. 453.

٤. **الدول الأيوبية:** ومن أهم الدول الإسلامية في تلك الفترة الدول الأيوبية في مصر والشام والجزيرة وبلاد العرب. فقد ذهب صلاح الدين إلى مصر موفدا مع عمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين، ثم ما لبث بعد موت عمه أن صار حاكم مصر الحقيقي وذلك سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) على الرغم من أن الخليفة الفاطمي العاضد لم يمت إلا بعد ذلك بثلاث سنين. وقد عمل بعد ذلك على نشر نفوذه فصار صاحب السلطان في مكة والمدينة بل وفي اليمن حين أرسل أخاه توران شاه إليها سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) فأسس بها حكومة أيوبية ظل يتولاها أفراد من بني أيوب حتى سنة ٦٢٥-٦٢٦هـ (١٢٢٨م)، حين حلت محلهم أسرة بني رسول. هذا إلى أن صلاح الدين نشر نفوذه في سورية على أثر موت نور الدين سنة ٥٦٩هـ (١١٧٢م)، وأخضع الموصل وجعل أمراء بلاد الجزيرة أقياله (٥٨١ هـ = ١١٨٥- ١١٨٤م) وبذلك أصبح السيد المطلق في الأراضي الممتدة بين الفرات والنيل اللهم إلا معاقل الصليبيين، ومع ذلك فقد قوضت موقعة حطين (يوليه سنة ١١٨٧- ٥٨٣هـ) أركان مملكة بيت المقدس الصليبية[١].

و Osborn, Islam under the caliphs, pp. 336.366.

و D'ohsson, Hist. des Mongoles, III, pp. 164- 187.

(١) المقريزي- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ص٤٣- ٥٥ و ٧٧- ١١٠.

Lane- poole, The Muh. Dyn, pp. 74- 75.

وبعد موت صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ انقسمت أملاكه بين إخوته وأولاده، فكانت اليمن في يد أخيه طغطكين سيف الإسلام (٥٧٧- ٥٩٣هـ)، وآلت البلاد الجزرية إلى أخيه العادل سيف الدين أبي بكر الصفدي، وكانت حلب في يد الظاهر غازي بن صلاح الدين، ودمشق في يد صلاح الدين، ابن صلاح الدين، ومصر في يد العزيز عثمان بن صلاح الدين، بينما كانت حمص في يد مجاهد شيركوه الثاني، حفيد أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، وكانت حماه في يد منصور الأول محمد بن مظفر الأول تقي الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه أخي صلاح الدين، وكانت بعلبك في يد بهرام شاه بن فروخ شاه داود بن نور الدين شاهنشاه المذكور[١].

غير أن الأمور ما لبثت أن تغيرت ولم تجر في طريقها العادي، فاستولى العادل على دمشق من الأفضل سنة ٥٩٢هـ ثم على مصر من منصور محمد بن العزيز سنة ٥٩٦هـ وظل يحكم تلك الجهات حتى مات سنة ٥٦١هـ، وبعد موته ترك أولاده فحكموا في مصر ودمشق وبلاد الجزيرة وأسسوا لهم بيوتا حاكمة فيها[٢].

---

(١) المقريزي، السلوك لمعرفة الملوك، ج١ ص٤٣- ٥٥و ٧٧- ١١٠.
و Lane- pool, The Muh, Dyn, p. 76.

(٢) حكم في مصر الكامل (٦١٥- ٦٢٥هـ) ثم ابنه العادل الثاني سيف الدين أبو بكر (٦٢٥- ٦٣٧هـ) ثم ابنه الثاني نجم الدين أيوب (٦٣٧- ٦٤٧هـ) وحكم في دمشق الملك المعظم شرف

بينما لم ينجح من أبناء صلاح الدين سوى واحد فقط هو الظاهر غياث الدين غازي (٥٨٢- ٦١٣هـ) الذي أسس دولة له في حلب[١]. أما بيت طغطكين سيف الإسلام في اليمن فقد ظل الأمر فيه يسير في مجراه الطبيعي، وكذلك كان الحال فيما يختص بالبيت الشيركوهي في حمص والبيت الشاهنشاهي في حماه، الذي من نسله أبو الفدا مؤلف كتاب المختصر في أخبار البشر. ويجب إلا ننسى أن الفرع الثاني من البيت الشاهنشاهي كان يحكم في بعلبك منذ موت صلاح الدين وزال سنة ٦٢٧هـ بموت بهرام شاه[٢].

ولو أمعنا النظر في تاريخ الدول الأيوبية لوجدنا أن حروبًا كثيرة كانت تقوم بين أفراد البيت الأيوبي، وكان من نتائج هذه الحروب أن بعض أفراد هذه البيوت الحاكمة كان يمد نفوذه أحيانا على أملاك البعض الآخر، ومثل ذلك ما حدث حين استولى الأشرف مظفر الدين موسى صاحب البلاد الجزرية على

الدين عيسى (٦١٥- ٦٢٤هـ) ثم ابنه الناصر صلاح الدين داود (٦٢٤- ٦٢٦هـ) ثم الصالح إسماعيل أخو الملك المعظم شرف الدين عيسى مرتين (٦٣٥و ٦٣٧- ٦٤٣هـ) وحكم في البلاد الجزرية عوض نجم الدين أيوب (٥٩٧- ٦٠٧هـ) ثم أخوه الأشرف مظفر الدين موسى (٦٠٧- ٦٢٨هـ) ثم أخوه الثاني المظفر غازى (٦٢٨- ٦٤٣هـ).

(١) بعد موت الظاهر حكم في حلب ابنه العزيز غياث الدين محمد (٦١٣- ٦٣٤هـ) ثم حفيده الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد (٦٣٤- ٦٥٨هـ).

(٢) ابن العبري، ص٣٩١- ٤٥٤.

و Lane- poole, The Muh, Dyn, pp. 76- 79.

دمشق سنة ٦٢٦هـ، ومثل ما حدث بعد ذلك حين مد الكامل صاحب مصر سلطانه على دمشق سنة ٦٣٥هـ وتبعه في ذلك العادل الثانى في نفس السنة ثم الصالح أيوب سنة ٦٣٧هـ وسنة ٦٤٣هـ بعد أن كان الصالح إسماعيل صاحبها قد استرد نفوذه فيها (٦٣٧- ٦٤٣هـ). أضف إلى ذلك ما كان يتعرض له الأيوبيون من هجمات الصليبيين التي يمكن أن نذكر من أهمها غزوهم دمياط في أيام الكامل سنة ٦١٦هـ وغزوهم دمياط والمنصورة سنة ٦٤٧هـ في أيام الصالح نجم الدين أيوب[١].

٥. **الروم السلاجقة:** كانت دولة الروم السلاجقة من ضمن الدول الإسلامية المعاصرة لفترة استقلال الخلفاء العباسيين الأخيرة (٥٥١-٦٤٠هـ) أسسها سليمان بن قطلمش kutlumish ابن أرسلان بيغو بن سلجوق سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) وتولى على عرشها من بعده أولاده وأحفاده [٢] حتى وصل الأمر إلى غياث الدين كيخشرو الثانى ابن علاء الدين كيقباد الأول

(١) ابن العبري، ص٤٥٢- ٤٥٤.
والمقريزي - السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص١٩٤- ٢٠٩و ٣٣٣- ٣٦٣.

(٢) حكم في فترة استقلال الخلفاء سبعة من السلاطين هم - عز الدين قليج أرسلان الثاني (٥٥١- ٥٨٤هـ= ١١٥٦- ١١٨٨م) وابنه قطب الدين ملكشاه الثاني (٥٨٤- ٥٨٨هـ= ١١٨٨- ١١٩٢م) وابنه الثاني غياث الدين كيخسرو الأول (٥٨٨- ٥٩٧هـ= ١١٩٢- ١٢٠٠م) وابنه الثالث ركن الدين سليمان الثاني (٥٩٧- ٦٠٠هـ= ١٢٠٠- ١٢٠٣م) وقليج أرسلان الثالث بن سليمان الثاني (٦٠٠- ٦٠هـ= ١٢٠٣- ١٢٠٤م) وكيخسرو الأول مرة ثانية (٦٠١- ٦٠٧هـ= ١٢٠٤- ١٢١٠م) وعز الدين كيكاوس الأول (٦٠٧- ٦١٦هـ= ١٢١٠- ١٢١٩م) وأخيرا علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦- ٦٣٤هـ= ١٢١٩- ١٢٢٦م).

(٦٣٤- ٦٤٣هـ) (١٢٣٦- ١١٤٥م). وأهم ما يمكننا ملاحظته أن هذه الدولة وقعت منذ سنة ٦٤٠هـ تحت نفوذ المغول، على أثر ما كان من انهزام غياث الدين كيخسرو أمام جيوشهم عند أرزنجان - إحدى بلاد أرمينية - ودخول هذه الجيوش وتغلغلها في بلاده، وفتحها سيواس وقيصرية عنوة ثم طلب غياث الدين الصلح وإجابته إليه على أن يدفع جزية سنوية قدرها أربعمائة ألف دينار ويقدم عدداً من العبيد والخيل والأشياء الثمينة[1].

٦. **أتابكية الموصل:** هذا ويجب إلا ننسى أن الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) ظلت قائمة في هذه الفترة وإن كانت قد ضعفت وضاقت رقعتها، وبعد أن كانت تشمل في أيام نور الدين محمود وأخيه سيف الله بن غازي الشام وبلاد الجزيرة، أصبحت لا تتعدى الموصل، وانتهى بها الأمر بعد وفاة ملكها القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي سنة ٦١٥هـ أن صارت تحت وصاية بدر الدين لؤلؤ الذي عينه الملك القاهر قبل وفاته وصياً على ولده نور الدين أرسلان شاه لصغر سنه، وصار بعد وفاة نور

(١) ابن العبري، ص٤٤٠- ٤٤٢.
و Lane- poole, The Muh, Dyn. p. 155.
Howorth, Hist of the Mongols, p. 166.

الدين هذا سنة ٦١٦هـ وصياً على أخيه ناصر الدين محمود الذي كان له من العمر ثلاث سنوات. وبعد وفاة هذا الأخير سنة ٦٣١هـ أصبح بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر في الموصل واستتب له الأمر فيها بل إنه أخذ يضيف إليها فملك جزيرة ابن عمر[١]. في سنة ٦٤٨هـ وأسر صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من بيت أتابك زنكي، ثم قتله وظل يحكم حتى سنة ٦٦٠هـ[٢].

(١) وهي بلدة كانت تقع على دجلة شمالي الموصل.
(٢) ابن العبري، ص ٣٩١- ٤٥٦.
Lane- poole, The Muh. Dyn., pp. 162- 163 و.

(ب) علاقة الخلافة العباسية بالدول الإسلامية:

إذا استعرضنا العلاقات الخارجية بين الخلفاء العباسيين والدول الإسلامية في ذلك الوقت، وجدناها تسير طبقا لسياسة مرسومة ترمي إلى غرضين اثنين: أحدهما تأمين العراق من الأخطار الخارجية، وثانيهما نشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي.

١- **تأمين العراق من الأخطار الخارجية:** تمكن الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله من صد غارة السلطان محمد بن محمود السلجوقي عن بغداد سنة ٥٥١هـ وأعاد بذلك إلى الخلافة العباسية نفوذها بعد أن كانت ألعوبة في أيدي الأجانب أكثر من قرنين (٣٣٤-٥٥١هـ) كما أعاد إلى العراق استقلاله. وبعد موته سنة ٥٥٥هـ اعتلى عرش الخلافة المستنجد فعمل هو ووزيره ابن هبيرة على تأمين العراق من الأخطار. وحدث في ذلك الوقت أن أصبح الأمر في فارس للسلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بعد تغلبه على ملكشاه ابن أخيه محمود وعلى أرسلان شاه ابن أخيه طغرل، وأرسل الأمير عبد الرحمن بن طغايرك لينوب عنه في بغداد، كما أرسل رسولا ليخطب له في العراق، فلم يرض المستنجد ووزيره بشيء من ذلك ولم يحققا أمله، ومات الرسول وانتشرت الأراجيف بعد موته كما عاد ابن طغايرك أدراجه[1].

(١) البنداري- زبدة النصرة ونخبة العصرة، ص ٢٩٤.

أما الخليفة الناصر فإنه حين رأى طغرل بن أرسلان شاه قد قوي نفوذه بعد موت أبيه وامتلك كثيرًا من البلاد وأصبح يهدد العراق، أرسل قوة على رأسها وزيره جلال الدين عبيد الله ابن يونس لمحاربته[١] والقضاء عليه، فلما انتهى أمرها بالهزيمة ورأى أن قوته لن تنفع في صد تيار طغرل اتجه إلى الدولة الخوارزمية الناشئة واستعان بها عليه فوصل إلى غرضه، إذ حاربه تكش خوارزمشاه وهزمه وقتله وأرسل رأسه إلى الخليفة ليعرضها أمام قصره في بغداد[٢].

وكما أن تأمين العراق كان سببًا في بدء العلاقات الودية بين الخليفة الناصر والدولة الخوارزمية، فقد كان أيضًا السبب في سوء هذه العلاقات وما أتت به من نتائج سيئة، وذلك أن الناصر حين استعان بتكش كان يأمل من وراء القضاء على السلاجقة تأمين العراق بالحصول على جزء كبير من أملاكهم في فارس، ولهذا السبب نجده بعد أن يقضي تكش على طغرل يبادر إلى الاعتراف بسلطته في خوارزم وخراسان وفارس[٣]. ثم يرسل إليه سنة ٥٩٠هـ وزيره مؤيد الدين ابن القصاب ومعه خلع ثمينة وهدايا فاخرة. ولكنه حين يجد أن تكش لم يقابل رسوله بالترحاب بل وأرسل قوة لرده قبل

(١) ابن الأثير ج١٢، ص١٢ وأبو الفدا ج٣، ص٨٠.
(٢) ابن الأثير، ج ١٢، ص٥٠و Muir, The Calipjate, p. 583.
(٣) ابن الأثير، ج١٢، ص٥٠.
و Muir, The Caliphate, p: 583.

وصوله إلى همدان[1]، يعلم أنه يريد إبقاء ممتلكات السلاجقة لنفسه، ويرى أن في هذا أكبر الخطر على العراق لأن الدولة الخوارزمية أقوى من السلاجقة في فارس ومطامعها أوسع، ولذلك عزم على مناوأة تكش، وقد أرسل لهذا الغرض وزيره ابن القصاب على رأس قوة إلى خوزستان في السنة نفسها، كما أرسل في السنة التي تليها قوة على رأسها مملوك اسمه سيف الدين طغريل، نجحت كل منها واستولت على عدة بلاد بسبب غياب تكش في الجهات الشرقية من ممتلكاته، ولكن نجاحها كان مؤقتا ولم يلبث تكش عند عودته أن طرد كلا منها وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه. ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل إن تكش في سنة ٥٩٢هـ أرسل إلى الخليفة يطلب السلطنة وإعادة دار السلطنة إلى ما كانت عليه وأن يجيء إلى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده كما كانت الملوك السلجوقية(٢)، كما أنه عند موته واعتلاء ابنه محمد خوارزمشاه على عرش السلطنة تبودلت الرسائل بينه وبين الخليفة الناصر في هذا الموضوع ولكنه لم يفز بطائل وكان ذلك سبباً في غضبه على الخليفة وعزمه على إذلاله، وبخاصة بعد أن وقعت في يده مراسلات عندما فتح غزنة كان

---

(١) Sayed Ameer Ail, A short Hist of the Saracens, p. 386. و Ravesty (trans), Tabakat- i- Nasiri, note, 6, p. 242.

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء، ص١٨٢.

الناصر قد أرسلها إلى شهاب الدين الغوري وأخيه يدعوهما فيها إلى محاربة تكش[١]، وبعد أن ثبت لديه أنه يحرض الثائرين عليه في فارس[٢].

وقد سنحت له الفرصة عندما حرض الناصر نفراً من الحشيشية فقتلوا أغلمش الأتابكي الذي كان ينوب عنه في العراق وذلك عندما ركب يلتقي الحجاج عند انصرافهم من حج بيت الله الحرام. وقد سار محمد خوارزمشاه إلى العراق العجمي وجمع مجلسًا من العلماء أفتى بأن الناصر لا يستحق الخلافة، وعين علويًا من ترمذ اسمه علاء الملك إمامًا بدلا منه[٣]، ولم يكتف بذلك بل سار يقصد بغداد ولم يحل دون ذهابه إليها إلا نزول الثلج على جيشه بعد أن بعد عن همدان بيومين أو ثلاثة وعلا عقبة سعداباد، ومهاجمة بني ترجم الأتراك وبني هكار الأكراد لمن بقي من الجند ثم تهديد المغول لبلاده. ومع ذلك، فإنه أخذ يقطع الخطبة للناصر في البلاد التي يمر بها في عودته[٤]، وبعد موت محمد خوارزمشاه واستيلاء ابنه جلال الدين على عرش الدولة الخوارزمية ظلت العلاقات مع الناصر سيئة، على

---

(١) Howrth, History of the Mongols, p. 74 .

(٢) Encyc. of Islam, art. Nasir .

(٣) Ibid .

و4 Ravesty (trans), Tabakat- i- Nasiri, p. 265, nota.

(٤) ابن الأثير ج١٢، ص١٤٦، وأبو الفدا ج٢، ص١٢٤، ومحمد النسوي، مسيرة جلال الدين، ص٢٠.

الرغم من محاولة جلال الدين تحسينها[1]، فلما مات الناصر وحلت أيام المستنصر تحسنت العلاقات ولكن لم يكن لذلك فائدة تذكر؛ لأن الدولة الخوارزمية سرعان ما زالت أمام ضربات المغول.

ومما تجدر ملاحظته في هذا المقام أن سياسة تأمين العراق من الأخطار الخارجية كانت سببًا في نشوء العلاقات بين الخلافة العباسية والمغول، أو بمعنى آخر كانت سببًا في مجيء المغول إلى الغرب وقضائهم على الخوارزمية كما كانت من قبل سببًا في قضاء الخوارزمية على دولة السلاجقة في فارس، فقد ذكروا أن الخليفة الناصر حين اشتد النزاع بينه وبين محمد خوارزمشاه وخاف خطره استدعى المغول[2]، الذين كانوا قد نشروا نفوذهم في الصين واتجهوا غربًا فلبوا دعوته وتدفقوا إلى ما وراء النهر بقيادة جنكيز خان وتمكنوا بعد حروب طويلة من القضاء على الدولة الخوارزمية التي كانت تضايق الخلافة العباسية وتهددها وذلك في عهد أجطاي بن جنكيز خان، على أن الناصر وقد أدت به رغبته في تأمين العراق إلى استدعاء المغول ما لبث أن رأى أكبر الخطر مجسمًا فيهم ولذلك أخذ يقاومهم في آخر أيامه، وكذلك حاربهم خلفه المستنصر وصدهم عدة مرات عن العراق، ولكن الخطر المغولي كان عظيمًا جارفا ولذلك كان سببًا في فشل سياسة تأمين العراق، بل إنه اكتسح

(١) محمد النسوي – سيرة جلال الدين، ص١٠٩.
(٢) ابن الأثير ج١٢، ص٢٠٢ وأبو الفدا ج٣، ص١٤٢.

العراق نفسه وقضى على الخلافة العباسية، ومن ذلك نرى أن سياسة تأمين العراق كانت السبب في نشوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاجقة فارس ثم بينهم وبين الدولة الخوارزمية ثم أخيرًا بينهم وبين المغول.

٢- **نشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي:** كانت أول محاولة لنشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي للخليفة المقتفي لأمر الله حين أراد أن يستفيد من حسن علاقاته مع نور الدين محمود بن زنكي لنشر نفوذه في مصر، فقد ذكروا[١] أنه عندما علم بمقتل الظافر بالله الفاطمي وإقامة ابنه الفائز عيسى مكانه وكان صبيًا صغيرًا كتب عهدًا إلى نور الدين وولاه مصر وأمره بالمسير إليها. هذا وإذا لم تكن رغبته قد نفذت في حياته فإن نور الدين في السنة التي أعقبت موت المقتفي وفي عهد المستضيء عندما بلغه أن صلاح الدين تمكن من مصر سنة ٥٦٧هـ وحكم على القصر، أرسل إليه يأمره بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية مكانها[٢]، وكان له ما أراد وتمت أول خطوة لنشر نفود الخلافة العباسية في أيام الخليفة المستضيء[٣].

---

(١) السيوطي- تاريخ الخلفاء، ١٧٦.
و345 .Sayed Ameer Ail, A short Hist of the saracens p.
(٢) أبو الفدا ج٣، ص٥٣.
(٣) ابن شاكر- قوات الوفيات ج١، ص١٣٨.

وأما الناصر فسار شوطا بعيدًا في سبيل نشر نفوذ الخلافة في العالم الإسلامي، وكذلك فعل من جاء بعده من الخلفاء مثل الظاهر والمستنصر. ودليل ذلك أنهم جميعًا اتبعوا سياسة مصادقة الأيوبيين، فكانوا يرسلون إليهم الخلع والتقاليد كما كان هؤلاء يحترمونهم فيرجعون إليهم لفض مشاكلهم ولا يتأخرون عن تقديم المساعدة التي في مقدورهم تقديمها، وبهذه الطريقة ظل نفوذ الخلافة العباسية قويا في بلاد الأيوبيين. وإن التاريخ ليقدم لنا كثيرًا من الأمثلة التي توضح صدق ما قلنا، فالسيوطي[1] يذكر أن الناصر عندما تولى الخلافة بعث إلى السلطان صلاح الدين بالخلع والتقليد كما كتب إليه السلطان كتابًا يقول فيه: "والخادم ولله الحمد يعدد سوابق في الإسلام والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى، ولا أخرية طغرل بك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها وأساغ الفضة التي أذخر الله للإساغة في سيفه ماءها فرجل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر وأعز بتأييد إبراهيمي فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر". كما يذكر أبو الفدا ما يوضح أن الناصر بعد موت صلاح الدين ظل يسير على سياسته الأولى حيال الأيوبيين فأرسل سنة ٦٠٤هـ إلى الملك العادل وابنيه: الملك الأشرف والملك المعظم خلعا صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي وكذلك أرسل إلى الملك الكامل[2]، وأن الملك الأفضل بن صلاح

(١) السيوطي- تاريخ الخلفاء، ص١٨١.
(٢) أبو الفدا ج٣، ص١١٤.

الدين كتب إليه من صرخد يشكو عمه الملك العادل أبا بكر وأخاه الملك العزيز عثمان لاغتصابهما دمشق منه ويقول[1]:

مـولايَ إنّ أبـا بكـرٍ وصاحبَـــــهُ عثمانَ قد غصبا بالسيفِ حق علي
فانظرْ إلى حظِ هذا الاسمِ كيف لقى مِنَ الأواخرِ مـا لاقى مـن الأوَلِ

فكتب إليه الخليفة الناصر جوابه يقول:

وافى كتابُكَ يا ابنَ يوسفَ مُعلنًا بالصدقِ يُخبِرُ أنّ أصلَكَ طاهرُ
غصبـوا عليًّا حقّـهُ إذ لـم يكنْ بعدَ الـنبيّ لهُ بيثربَ نـاصـرُ
فـاصبرْ فإنّ غدًا عليـهِ حسابَهُـم وأبشرْ فناصِرُكَ الإمامُ الناصـرُ

ويذكر المقريزي ما يبين أن الخليفة المستنصر سار على طريقة الناصر وكانت العلاقات بينه وبين الأيوبيين على ما يرام، ويقول إنه أرسل في سنة ٦٢٨هـ للملك الكامل الخلع والتقليد وميزه بزيادات كثيرة لم تفعل في حق غيره من السلجوقية وغيرهم كما أرسل خلعًا للملك الأشرف أيضًا[2]. ومما ذكره المقريزي أن الملك الكامل عندما أرسل إليه الخليفة المستنصر سنة ٦٣٥هـ مائة ألف دينار ليستخدم له بها عساكر لصد المغول، أعاد تلك الأموال دون أن يمسها وأخرج من بيت ماله الخاص مائتي ألف دينار استخدم له بها عساكر ثم جرد من عساكر مصر والشام عشرة آلاف نجدة للخليفة[3].

(١) أبو الفدا- المختصر في أخبار البشر ج٣، ص٩٧، وابن العبرى، ص٣٨٩ و ٣٩١و ٤١٤.
(٢) المقريزي- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٤٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٧.

هذا إلى أنه وقد كان حاقدًا على الناصر داود صاحب الكرك لطلاقه ابنته لم يسعه حين شفع لديه فيه الخليفة المستنصر وأرسله إليه إلا أن يقبل الشفاعة بل ويضعه على رأس العساكر التي جمعها للمستنصر[١].

ويجب أن نلاحظ أن الخليفة الناصر حسن علاقاته مع الإسماعيلية وأنه كان يرمي من وراء ذلك إلى ضمهم تحت لواء الخلافة العباسية تمشيًا مع مبدأ ضم المسلمين جميعا تحت راية الخلافة العباسية[٢]، وأن مما سهل عليه العمل لهذه الغاية ما كان جاريًا عند الإسماعيلية أنفسهم في ذلك الوقت: فإن جلال الدين حفيد حسن الصباح ورئيسهم في ذلك الوقت أمر في سنة ٦٠٨هـ بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلاد الإسماعيلية في خراسان والشام، وأرسل رسلا إلى الناصر وغيره من أمراء الإسلام يخبرهم بما فعله[٣]، بل إنه ترك مطالبه في الإمامة واعترف بالخليفة العباسي[٤].

يتضح من كل ما تقدم أن الخلفاء العباسيين في هذه الفترة الأخيرة من حكمهم في العراق نجحوا في تنفيذ سياستهم الخارجية، فقد أمنوا العراق من الأخطار التي تعرض لها سواء من سلاجقة فارس أو من سلاطين الدولة الخوارزمية بالقضاء عليهم جميعا، كما تمكنوا من

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٥١.

(٢) Encyclopedia of Islam, Art, Nasir .

(٣) ابن الأثير ج١٢، ص١٣٨.

(٤) Ency, of Islam, Art, Nasir .

ضم مصر والشام وكل بلاد الأيوبيين وكذلك بلاد الإسماعيلية وقتا ما إلى دائرة نفوذهم الديني، إلا أنه برغم ذلك فإن نجاحهم كان ينطوي على أسباب فشلهم، فقد كلفتهم سياسة تأمين العراق كثيرا من المجهودات كما أنهم حين أزالوا الدولة الخوارزمية كان ذلك بفضل المغول، ولا يخفى أن المغول وقد تغلبوا على الدولة الخوارزمية تطلعوا إلى أبعد من ذلك وكان لا بد لهم أن يتابعوا السير، وسيرهم إلى الغرب لا بد أن يقضي على الخلافة العباسية التي استظلت بهم زمنا. ومع ذلك، فإن خطرهم وضح في آخر أيام الناصر نفسه، كما أن المستنصر من بعده بذل مجهودًا لا بأس به للوقوف أمامهم. أما نشر نفوذ هؤلاء الخلفاء على الأيوبيين وعلى الإسماعيلية وقتا ما، فإنه وإن أكسبهم احترامًا لدى هؤلاء الأمراء وزاد من نفوذهم المعنوي بينهم بل وإن عاد عليهم ببعض الفوائد المادية كما حدث حين أرسل الكامل للخليفة المستنصر سنة٦٣٥هـ عشرة آلاف رجل بجانب ما جمعة له من العساكر بمائتي ألف دينار، فإنه بعد كل ذلك لم ينفعهم حين اشتد خطر المغول ومن هنا كان ضئيل الأثر. وسنرى أن المستعصم على الرغم من احتفاظه باحترام العالم الإسلامي، سيتلقي الضربة القاضية وحده دون أن يأخذ بيده إنسان ممن يخطبون له على منابرهم.

الباب الثاني: انتشار نفوذ المغول

الفصل الأول

البيئة المغولية وأثرها في تكوين المغول

١- بيئة المغول الأصلية

قبل ميلاد المسيح بعدة قرون كانت تقيم في وسط آسيا جماعات من البدو تنتشر من غربها إلى شرقها. أما في الغرب فكانت تقيم القبائل التركية وفي الوسط القبائل المغولية وفي الشرق قبائل التنجو Tongus[١]. ولو أردنا أن نحدد إقليمًا جغرافيًا كموطن أصلي للمغول، لاستقر رأينا على منغوليا التي تمتد في أواسط آسيا جنوب سيبيريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال التاي غربًا وجبال خنجان شرقا.

(١) Howort, Hist. of the Mongols, IV, pp. 4,8.
و D'ohsson, Hist, des Mongoles, Tome, I, p.1.

ويمكن تقسيم منغوليا إلى قسمين: قسم شمالي غربي مرتفع به جبال سيان Sayans وتنولا Tennuola وخنجاي Khangai وإكتاج Ektag، وبين هذه الجبال هضاب ووديان تغطيها الحصباء، وقسم جنوبي شرقي منخفض يشمل صحراء جوبي أو شامو التي ليست إلا سهلا متسعًا مسطحًا أو متموجًا تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة التي جردتها الرياح من المواد الدقيقة من الطين والرمل، ومن تحتها تظهر في بعض الجهات مساحات من الصخور كالجزائر في البحار(١). وتنساب من بين جبال المنطقة الشمالية الغربية الفروع العليا لأنهار أوبى وينسي ولينا بينما المنطقة الجنوبية لا توجد بها أنهار، فإن وجدت كان ذلك على الحافات مثل أنهار أنون Onon، وكرولن Kerulon وخلاجل Khalagol وتسير من جنجان Khingan بعض نهيرات لا تلبث أن تجف حين تصل إلى جوبى. وفوق ذلك يوجد بمنغوليا قليل من البحيرات الملحة والعذبة كما تتفجر بعض الينابيع، ولكن المسافر رغم ذلك لا يعدم الماء لأنه إذا حفر وجده قريبًا من سطح الأرض(٢). أما مناخ منغوليا فقاسٍ وقسوته في سرعة تغيره وفي بلوغه النهايات القصوى في الحرارة والبرودة وفي

(١) Howorth, Vol, IV, p. 10.
و Encyc. Brittannica, Art. Monglia .
(٢) Howorth, Vol. IV, pp. 11, 13 .
و Encyc, Birt, Art, Mongolia .

جفافه الشديد وفي قوة الرياح التي لا حد لها. أما البرودة فهي الغالبة في معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء إذ يتجمد الماء في المنخفضات حتى شهر مايو، والجليد يمكن أن يرى على أواني الشرب في شهر أغسطس، كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهي، وتبلغ درجة الحرارة في الشتاء في بعض الجهات ٥٨ تحت الصفر. لكننا مع هذا يجب أن نلاحظ أن درجة الحرارة في فصل الصيف القصير المدى تبلغ أحيانا ٦٠ درجة. ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا أن الرياح التي تهب في معظم أيام السنة شديدة، حتى أنها تحمل الحصى وترسله إلى مسافات بعيدة وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة[١]. ويشهد بقسوة المناخ في منغوليا من زاروها منذ أقدم العصور، فهذا القس وليام Friar William يقول إن البرد قتل عددًا كبيرًا من الحيوانات، وذلك وليام الكربيني Carpini يذكر عند زيارته لمنغوليا الشمالية، أن المناخ بها ليس كثير الثبات على حالة واحدة في أواسط الصيف، وأن الرعد والبرق الذي يودي بحياة كثير من الناس لا يكاد ينقطع وأن الثلج يسقط بكميات كبيرة وأن أعاصير باردة الريح لدرجة يصعب معها بقاء الرجل في سرجه تهب هبوبًا شديدا[٢].

---

(١) Howorth, Vol. IV, pp. 14,15.
و D'Ohsseon, Tome I, p. 10 .
(٢) Howorth, Vol. IV, p. 16 .

وقسوة مناخ منغوليا هي السبب في فقر الحياة النباتية بها، أما في المنطقة الشمالية الغربية المرتفعة فتنمو الغابات السيبيرية على سفوح الجبال وتقل كلما سرنا من الشمال إلى الجنوب، وحيث لا تنمو الغابات ينمو العشب وتصبح المنطقة لها صفات المراعى الألبية. وفى أواسط جوبى لا تنمو إلا حشائش جافة قليلة وبعض النباتات الملحية. وأكثر هذه النباتات ذيوعًا السكسول saxaul والدريس Derisun والأول عبارة عن أشجار صغيرة لا ورق لها تستعمل لإعطاء قليل من الظل والوقود وكغذاء للجمال، والثاني يقدم للماشية أو يتخذ الفقراء من حبوبه غذاء(١).

ولا توجد في بلاد المغول إلا الحيوانات التي تسكن الصحارى عادة، مثل الجمل المتوحش ذي السنامين والحصان المتوحش والحمار الوحشي والغزال وأنواع من الفئران ذات الفراء الثمين والذئاب والنمور(٢).

(١) Ibid, pp. 10, 16- 17.
و Fucyc, Brit., art, Mongolfa.
(٢) D'Ohsseon, Hist, des Mongols, Tome I, pp. 13-14, 19.

٢- معيشة المغول

كان المغول القدماء كغيرهم من البدو رعاة، لكل قبيلة من قبائلهم العديدة منطقة معينة يتنقل أفرادها بين ربوعها بحيواناتهم باحثين عن منات العشب تبعا لفصول السنة المختلفة، فيذهبون في الربيع نحو الجبال ويرجعون قرب الشتاء إلى السهول. كانت كل قبيلة من قبائلهم لها رئيس يحمل لقب نوين Noyan أو تيشى Taischi تطيعه وتأتمر بأمره، بل إن كل قبيلة من قبائلهم كانت تنقسم إلى جماعات لكل جماعة رئيسها، وكل جماعة يحتويها مكان واحد. وكان أفراد القبيلة يدفعون إلى النوين عددًا معينا من الحيوانات كل عام جزاء محافظته على أرواحهم وأملاكهم[١]. وفضلا عن ذلك فقد كان المغول القدماء كالعرب في الجاهلية والهنود المحمر الآن يقضون معظم أوقاتهم في المنازعات القبلية[٢]. ولذلك فقد كانت حياتهم بسيطة فطرية لا يتسرب إليها التعقيد، ولو أننا حاولنا أن نلم بها لما كلفنا ذلك أكثر من البحث عن مأكل المغولي وملبسه ومسكنه وقوانين مجتمعه البسيطة ودينه البدائي، وكلها مسائل تدور حول تكوين أسرته وتنظيم جماعته وحمايتها من غضب الطبيعة التي يرهبها ويخشاها .

---

(١) Howorth, Vol, IV, pp. 20- 27 .

(٢) Howorth, Vol, IV, p. 30.

(أ) المأكل:

كان مأكل المغول بسيطا مع بداوتهم وفقر بلادهم، فهم في الشتاء يأكلون اللحوم. ويجب إلا يتسرب إلى الذهن أنهم كانوا يكتفون بأنواع خاصة منها، إذ الحقيقة أنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات على اختلافها، ويدخل في ذلك الكلاب والذئاب والثعالب والفئران والخيل، كما قال كربيني، وأنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة كما قال القس وليام[1]، والأنكى من ذلك أنهم كانوا يأكلون اللحوم البشرية، وقد ذكر هيتون Haithon في هذا الصدد أن مسلمًا اتهم بالخيانة ضد أباقاخان Abakakhan أخذ وقطع نصفين وصدرت الأوامر بأن يوضع جزء من لحمه ضمن كل وجبة من وجبات الخاقان، كما ذكر أن أباقاخان أكل من لحمه وجعل جميع أمرائه يأكلون، وأضاف إلى ذلك أن هذا العمل يتفق مع عادة المغول. وعندما ذكر القس ريكولد rrier Ricold هذه القصة قال إن السيدات المغوليات طلبن أن يسلم لهن الخائن، ولمّا سُلم إليهن غلينه حيًا وقطعن جسمه وقدمنه إلى جميع أفراد الجيش ليأكلوه. أما فنسنت أف بوفيه Vincent of Beauvais، فقد ذكر أن المغول كان من عادتهم أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم.

---

(١) Ibid, p. 55.
و D'Ohsson, Tome I, p. 13.

ويقول كربيني، إن المغول في إحدى غزواتهم في الصين عندما نفد طعامهم ضحوا بواحد من كل عشرة رجال في الجيش ليكون طعامًا للباقين منهم[١]. وفى الصيف لا يأكل المغول اللحوم إلا قليلا، فإذا هم أكلوها، كان ذلك بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة، فكانوا إذا مات عندهم ثور أو حصان قطعوا اللحم إلى شرائح رقيقة وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها عفونة[٢]. هذا بينما كان جل اعتمادهم في هذا الفصل على الألبان وما يستخرج منها. والألبان التي كانت تتوافر عندهم هى ألبان البقر والغنم، وكانوا يستخرجون منها الزبد والجبن، وألبان الأفراس ويستخرجون منها ما يعرف باسم كومس Kumis أو خمير اللبن، ويذكر القس وليام طريقة صنعه فيقول إن المغول كانوا يضعون لبن الفرس في قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة يتركونه حتى يصبح حامضا ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به[٣].

(ب) **الملبس:**

كان المغول يتخذون ملابسهم الحقيرة من أصواف الغنم ووبر الجمال، كما كانت ملابس الرجال تكاد تشابه ملابس النساء، كما كانوا يصنعونها من جلود الحيوانات أحيانا.

---

(١) Howorth, Vol, IV, p. 53 .

(٢) Howorth, Vol, IV, p. 55.

و D'Ohsson, Tome I, p. 13.

(٣) Howorth, Vol, IV, p. 59.

وإذا كان القس وليام وكربيني قد ذكرا أنهما رأيا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمين فقد كان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي بعد أن صارت لهم إمبراطورية واسعة الأرجاء، وبعد أن صاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من جهات أوروبا التي كانت تدين لهم بالطاعة(١). ويجب إلا يصرفنا ذلك عن الحقيقة الواقعة التي هي بساطة ملابس المغول وحقارة صنفها وقذارتها، ويرجع ذلك إلى أن المغول كانوا يغيرون ملابسهم في الصيف مرة كل شهر وفي الشتاء لا يغيرونها أبدًا(٢). وقد ذكر القلقشندي(٣) هذا الأمر، فقال: "ويقال إنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم ولا يميزون بين طاهر ونجس".

(ج) المسكن:

لم تكن بيوت المغول أحسن حالا من بيوت غيرهم من البدو؛ إذ كانت تقام من الصوف وكانت طريقة إنشائها مختلفة كل الاختلاف، وبينما كانت بيوت غيرهم من البدو مدببة من أعلاها كانت أعالي بيوت المغول على شكل نصف كرة لا تجرها الريح ولا تنقلب بسهولة ولو كانت العواصف شديدة، وكانت بسبب ذلك

(١) Howorth, Vol, IV, p. 37.
(٢) Ibid, p. 45.
(٣) صبح الأعشى ج٤، ص٣١٢.

دافئة شتاء معتدلة صيفا، كما كانت تشبه إناءً منقلباً قائما على حوائط دائرية من الصوف المثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة بعضها ببعض بقطع من جلود الحيوانات[١]. وقد ذكر وليام الروبريكي أن المغول كانوا يعملون ما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف ليضعوا فيها ما يخافون عليه العطب، وأنهم كانوا يدهنونها بشحم الحيوانات أو بلبن البقر؛ حتى لا تتأثر بالماء إذا عبروا بها الأنهار أو نزل عليها المطر، وأضاف إلى ذلك أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عند نقلها عربات يعلق في الواحدة اثنان وعشرون ثوراً وبعضها الآخر صغير يكفي لنقلها ثور واحد أو على قول كربيني تنقل على ظهور الجمال. وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة إلى الجنوب تجنباً لريح الشمال والغرب القاسية، كما كانت النار تظل على الدوام مشتعلة في وسط البيت المغولي. أما ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطًا، فالحوائط تستعمل لتعليق الأسلحة والأواني الجلدية التي كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها، وكانوا يضعون في الجزء الداخلي المواجه للباب فراش رب البيت ويخصصون الجانب الغربي من البيت للرجال والجانب الشرقي للنساء[٢].

(١) Howorth, Vol, IV, p. 55.
(٢) Howarth, Vol, IV, pp. 48- 50.

(د) **القوانين:**

كانت حياة المغول بسيطة فطرية وكان لها من القوانين ما يناسبها في البساطة. ولو أننا تناولنا القوانين التي كانت تنظم حياتهم الزوجية بالبحث، لظهر لنا بكل وضوح أنها كانت بدائية، لا أثر فيها لإعمال الفكر الناضج، فلا هي بالتي كانت تقدر الزواج حق قدره ولا هي بالتي كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة، إذ كانت تعتبر الزواج عملية تجارية. وقد قال في ذلك وليام الروبريكي: "يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بينهم (أي المغول) له امرأة إلا إذا كان قد اشتراها، ويحدث دائما أن تجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آباءهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن". كما كانت تسلب الزوجة حقوقها التي تقررها لها الشرائع الأخرى وإلا فما معنى ما يقوله فنسنت أف بوفيه "لا يعتبر المغولي المرأة زوجته الحقيقية حتى يصبح لها طفل أو حتى تصبح في حكم من لها طفل، وإذا كانت عاقراً أمكنه طردها، ولا يقدم الزوج مهر الزوجة حتى يصبح لها طفل". الحق أن فيما ذكره كربيني حيث قال: "إن الرجل المغولي يمكنه أن يحوز زوجات على قدر ما يستطيع وللبعض منهم ما يبلغ المائة، ويسمح لهم بالزواج من أية امرأة من الأقارب اللهم إلا أمهاتهم أو بناتهم أو أخواتهم من نفس الأم. أما زواجهم من أخواتهم اللاتي لسن من أمهاتهم فقانوني"،

وفيما ذكره وليام الروبريكي حيث قال: "إن الابن في بعض الأحيان يأخذ زوجات أبيه ما عدا أمه، وذلك لأن منزل الأب والأم يئول إلى أصغر الأبناء ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه، وإذا أراد أن يعاملهن معاملة زوجاته. وما يجب عليه اللوم أن يدعهن يذهبن إلى منازل آبائهن بعد موت زوجهن. ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يستولدون من السراري في الميراث والحقوق الأخرى"[١] في ذلك كله ما يظهر أن قوانين المغول لم تحترم شرعية الزواج ولم تنظم أحكامه تنظيما صحيحًا، بل على العكس كانت تعتبر الزوجة من سقط المتاع تورث كما يورث وتشجع على العشق والزنا باعترافها بحقوق الأبناء من السراري. على أنه يجب أن نلاحظ أن المغول كانوا في ذلك كغيرهم من البدو وقد ذكر القلقشندي[٢] أن العربي في الجاهلية كان يتزوج امرأة أبيه. وفى هذا ما يثبت وجود تشابه بين المغربي القديم والعربي في الجاهلية في هذه الناحية الاجتماعية، ويسمي القلقشندي هذا الزواج نكاح المقت. ولم تكن القوانين التي وضعها المغول لردع المعتدين وحفظ الأمن في مجتمعهم بأعلى درجة أو أكثر قبولا من تلك التي كانت تنظم حياتهم الزوجية، بل إنها كانت تقضي بالإعدام على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة أو التجسس أو السحر،

---

(١) Howarth, Vol, IV, pp. 194-195.
و D'Ohson, Tome I, p. 14.
(٢) صبح الأعشى ج١، ص٤٠٣.

كما كانت تقضي بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضرباً مبرحا وذلك طبقا لما ذكره كربيني ووليام الروبريكي. أما ماركوبولو فقد زاد الأمر وضوحًا فيما يختص بمسألة السرقة وقال إن المغول من أجل السرقة الصغيرة كانوا يضربون ضربة واحدة أو سبع ضربات أو ١٧أو ٢٧أو ٣٧ أو ٤٧ ضربة من ضربات العصا وقد تصل الضربات أحيانا إلى ١٠٧ تبعًا لنوع الجريمة بشرط أن يكون العدد فرديًا، وأن هذا الضرب كان يودي بحياة المضروب في بعض الأحيان، أما إذا كانت الجريمة سرقة حصان أو شيء كبير فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف اللهم إلا إذا كان قادرًا على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال قيمة الشيء المسروق[١].

(٥) **الدين:**

كان المغول كغيرهم من الأقوام الأقدمين وثنيين وكانت ديانتهم الوثنية تعرف بالشامانية Shamanism وقد ظلت فيهم حتى حلت محلها الديانة اللامية أو البوذية بشكلها الذي اكتسبته من التبت وذلك في القرن السادس عشر الميلادي. وقد كان المغول - طبقا لعقائد الشامانية - يعبدون كل شيء يسمو على مداركهم ويدق على أفهامهم وكل ما يرهبهم ويدخل الخوف إلى أفئدتهم. لهم آلهة في النهر والجبل والشجرة الكبيرة، ولهم آلهة في الشمس والقمر،

(١) Howarth, Vol, IV, p.79.

ولهم آلهة في البرق الخاطف والرعد القاصف، بل ولهم آلهة إلى أيامنهم وشمائلهم وأمامهم وخلفهم وفوقهم وتحت أرجلهم، إذا تقربوا إلى الجهة الجنوبية دل ذلك على احترامهم للنار، وإذا تقربوا إلى الشرق كان في ذلك احترامهم للهواء، أما تقربهم إلى الغرب فكان فيه احترامهم للماء. وفي تقربهم إلى الشمال كان احترامهم للأموات، ومما يجب ملاحظته هنا أن المغول كانوا لا يتقربون إلى هذه الآلهة إلا لخوفهم منها ولرغبتهم في إبعاد غضبها وجلب رضاها يرجون منها الصحة في أجسامهم وعقولهم، كما يرجون منها حماية أبنائهم وحيواناتهم.

وبينما نجد العرب في الجاهلية يتخذون معابد لهم يتقربون فيها إلى آلهتهم ويجمعون فيها تماثيل لهذه الآلهة، وبينما نجد قدماء المصريين يعملون مثل ذلك فينشئون المعابد الفخمة والهياكل العظيمة، لا نجد المغول يفعلون ذلك أو شبهه، فلم تكن عندهم معابد ولم تكن عندهم أديرة، وكل ما كان يعثر عليه عندهم ما كانوا يسمونه أوبو ob وهي أكوام من الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها تقام بجوار الأنهار أو على التلال أو تحت الأشجار الكبيرة وتقدم عليها القرابين المختلفة للإله المفروض أنه يسكن في الجبل أو النهر أو الشجرة الكبيرة أو المفروض أنه القسم الحي المقابل لها أو أنه روحها. كما أن المغول كانوا يصنعون من الصوف أشكالا آدمية

يضعونها في بيوتهم أو أمامها ويعتقدون أنهم بذلك يبعدون الشر عنها ويزيدون الحيوانات فيها ويدرون ألبانها، ومما يذكرونه في هذا السبيل أن كل مغولي كانت عنده في بيته دميات من القماش تمثله وزوجته وأولاده فإذا أكل هو وأهل بيته أتى بتلك الدميات ولوث فمها بالدهن الذي يستخرجه من اللحم، ثم أخذ شيئا من الحساء ورشه أمام البيت وبذلك يعتقد أن الإله وزوجته وأولاده شاركوه في غذائه.

أما رجال الدين عند المغول فكانوا كالكهنة عند المصريين القدماء من طبقة متنورة تعلم الفلك وتحدد وقوع الكسوف والخسوف في أوقاتها وتعين الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له، وإن كان نفوذ أفرادها لا يصل إلى نفوذ الكهنة عند قدماء المصريين. وكان المغول ينظرون إليهم كما كان الإغريق ينظرون إلى عرافة معبد دلفي وكما كان العرب ينظرون إلى كهانهم الذين كان أشهرهم في اليمن[1]. فكانوا يأخذون رأيهم قبل أن يقدموا على الأعمال المهمة وكانوا لا يجمعون جيشًا ولا يدخلون حربًا إلا بعد موافقتهم. وقد كان هؤلاء يعتمدون فيما يدلون به من آراء على شكل الخطوط والشقوق التي تظهر على عظام أكتاف الحيوانات المحروقة ويعتبرون أصلح الحيوانات لهذا الغرض الغنم والآرام والوعول وبخاصة إذا كانت قرابين[2].

---

(١)صبح الأعشى ج١، ص٣٩٨.

(٢) Howorth, Vol, IV, pp. 90- 104.

و D'Ohsson, Tome 1, p. 16.

٣- صفات المغول

نشأ المغول في بلاد فقيرة قاسية المناخ فأمدهم الله بصفات بدنية تناسب البيئة التي نشأوا فيها كل المناسبة. وإننا حين نقرأ ما ذكره الرحالة عن مميزات المغول البدنية من الرأس الكبير والوجه العريض النحيل وعظام الخد البارزة والعيون الصغيرة ذات الجفون المسترخية والأنف المسطح والشفاه العريضة والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الكبير والساقين القصيرتين المعوجتين والقامة القصيرة والبشرة الصفراء السميكة[١]- لا نعجب أقل العجب، إذ لا بد أن فقر البلاد وقلة الغذاء فيها كان سبباً في قصر القامة ونحالة الوجه وبروز عظم الخد من زمن بعيد، كما أن الجفون المتدلية لا بد أنها من نعم الله على المغول لوقايتهم من الرياح الشديدة التي يتعرضون لها في بلادهم في معظم أيام السنة، وكذلك الحال في البشرة السميكة. أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول معظم الوقت على صهوة الخيل بركاب قصير الحوامل.

ولم تكن صفات المغول البدنية هي وحدها التي تناسب بيئتهم التي درجوا عليها، بل إن صفاتهم الأخلاقية من مستلزمات هذه البيئة، فإنهم وقد كانوا رعاة كان لا بد لهم أن يصطدموا بغيرهم حين

---

(١) Howorth, Vol, IV, pp. 31–32.
و D'Ohsson, Tome 1, p. 11 .

يعملون على توفير المراعي لحيواناتهم في فصول السنة المختلفة، ولذا كانت تقوم بينهم المعارك وتشتد الأهوال، وكانت حياتهم حياة حربية قوية وكانت أخلاقهم مزيجا من صفات المحاربين. أضف إلى ذلك أن الطبيعة كانت في بلادهم قاسية شديدة الوطأة ولذلك كانت حياتهم حربًا مستمرة مع الطبيعة، وقد أمدتهم بيئتهم بما عودتهم من الصبر والجلد بأعظم سلاح يشهرونه في وجهها وبذلك قوت فيهم صفات المحاربين.

من الصفات التي تلازم المحاربين دائما الجرأة في الحق وإبداء الرأي دون مواربة ولا مداراة، وقد كان المغولي كغيره من أهل البادية صريحًا لا يهاب جريئا لا يخشى حرًا في إبداء آرائه لا يتردد ولا يلين، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة فيه بما فرضه من العادات، فقد ذكروا أن المغول القدماء كانوا طبقا للسياسة الكبرى[1] Yassak أو الشريعة التي سنها لهم جنكيز خان يجتمعون كل سنة في العيد الكبير The Hal أمامهم أمراؤهم ليسألوهم عما فعلوا، وقد يظهر أنهم كانوا يوبخونهم بل ويعزلونهم إذا اقتضى الحال.

---

(١) ذكرها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ج٤، ص٣١٠- ٣١١ فقال "ثم الذي كان عليه جنكيز خان في التدين وجرى عليه أعقابه بعده الجري على منهاج ياسه التي قررها وهي قوانين خمنها من عقله وقررها من ذهنه رتب فيها أحكاما وحدد فيها حدودًا ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية غمر عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل ومن وجد أسيرًا أو هاربًا أو عبدا ولم يرده قتل ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذنهم قتل إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مما هم دائنون به إلى الآن، وربما دان به من تحلى بحلية الإسلام من ملوكهم".
وقد ذكرها ابن العبري أيضًا في كتابه ص ٣٩٥ فقال الياسة أي الناموس والقضاء.

ويظهر أن نزعة الصراحة هذه ظلت ملازمة للمغول وقتا ما بعد أن كونوا إمبراطوريتهم الواسعة، فقد ذكروا أن وزيرًا من وزراء جنكيز خان تجاسر على أن يقول لسيده إن المملكة يمكن فتحها على ظهر الحصان ولكن لا يمكن حكمها على ظهر الحصان، مشيرًا بذلك إلى أن الممالك تحتاج لاستقرار الأمر فيها إلى إداريين بعد أن يكون الحربيون قد وسعوا أركانها(١).

وعلى الرغم من هذه الصراحة وهاتيك الحرية، فقد كان المغول القدماء متعاونين وكان للطاعة التي تعتبر من أهم صفات المحاربين أكبر نصيب بينهم وكانوا مطيعين لرؤسائهم لا يعصون لهم أمرًا، حتى أن أكبر القواد كان إذا غضب عليه الإمبراطور يقبل التقريع من أصغر رسول يرسله أمام جنوده، وقد ذكر القلقشندي(٢) هذا الأمر فقال: "وأما حالهم في طاعة ملكهم، فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم لا لمال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم حتى أنه إذا كان أمير في غاية من القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنبا يوجب عقوبته وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه، ألقى نفسه بين يدي الرسول ذليلا ليأخذه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل".

---

(١) Howorth, Vol. IV, p. 77.

(٢) صبح الأعشى ج٤، ص٣١١.

كما أن الجندي إذا عصى كان لا يقتل وحده بل ومعه أفراد أسرته، أضف إلى ذلك أن الأمراء والقواد كانوا يضربون بالهراوة عندما يقعون في الخطأ ولا يعتبرون في ذلك إهانة لهم ولا يظهرون اشمئزازا[١].

وللفروسية عند المغول مركز ممتاز. وقد كانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهر الحصان ولا يكادون ينقلون قدمًا على الأرض، ولذلك كان من لا يرافقه الحصان إما فقيرًا أو عديم الأصدقاء، ذلك لأن المغولي لا يتأخر عن تقديم حصان لآخر يطلبه، كما نقدم عود ثقاب لمن يطلبه لإشعال سيجارة[٢]. ولم يكن الرجال هم الذين يختصون بهذا الأمر من دون النساء بل إن النساء كن يركبن الخيل كالرجال وكن يستعملن الأقواس والسهام ويقدرن على البقاء على ظهر الحصان زمنا طويلا ويذهبن مع الرجال إلى القتال[٣].

وحدّث ولا حرج عن صبر المغول، فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا بل يحاول ما أمكن أن يتظاهر

---

(١) Howorth, Vol. IV, p. 80.
Browne, Literary History of persla, Vol. II, p. 433.
و Osborn, Islam under the Caliphs of Baghdad, p. 376.
(٢) Howorth, Vol. IV, p. 62.
(٣) Howorth, Vol. IV, p. 44.
و D'Ohsson, Tome I, p. 15.

بالمرح كأنه لا يعانى شيئا. والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته إلى حد يجعله يأكل خمسة كيلوجرامات من اللحم في الوليمة وربع شاة في اليوم، نجده في الحرب يصبر على الجوع عشرة أيام مكتفيا بما يمتصه من دماء الخيول - وكان يفتح شريانا من شرايينها ثم يشرب دمها المتدفق - كما أنه كان يكتفي بما يتناوله من الكومس أو اللبن الحامض الذي يحمله في قربته، وكان نصف رطل من اللبن المجفف الممزوج بقليل من الماء يكفيه اليوم كله. وقد كانت خيول المغول تشاركهم في صبرهم وكانت لا تحتاج إلى شعير أو فول بل تحفر في الأرض بأرجلها وتأكل ما يظهر لها من جذور النباتات. ولم يقتصر صبر المغول على تحملهم ألم الجوع، بل إنهم كانوا يتحملون البرد الشديد والحر اللافح بعزيمة قوية(١).

وشجاعة المغولي مضرب الأمثال وقد شهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم، فقد ذكروا أن جواسيس محمد خوارزمشاه عند عودتهم من زيارة المغول قالوا عنهم: "إنهم لا يعطون أنفسهم راحة وإن الفرار أو التقهقر ليس معروفا لهم وإنهم لا يبارون في الشجاعة والطاعة والصبر"(٢).

---

(١) Howorth, Vol. IV, pp. 66, 81-82.
و Browne, Let, Hist of persle, II, p. 434.
و Osborn, Islam under the Callphs of Baghdad, p. 377.

(٢) Howorth, Vol. IV, p. 81.

وقد ذكر ابن الأثير عنهم مثل ذلك فقال[1]: "سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولا أنه قال: من حدثكم أن التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثتم أنهم قتلوا فصدقوا، فإن القوم لا يفرون أبدًا، ولقد أخذنا أسيرًا منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلّم نفسه للأسر".

(١) ابن الأثير ج١٢، ص١٧٧.

٤- جيوش المغول

رأينا فيما سبق أن المغول حازوا كل صفات المحاربين الأقوياء، وقد كان من أثر ذلك أن فاقوا غيرهم في تنظيم الجيوش وترتيبها وإمدادها بكل ما يلزمها، كما اتبعوا في حروبهم طرائق كانت تضمن لهم النصر. وإن ما لدينا من المعلومات يبين لنا أنهم قسموا الجيوش تقسيمًا لا يختلف كثيرًا عما يتبع في الجيوش الحديثة. فقد كانت عندهم فرق مكونة من مائة ألف جندي يسمونها التوك a Tukl وأخرى مكونة من عشرة آلاف يسمونها التومان a Toman وثالثة مكونة من ألف يسمونها منجان a Mingan ورابعة مكونة من مائة يسمونها دن Don وخامسة مكونة من عشرة يسمونها أربان Arban. كما أن جيوشهم كانت غنية بالأسلحة، وإن ما ذكره الكثيرون من أمثال كربيني والقس وليام وفنسنت أف بوفيه وماركو بولو وماتيو بارس Mathew Paris في هذا الصدد من الأقوال الكثيرة التي يكمل بعضها بعضا لتجعلنا قادرين على أن نصف محاربيهم وصفا دقيقا. فالمحاربون العاديون كانوا يلبسون ملابس من الفراء على أجسادهم، كما كانوا يضعون على رؤوسهم خوذات من الحديد، ويحملون من الأسلحة الأقواس والسهام والمبارد لشعل السهام والحراب التي تنتهي بخطاف والتي تستعمل لجذب الأعداء من فوق سروجهم والبلط والحبال.

بينما الرؤساء من الجند والضباط والقواد كانوا يلبسون اللامات الحربية ويحملون من الأسلحة مثل ما يحمل السابقون. ولما كان المغول رماة نابهين، فقد كانوا يعنون عناية فائقة بالأقواس التي كانت متينة إلى أبعد حدود المتانة والتي كان الواحد منها يتطلب رجلين لثنيه. وكانت سهامهم تبلغ في طولها قدمين وراحة يد وإصبعين، كما كانت ذات أسنان مدببة جدًا، وبعضها كانت ذات رءوس فضية ملأى بالثقوب حتى إذا رميت أخرجت صوتا كالصفير. وكانت اللامة الحربية عندهم تصنع من الجلد ومنها ما يصنع من السلاسل ومنها ما يصنع من ألواح الحديد(١).

أضف إلى ذلك أن مهارة المغول كانت تظهر بكل وضوح في تسييرهم الجيوش للحرب. فقد كانوا يرسلون ألفين من الرجال في المقدمة للاستكشاف، ويضعون مثلهم في المؤخرة وعلى كل جانب من جانبي الجيش، كما كانوا يلحقون بالجيش الزاحف عربات المؤونة تجرها الثيران وكذلك الأبقار والأفراس، وكان كل فرد من أفراد الجيش يأخذ معه مؤونة صغيرة من الجبن واللحم وغيرها. وعندما تكون الجيوش كبيرة العدد وبخاصة في الشتاء كانوا يأخذون معهم خيام المعسكر تحملها الجمال لتكون لهم مأوى.

---

(١) Howorth, Vol. IV, pp. 81–82.
و Oshorn, p. 378.

وكان طول هذه الخيام من أربعين إلى خمسين قدمًا وكان هيكلها يصنع من عصي مدببة طول الواحدة منها سبعة أقدام أو ثمانية، تتصل بعضها ببعض بواسطة قطع من الجلد وتتجمع في القمة مكونة سطحًا مخروطيًا. كما كانوا يأخذون معهم خياما أصغر ليجمعوا فيها من يقع في أيديهم من الأسرى. وكان الجيش المغولي إذا خرج للقتال لا يعوقه شيء عن مقصده، فإذا وصل إلى نهر كبير حزم أفراده حوائجهم وشدوها إلى خيولهم وعلوا فوقها أو أتوا يقرب أو أكياس من الجلد وملؤوها بالملابس وربطوها جيدًا ثم وصلوها بذيل الحصان وجلسوا فوقها بينما يجر رجل منهم هذا الحصان، وقد يستعملون مجدافين في دفعها بدل الحصان[1].

وعندما كانت جيوش المغول تلاقي الأعداء على ما ذكره ماركوبولو كانت لا تدخل في حرب نظامية بل كان المحاربون يدورون راكبين ويرمون سهامهم على أعدائهم. ولما كانوا لا يعتبرون في الفرار من المعركة أية نقيصة، فقد كانوا في بعض الأحيان يتظاهرون بالفرار ثم يدورون على سروجهم ويرمون أعداءهم بكل شدة وهكذا ينزلون بهم الخسائر الكبيرة. وكانت خيولهم متمرنة أحسن تمرين حتى أنها كانت تجرى هنا وهناك كالكلاب.

(١) Howorth, Vol. IV, pp. 67, 81-2, 85.

وعندما كان المغول يرون أنهم قتلوا كثيرا من الخيول والرجال كانوا يدورون على أعقابهم ويبدءون بمناجزة القوم، وهم في أحسن نظام مخرجين من أفواههم أصواتا مزعجة تصم الآذان وتدخل الرعب في القلوب. وقد أيد ماركوبولو في هذا القول هيتون حيث ذكر أن المغول "قد يفرون ولكنهم دائما يحفظون جماعاتهم بعضها مع بعض، ومن أكبر الخطر متابعتهم لأنهم حين فرارهم يرمون إلى الخلف من فوق رؤوسهم ويؤثرون تأثيرًا كبيرا على متتبعيهم وتكون صفوفهم دائمًا متقاربة حتى أنك قد تظنهم أقل من نصف حقيقة عددهم[1]. وفي هذا ما يثبت أن المغول اتبعوا طرائق حربية، تدل على نضجهم الحربي ورسوخ قدمهم في فنون الحرب.

(١) Howorth, Vol. IV, pp. 82-85.
و Osborn, p. 378.

٥- المغول في نظر المؤرخين

يكاد المؤرخون يجمعون على أن المغول كانوا قساة القلوب وحشيي الطباع وأنهم كانوا كالهيار المدمر لم يسلم إنسان ولا حيوان ولا زرع من ضرهم وأذاهم. لا يختلف في ذلك مؤرخو الشرق عن مؤرخي الغرب ولا مؤرخو العصور الوسطى عن إخوانهم في العصور الحديثة.

أما ما ذكره مؤرخو الشرق في العصور الوسطى عن المغول فيمكن أن نتخذ له مثلا ما ذكره ابن الأثير، فقد قال يصف مجيء التتر إلى بلاد الإسلام [١]: "الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين. فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتل بمثلها، لكان صادقا؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من إسرائيل.

(١) ابن الأثير ج١٢، ص١٦٥.

ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح"، ثم ذكر فتوحاتهم في ما وراء النهر وخراسان وروسيا وقال: "هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة في سنة".

وقد ذكر ياقوت يصف الأقاليم التي اكتسحتها جيوش المغول في إحدى رسائله فقال[1]: "وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان يتجاوب في نواحيها البوم ويتناوح في أراجيها الريح السموم، يستوحش فيها الأنيس ويرثي لمصابها إبليس.

كأن لم يكُنْ فيها أوانسُ كالدمى ... وأقيالُ مُلكٍ في بسالتِهِمْ أُسْدُ
فمَنْ حاتِمٌ في جودِهِ وابنُ مامةٍ ... ومَن أحنفٌ إن عُدّ حِلمٌ ومَن سَعدُ
تداعى بهم صرفُ الزمانِ فأصبحوا ... لنا عِبرةً تدمي الحشا ولِمن بعدُ

(١) ابن خلكان ج٢، ص٢١٣.

وذكر مؤرخ ثالث وإن لم يكن من العرب فمن الفرس وهو الجويني، أن البلاد الإسلامية التي اكتسحها المغول لم يبق بها واحد من ألف من سكانها الأصليين، كما قال إنه لو زاد السكان باضطراد دون أن يحول دون ذلك حائل من الحوائل وذلك في خراسان والعراق العجمي حتى يوم القيامة لما بلغ سكانها عشر ما كانوا عليه قبل الغزو المغولي(١).

ولم تختلف نظرة مؤرخي أوروبا في العصور الوسطى عن نظرة مؤرخي الشرق السابقين، فهذا روجر بيكون Roger Bacon اعتبرهم جنود المسيح الدجال Antichrist، وذلك القس جون الكربيني Frair John of Piano Carpine يعتبرهم بقايا القبائل العشر التي حاول الإسكندر الأكبر عزلها في الجبال التي بقرب بحر قزوين(٢)، أى أن كلا منهما نظر إليهم نظرته إلى عوامل الفساد في الأرض.

أما المؤرخون المحدثون فلا يختلفون عن السابقين في هذه الناحية، وقد جاء في مجموعة كمبردج التاريخية(٣) أن المغول لم يكونوا ممن يهمهم إنماء بذور الحضارة بالتعاون مع الآخرين، وأن جل همهم كان التوسع والغزو، كما أن العالم عرفهم محاربين أشداء خربوا البلاد وقتلوا العباد، وأنهم وإن كانت لهم آثار أخرى غير آثارهم الحربية

(١) D'Ohsson, Tome, I, pp. 350- 351.
(٢) Cambridge Medieval History, Vol. IV, Ch, XX, pp. 628, 630.
(٣) Ibid, p. 634.

فهي قليلة لا يعتد بها، وهم وإن أمنوا الطرق وفتحوها ما بين غربي آسيا وشرقيها لم يفيدوا التجارة بشيء لأن البلاد التي اكتسحوها وخربوها لم يبق بها شيء يتبادله الناس، كما أنهم وإن أعطوا الحرية الدينية لرعاياهم ولم يميزوا بين علماء المسلمين وبطارقة المسيحيين ورؤساء البوذيين لم يكن ذلك لاعتناقهم مبدأ حرية التدين، بل لأنهم لم يعتقدوا بأي دين من الأديان ولم يجدوا حرجًا في أن يعتنق أي امرئ الدين الذي يميل إليه.

أضف إلى ذلك أن دوسون المعجب بهم لم يجد بدًا من الإقرار بالحقيقة فذكر أنهم، أي المغول: "فاقوا في قسوتهم أشد الناس فكانوا يقتلون في الأقاليم التي يفتحونها الرجال والنساء والأطفال ويحرقون المدن والقرى ويحولون الأرض العامرة إلى صحارى، ومع ذلك فلم يكن يحركهم كره أو رغبة في الانتقام لأنهم لم يعرفوا أسماء الناس الذين قضوا عليهم، وقد كان ممكنًا أن نفرض أن التاريخ جسم مظالمهم لو لم يكن المؤرخون في جميع الأقطار قد اتفقوا على هذه المسألة، وقد كان الناس بعد الفتح يرون المغول يعاملون البقايا الضعيفة في الأمم المفتوحة كعبيد لهم وأنهم أثقلوا على الذين نجوا من سيفهم بظلمهم المخيف، وأن حكومتهم كانت تحتقر كل شريف كريم بينما يلقى أحط الناس ممن دخلوا في خدمة هؤلاء السادة الغلاظ الغنى والإكرام والقدرة على الاستبداد بإخوانهم ثمنا لخيانتهم"[1].

(١) D. Ohsson, Histoire des Mongols, Tome el, Expos, pp. VI– VII.

٦- رأينا الخاص في المغول

لقد ذكرنا فيما سبق ما يدل على أن المغول جمعوا كل صفات المحاربين الأقوياء وزودوا جيوشهم بالسلاح واتبعوا في حروبهم طرائق لا جدال في أنها من أحسن ما وجد في أيامهم، ولكننا في نفس الوقت لا نعدم الدليل على أنهم كانوا محاربين من النوع القاسي الذي لا يلين له قلب، كما أنهم كانوا مكرة مخادعين لا ينفذون وعدًا ولا يرعون ذمة ولا عهدًا. ولذلك فقد كانت أعمالهم أقرب إلى أعمال المخربين منها إلى أعمال المحاربين النظاميين.

وتظهر قسوة المغول فيما كانوا يعاملون به أعداءهم، فقد كانوا حين ينتصرون لا يتركون في قيد الحياة عظيمًا ولا حقيرًا ولا كبيرًا ولا صغيرًا ولا امرأة ولا طفلا رضيعًا، كما أنهم كانوا إذا أرادوا أن يحتفظوا بالأسرى ربطوهم من أرجلهم تحت بطون الخيل[١]. ولم تكن تلك القسوة عرضية بل كانت متأصلة في نفوس المغول تظهر في طريقتهم في ذبح الحيوانات، إذ كانوا يفتحون بطنها ويقبضون على قلبها ويجرونه ليقتلوها[٢]، وقد ذكر ذلك القلقشندي[٣] فقال: "ومن معتقدهم في ذبح الحيوان أن تُلفّ قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلى قلبه فيمرسه بيده حتى يموت أو يخرج قلبه، ومن ذبح ذبحة المسلمين ذبح".

---

(١) Howorth, Vol. IV, pp.81, 85.

(٢) Browne, Literary History of Persia, Vol, II, p. 440.

(٣) صبح الأعشى، ج٤، ص٣١١.

كما تظهر قسوتهم أيضًا في تضحيتهم بالرجال في جنائز العظماء وفي قتلهم عددًا من جمال المتوفى وخيوله ودفنها[١]، وفي معاملتهم للمرضى منهم فقد كانوا يتخلون عنهم بل ويعملون على إماتتهم، ويقول وليام الروبريكي في ذلك أنه "عندما يمرض أحد من المغول يوضع في مرقده وتوضع علامة على مسكنه تشير إلى وجود مريض في الداخل وإلى عدم دخول أحد عليه. ولا يزور المريض أحد أبدًا إلا من يتولى خدمته"، كما يذكر كربيتي أنه "عندما يمرض شخص توضع حربة خارج خيمته كما يلفون حولها قطعة من الصوف الأسود وبذلك لا يجرؤ غريب على دخولها. وعندما يشتد بالمريض مرضه يتركه الجميع؛ لأنه ليس مصرحًا لمن يشاهد موته أن يدخل مسكن أي عظيم أو قصر الإمبراطور حتي يبزغ القمر الجديد" فكأنهم ينظرون إلى المريض نظرتهم إلى ملوث نجس.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد من القسوة، بل إن فنسنت أف بوفيه حين يقول إن بين التتار من إذا هرم أبوه أعطاه مادة دهنية – مثل ذيل شاة – ليأكلها فتضغط عليه وتخنقه، وأنهم كانوا عندما يموتون يحرقون أجسادهم ويجمدون بقاياها ليرشوا من مسحوقها على طعامهم عندما يتناولون الطعام كل يوم[٢] - نعم؛ إنه بذلك يقدم لنا أكبر دليل على قسوتهم وتحجر قلوبهم.

---

(١) Howorth, Vol. IV, p.142.

(٢) Ibid, p. 203.

أما غدر المغول ومكرهم وعدم مراعاتهم للعهود فيتجلى في سلوكهم في حروبهم في فارس والصين، فكثيرًا ما وعدوا أهل المدن بالنجاة إن هم سلموا مدنهم ولم يلبثوا أن أنزلوا عليهم من العذاب ألوانا وقتلوهم حين أصبحوا في أيديهم[١]. هذا بالنسبة لأعدائهم، وقد يجد فيه بعض الناس عذرا لهم، إنما غدرهم الذي لا يمكن الدفاع عنه فيظهر في معاملتهم لحلفائهم، وقد جاء في كتاب هورث[٢]:

"إن دأبهم حين ينتصرون على أعدائهم أن يستولوا على الغنيمة دون تردد أما إذا هزموا فإنهم يتبعون حلفاءهم وينزلونهم عن خيولهم ويحملون ما معهم من الأسلاب".

(١) Osborn, p. 376.

(٢) Howorth, History of the Mongols, Vol. IV, p. 33.

الفصل الثانى
توحيد المغول

١. أصل المغول

تاريخ المغول القدماء تاريخ غامض يتخلله كثير من الأساطير، وذلك لأنه كتاريخ العرب في الجاهلية يعتمد على الرواية والتلقين بدل اعتماده على الكتابة والتدوين[١]، ولا يخفى ما يعتور الرواية من زيادة أو نقص وما يتخللها من عثرات الذاكرة وشوائب النسيان وإن ما تناقله المغول عن أصلهم ليحقق هذا القول. فقد كانوا يعتقدون أن أجدادهم وقد كانوا يعيشون في منغوليا من عصور سحيقة تعرضوا لأذى جماعات من سكان تلك البلاد قتلتهم عن آخرهم، ولم تترك في قيد الحياة منهم إلا رجلين وامرأتين تمكنوا من الفرار إلى منطقة خصبة اسمها أرجيني كون Erguene- Coun تقع بين جبلين، ثم توالدوا فيها حتى نشأت من نسلهم قبائل عديدة. وقد ضاقت تلك البقعة بتلك القبائل حين كثر عددها؛ ولذلك فإنها اخترقت أحد هذين الجبلين ووصلت إلى ضفاف أنهار أونون وكيرولان وتوجولا وتولا وأقامت عليها، وكان ذلك حول منتصف القرن الثامن الميلادى. وقد بلغ من شدة تمسك المغول بهذا الاعتقاد، أن أبناء جنكيز خان كانوا يحتفلون بهذا الحادث ليلة أول يوم من كل عام[٢].

---

(١) D'Ohsson, Tome I, p. 26.

(٢) Ibid, pp. 21–22.

٢. الأمم المغولية القديمة

ساعد المؤرخين على تبديد الغموض الذي يحيط بتاريخ المغول الأقدمين ما عثروا عليه في مؤلفات التاريخ الصيني، ولا يخفى ما كان هناك من اتصال بين الصينيين وبين البدو من سكان وسط آسيا منذ الأزمنة القديمة. فقد كانت الصين غنية بينما كانت جهات أواسط آسيا فقيرة. ولذلك كثيرا ما هاجم هؤلاء البدو شمالي الصين ورجعوا بالأسلاب والغنائم، بل إن هذه الهجمات نفسها كانت سببًا في إقامة سور الصين العظيم قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف قرن. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن حكومة الصين كانت تستخدم جيوشا من هؤلاء البدو وتوزعهم على حدود بلادها الشمالية لكي يحموها من إخوانهم في الجنس، كما وجدت أخيرًا أن أضمن طريق لحفظ البلاد من شر هؤلاء البدو هو تقسيم منطقة الحدود بين رؤسائهم، واعتبارهم أقيالا يقدمون لها الخضوع ويتسلمون منها علامات السلطان[١].

وإن ما عثر عليه المؤرخون في تاريخ الصين خاصًا بالمغول الأقدمين وإن كان لا يعدو شذرات بسيطة، إلا أنه أزاح اللثام عن حقائق لا يجوز إهمالها، وبيّن أن المغول في عصورهم القديمة كانوا أمما متفرقة تقيم في منغوليا شمالي صحراء شامو وإلى الشمال الغربي والشرقي منها.

(١) D'Ohsson, Tome I, p. 4-5.

ومن هذه الأمم أمة النيمان Naimans الكبيرة العدد التي كانت تسكن الأقاليم التي يجري فيها نهر أرتش الأعلى والتى تخترقها سلسلة التاي الكبرى، وأمة الكريت Keraits التي كانت تسكن الأراضي الواقعة شرقي منطقة النيمان، التي تمتد حتى منابع نهر أونون وكيرولان، وأمة المركيت Merkits التي كانت تسكن الإقليم الواقع شمال أرض الكريت، وأمة الويرات Ouirates التي كانت تقيم في إقليم يقع شمالي إقليم أمة المركيت ترويه ثمانية نهيرات تكوّن نهر يني الحالي، وأمة الجلير Djelaires التي كانت تشمل عشر قبائل والتي كانت منطقتها على شواطئ نهر أونون، وقبائل الأوراسوت Orassoutes والتلنجوت Telengoutes والكشتيمس Keschtimis التي كانت تقيم في غابات واسعة غربي بحيرة بيكال، وقبائل البارجوت Bargoutes التي كانت تقيم شرقي بحيرة بيكال. أما أمة المغول، فكان من قبائلها: البايوت Bayaoutes والتيدجوت Taidjoutes والكنجراتس Coungrates وكانت تقيم في الإقليم الواقع جنوب بحيرة بيكال، وأمة التتار وكانت تسكن شواطئ بحيرة بريور في أقصى الشرق من منغوليا[1].

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 6-9.
و Cambridge Medieval, Hist., Vol, IV, pp. 631- 662. .

٣. حالة الأمم المغولية القديمة..
حتى أوائل القرن الثانى عشر الميلادي

ظلت الأمم المغولية التي سبق ذكرها عدة قرون قبل الميلاد وأخرى بعده خاضعة للنفوذ الأجنبي لا تكاد تتخلص من سيطرة إمبراطورية من الإمبراطوريات حتى تقع تحت سيطرة غيرها. وأول ما نعرف من الإمبراطوريات التي نشرت نفوذها على منغوليا إمبراطورية الهينو Hong - Nous التي ظلت قائمة حتى سنة ٩٣ق.م.

وقد قامت بعدها إمبراطورية السينبيس Sien-Pis في وسط آسيا وكان لها في منغوليا من النفوذ مثل الأولى وظلت حتى سنة ٢٣٣م. وقد وقعت منغوليا بعد ذلك في قبضة إمبراطورية التوباس Les Topas ثم في أوائل القرن الخامس في قبضة الجيوجان Geougens وبعد ذلك بحوالي مائة وخمسين سنة أصبح الأمر فيها للأتراك الذين أقاموا إمبراطورية امتدت من المحيط الهادئ شرقا إلى بحر قزوين غربًا ومن الصين جنوبًا إلى المحيط المتجمد شمالا. وقد أزال الصينيون بمحالفة الويغور هذه الإمبراطورية التركية سنة ٧٤٤م، ومن ذلك الوقت خضعت منغوليا للويغور أو الهوي هوي Hoeihoel كما يسميهم الصينيون. وقد انتقل الأمر بعد ذلك للقرغيز سنة ٨٤٨م.

وفي أوائل القرن العاشر الميلادي صار الخطا سادة منغوليا، إلا أن الزمن لم يلبث أن دار دورته وأصبح النفوذ في منغوليا لأباطرة أسرة كين Kin.

وقد ظلت سيادة هؤلاء الصينيين في منغوليا حتى أوائل القرن الثانى عشر الميلادي حين ثارت الأمم المغولية عليهم واستقلت عنهم عند موت الإمبراطور تاي تنجTai Taung سنة ١١٣٧م[١].

(١) Hoeorth, Vol. IV. pp. 7-8.
و D'Ohsson, Tome I, pp. 2-3 .

٤. توحيد الأمم المغولية القديمة على يد تيموجين

بعد أن تخلصت الأمم المغولية من النير الأجنبي، أصبح من الضروري لها أن توحد صفوفها. وقد أخذ رؤساء أمة المغول على عاتقهم إتمام هذه الغاية ولاقوا في سبيلها كثيرًا من المصاعب وعلى الأخص من أمة التتار التي كانت في ذلك الوقت أكبر الأمم المغولية حتى كان الصينيون يطلقون اسمها على جميع الأمم المغولية، التي عن عليها أن تتقدمها أمة المغول. وإن التاريخ ليذكر لنا كثيرًا من الحروب التي خاضها رؤساء أمة المغول مثل كابل وكوبلاي Kubilay ويسوجاي Yesugai ضد أمة التتار[١].

وقد كان لتيموجين بن يسوجاي الفضل الأكبر في جعل وحدة الأمم المغولية أمرًا واقعا. وقد بذل في هذا السبيل مجهودًا جبارًا لأنه حين عزم على تنفيذ فكرة الوحدة المغولية كان يتحدى جميع الأمم الأخرى الموجودة في منغوليا بل والقبائل العديدة التي كانت تضمها أمة المغول نفسها.

ولو أننا أردنا أن نحصر الحروب التي قام بها تيموجين في سبيل ضم سكان منغوليا جميعهم تحت سلطانه، لألفيناها على نوعين:

---

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 33-35.
و Camb, Mod, Hist., Vol. IV, p. 632.

الأول عبارة عن حروب كانت تقع بينه وبين مجموعات من الأمم المغولية التي كانت تتعاون فيما بينها عندما تحس بأن خطراً عاما يهددها من قبله، والنوع الثاني عبارة عن حروب فردية كانت تقوم بها أمم منغوليا المختلفة دفاعا عن نفسها حين كان تيموجين يهاجمها.

(أ) حروب تيموجين مع الأمم المغولية المتحالفة:

من قبيل المقاومة الاجماعية التي تعرض لها تيموجين ما حدث في السنوات الثلاث ١٢٠٠ و١٢٠١ و١٢٠٢. ففى سنة ١٢٠٠ ميلادية تعاقدت قبائل كثيرة على مناهضة تيموجين على أثر انتصاره على قبيلة التادجوت المغولية، وحلف رؤساء هذه القبائل أن يتعاونوا فيما بينهم ويتآزروا حتى يكون النصر حليفهم، ولكن تيموجين علم بخبرهم من حميه، أحد هؤلاء الرؤساء المتعاقدين وسارع إليهم وفاجأهم بالقرب من بحيرة بويور وفرق جموعهم وهزم كثيرًا من رؤسائهم في سهل تيموركينTemourkin [١]. وفي سنة ١٢٠١ ميلادية، اتفقت أيضًا قبائل عديدة على مناوأته واجتمع رؤساؤها واختاروا رئيسًا لهم لينظم جهودهم وليكون لعملهم أثر أعظم من المرة السابقة. وقد اضطر تيموجين إلى ملاقاتهم وتفريق جموعهم. أما في سنة ١٢٠٢ ميلادية، فقد جمع ملك المركيت واسمه توكتا Toucta وبويوروك Boyourouk.

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 60-62.

أخو ملك النيمان قبائل كثيرة ضد تيموجين ولكن قسوة المناخ ساعدت على تبديد شملها وأنجت تيموجين من خطر جسيم كان يتهدده، خصوصًا وأن العلاقات بينه وبين حليفه وانج خان ملك الكريت كانت قد ساءت في ذلك الوقت حتى أنهما عندما خرجا لملاقاة هذه اللعبة من الأعداء تنازعا، وقامت الحرب بينهما[١].

(ب) **حروب تيموجين الفردية:**

أما المقاومة الفردية التي لاقاها تيموجين في سبيل توحيد الأمم المغولية فقد كانت ضد أمم المركيت والنيمان والتتار والكريت التي قامت ضده مدافعة عن أملاكها واستقلال بلادها.

١. **حرب المركيت:** كانت أمة المركيت حين هاجمها تيموجين يرأسها ملك اسمه تكتا، كما كانت تشمل أربع قبائل. وقد بدأ تيموجين حروبه فيها سنة ١١٩٧ م ولكنها لم تخضع له إلا في سنة ١٢٠٤م، أي أنها ظلت تقاوم سبع سنوات طوال، لاقت فيها كثيرا من أعمال العسف والشدة. وفي أول حروب تيموجين في بلاد المركيت كان يساعده وانج خان[٢] ملك الكبريت الذي أصبح له حليفا منذ عام واحد وقد حصلا على غنائم كثيرة. وفى السنة التي بعدها

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 63, 65-66.

(٢) ذكره ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول ص: ٣٩٤ باسم أونك خان وقال وهو المسمى ملك يوحنا من القبيلة التي يقال لها كريت، وذكر أن تيموجين كان يخدمه من صغره.

(١١٩٨م) لم يخرج تيموجين إلى بلاد الركيت بل خرج حليفه وانج خان وحده وهاجمها واضطر ملكها إلى الفرار كما قتل أحد ابنيه وأسر الابن الثاني. ولما أبى تكّا أن يخضع لتيموجين بعد ذلك اضطر إلى ترك بلاده سنة ١٢٠٤م وحينئذ تتبع تيموجين القبائل المركيتية وأخضعها بالقوة واحدة بعد أخرى(١).

٢. **حرب النيمان:** ولما هاجم تيموجين أمة النيمان كانت الظروف مواتية له؛ لأن عرشها كان يتنازعه الأخوان تاي بوقا Tai Bouca وهو الأكبر وكان يقيم حيث كان يقيم أبوه في السهول كما كان يحمل اللقب الصيني تاي وانج Tai Vang ومعناها الملك العظيم، وذلك الأخ هو المعروف في التاريخ باسم تيانج النطق المغولي للكلمة الصينية المذكورة. أما الأخ الثاني بويوروك وهو الأصغر فكان يقيم في المنطقة الجبلية القريبة من سلسلة جبال التاي. وقد كان من السهل على تيموجين أن يخضع أمة النيمان لسلطانه في وقت قصير إلا أنه حين سار إليها سنة ١٩٩٩م كان منه حليفه وانج خان، وما كاد يتخذ لجيشه مكانا استعدادًا للمعركة حتى انسحب هذا الحليف واضطر هو بدوره إلى التقهقر وترك بلاد النيمان. ولم يستعد تيموجين استعدادًا تامًا لإخضاع النيمان إلا في سنة ١٢٠٤ م حين علم أن تيانج خان يحاول أن يكوّن تحالفًا ضده، فقد جمع مجلسًا عامًا ليقرر

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 55, 90.

ما يتبع بشأنه ثم سار بجيشه لملاقاته واشتبك معه في معركة انتهت بانتصاره وقتل تيانج خان وتفريق أتباعه. على أن بلاد النيمان لم تخضع إلا في سنة ١٢٠٦م بعد أن قتل بويوروك الذي كان قد حل محل تيانج خان واستولى على أملاكه وقطعانه وبعد أن اضطر كشلوك ابن تيانج خان الذي كان مع عمه إلى الفرار(١).

٣. **حرب التتار:** أما أمة التتار فقد ناوأت تيموجين مناوأة شديدة حين أراد أن يخضعها لسلطانه. إذ انضمت إلى كل تحالف عقدته القبائل لمناهضته، سواء أكان ذلك في سنة ١٢٠٠م أم سنة ١٢٠١م. وقد كان مسلكها هذا نحوه يتفق مع مسلكها نحو أبيه وجده من قبله، وكانت تزكيه وتزيد أواره روح الكراهة المتأصلة بينها وبين أمة المغول.

وإذا كان تيموجين قد هاجم هذه الأمة سنة ١٢٠٢م وهزم قبيلتين من قبائلها، فإنه لم يلبث بعد أن انتصر على تيانج خان ملك النيمان وبعد أن أخضع أمة المركيت أن سار إليها وأخضع قبائلها وقتل كثيرا من أفرادها (٢).

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 55, 59, 83-88, 90, 161.
(٢) Ibid, pp. 60-63, 92-93.

٤. **حرب الكريت:** لقي تيموجين مقاومة من أمة الكريت لا تقل عما لقيه من غيرها، وقد كانت هذه الأمة بفضل محالفة ملكها وانج خان لتيموجين من أركن الأمم إليه، ولكنها بعد أن انسحب وانج خان ملكها من الميدان عندما كان يرافق تيموجين في حربه الأولى ضد أمة النيمان كما سبق أن ذكرنا أصبحت تقاوم تيموجين كغيرها من الأمم التي تقيم في منغوليا. وقد تحالف تيموجين ومن ورائه أمة المغول ووانخ خان ومن ورائه أمة الكريت مدة لا بأس بها واشتركوا في كثير من الحروب ضد أعدائهم، إلا أن الحال ما لبث أن تغير والشقاق ما لبث أن أخذ طريقه بين تيموجين ووانجج خان وقامت الحرب بينهما وانتهت بقتل وانج خان. وتبع ذلك مهاجمة تيموجين لأمة الكريت وإخضاعه لها[١].

وقد تم بذلك ما كان يرمي إليه تيموجين من توحيد الأمم التي كانت تقيم في منغوليا لسلطانه ولم تشذ أمة من الأمم عن الخضوع له، وهكذا أصبح تيموجين وتحت حكمه كتلة كبيرة واستحق لقب جنكيز خان ومعناه ملك الأقوياء أو الملك صاحب القوة والبطش، الذي منحه له مجلس عام أوقوريلتان Curiltai عندما اجتمع سنة ١٢٠٦م[٢]. وقد ذكر القلقشندي أن اسمه في الأصل تمرجين وأنه لما عظم شأنه سمي جنكيز خان[١].

---

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 69-83

(٢) Ibid., pp. 98-99.

الفصل الثالث

التوسع المغولي في آسيا وأوربا

سنتكلم في هذا الفصل عما بذله المغول في أيام جنكيز خان وخلفائه أجطاي وكيوك من مجهودات في سبيل تكوين إمبراطوريتهم التي شملت معظم قارة آسيا وامتدت إلى أوروبا. وذلك لأن أعمال الفتح التي قام بها المغول كانت سلسلة متصلة الحلقات وسلما متتالي الدرجات، وليس من المنطق أن نتكلم عن إزالتهم للخلافة العباسية في عهد الخان الأعظم مانجو قبل أن نذكر ما قاموا به من حروب في عهود من سبقه من الخانات وما أتموه من فتوحات في تلك العهود هيأت لهم سبيل القرب من أملاك الخلفاء العباسيين بل وجعلت استيلاءهم عليها أمرًا لا بد منه.

و.Howorth, Vol. I, p. 54,....

و. Cam, Med. Hist., Vol, IV, p. 632

(١) صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠٥.

١. عهد جنكيز خان

لم تكن الوحدة المغولية هي كل ما تم في أيام جنكيز خان، بل إن أكبر الفضل في وضع سياسة للتوسع المغولي يرجع إلى ذلك العاهل العظيم. وقد سار جنكيز خان شوطا بعيدًا في تنفيذ سياسة التوسع ولم تقتصر فتوحاته على جهة من الجهات بل شملت كل الجهات المجاورة لمنغوليا تقريبًا. ويمكن حصر الكلام على ما تم في عهده من الفتوحات في ثلاث مراحل.

(أ) المرحلة الأولى:

تبدأ المرحلة الأولى من سنة ١٢٠٧م وتنتهى سنة ١٢١١م. وقد تم فيها إخضاع عدة إمارات صغيرة تركية بين منغوليا وتركستان لنفوذ جنكيز خان،

وتلك الإمارات هي إمارة الكمكمجوت Kemkemjoutes وإمارة القرغيز Kirghiz وإمارة الويغور Ouighurs وإمارة كيالج Kialeg وإمارة الملغ AImaleg، وجميعها كانت تعترف بسلطان إمبراطور القره خطاي أو الخطا قبل أن تخضع لجنكيز خان. ولم يبذل جنكيز خان مجهودًا في إخضاعها بل إنه بمجرد وصول رسله إليها ودعوتهم لها إلى الخضوع أجابت دعوتهم. ويرجع ذلك إلى سوء حكم أباطرة الخطا واستبدادهم بمن يتصل بهم.

وقد أراد جنكيز خان أن يكسب علاقته بهذه الإمارات قوة بغير طريق العسف والشدة فزوج أمير كيالج وأمير الملغ بأميرتين من بيته، كما زوج ابنته لملك الويغور[١].

(ب) **المرحلة الثانية:**

أما المرحلة الثانية فتبدأ سنة ١٢١١م وتنتهي سنة ١٢١٨م وتشمل مجهودات جنكيز خان وحربه ضد مملكة هيا Hia أو التنجوت الصغيرة التي كانت تقع بين أملاك جنكيز خان وإمبراطورية أسرة كين في الصين الشمالية وأيضًا ضد إمبراطورية أسرة كين نفسها وضد كوريا أيضًا، وقد انتهت هذه المرحلة بخضوع كوريا ومملكة التنجوت وانتشار نفوذ المغول في الجزء الواقع شمال النهر الأصفر من إمبراطورية أسرة كين وفى المنطقة التي كانت لا تزال باقية للخطا والتي كان أهلها يسمون لياوتنج Leao- Tong[٢].

---

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 95, 101-111.

وذكر ابن العبري هذه الإمارات في كتابه تاريخ مختصر الدول في صفحات ٣٩٦ و ٣٩٨ و٣٩٩ و٤٢٦ على هذا النحو: الأيغور وقباليغ والماليغ (ال التعريف) وبلاد قراخطا وذكر أن هذا اللفظ كان يطلق على أمير بلاد الأيغور وتنكوت.

وجاء في صبح الأعشى ج٤ ص٤٨٣ "بلاد الخطا بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف في الآخر وهم جنس من الترك بلادهم في متاخمة بلاد الصين".

وقد اتبعت ما ذكره مؤرخو الفرنجة لأنهم أكثر دقة وأوسع اطلاعا فيما يختص بدراسة المغول.

(٢) D'Ohsson, Tome I, pp. 123-162.

و Howorth, Vol. I, p. 135.

و Cam.med. hist., Vol. IV, pp. 633-637.

(ج) **المرحلة الثالثة:**

بدأت المرحلة الثالثة سنة ١٢١٨م وكان ميدانها في غرب آسيا لا في شرقها، وكانت عبارة عن حروب شديدة شنها جنكيز خان على الإمبراطورية الخوارزمية التي كانت تمتد من نهر السند شرقا إلى كردستان وخوزستان والخليج الفارسي غربًا ومن سواحل بحر آرال وبحر قزوين شمالا إلى المحيط الهندي جنوبًا، وتشمل بين أهم بلادها أذربيجان والعراق العجمي وفارس وكرمان ومكران وسستان وخراسان وأفغانستان واليامير والصغد وما وراء النهر[١] وقد ظلت هذه الحرب نحو خمس سنوات أي حتى سنة ١٢٢٣م استولى فيها جنكيز خان على كثير من مدن ما وراء النهر وأهمها بخارى وسمرقند وترمذ، ثم عبر نهر جيحون وفتح بلخ والطالقان وباميان بينما فتحت جيوشه حوض نهر سيحون وخوارزم وخراسان وتتبع قسم منها يعرف في التاريخ باسم المغول المغربة محمد خوارزمشاه الذي أخذ يتنقل مسرعا من نيسابور إلى قزوين إلى جيلان إلى مازندران إلى جزيرة عند مصب نهر جرجان في بحر قزوين حيث مات.

---

(١) Cam. med., hist., IV, p. 633, D'Ohsson, Tome I, p. 175.
الصغد بالضم ثم السكون وآخره دال مهملة.. كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وترمذ، مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي.. وطالقان بعد الألف لام مفتوحة وقاف وآخره نون بلدة بين مرو الروذ وبلخ وبينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل.
"راجع هذه الأسماء في معجم البلدان لياقوت".

ثم بعد ذلك سار المغول المغربة حتى دخلوا روسيا بعد أن عبروا جبال القوقاز[1].

وقد قامت الحروب بعد موت محمد خوارزمشاه بين ابنه جلال الدين وبين جنكيز خان، فأرسل جنكيزخان جيشا إلى خوارزم هزمه جلال الدين، ثم تلاقى بعد ذلك الاثنان عند نهر السند ودارت بينهما معركة حمى وطيسها وأظهر فيها جلال الدين شجاعة أرعبت عدوه، إلا أن انسحاب جزء من جيشه بسبب النزاع بين قواده أضعفه واضطره إلى عبور نهر السند إلى الهند. وقد بقي جنكيز خان بعد ذلك مدة قصيرة على شاطئ نهر السند أرسل فيها قائدين من قواده لافتفاء أثر جلال الدين في الهند، كما أرسل ابنه أجطاي إلى غزنة فخرّبها، وأرسل جيشًا غير هذه الجيوش فتح هراة وخربها كما فتح مرو وخربها، ولما عادت هذه الجيوش إليه عزم على العودة إلى منغوليا في ربيع سنة ١٢٢٣م، وقد أراد في أول الأمر أن يعود عن طريق الهند والتبت وسار فعلا بعض المراحل ولكنه غير رأيه فسار عن طريق فارس وما وراء النهر.

---

(١) ياقوت- معجم البلدان ج٨ ص٢٥٧- ٨ و ج٧ ص٣٤٣ وابن العبري، ص٤٠٢و ٤١١ .
و D'Ohsson, Tome I, pp. 216- 292.
و Howorth, Vol. I, pp. 77- 86.
و Browne, Lit, his. of persia. II, p. 438.
و Raverty, Tabakat-i-nasiri (trans), p. 377 note 5.

أي اتبع في عودته الطريق التي سلكها عند مجيئه فوصل إلى قصره في منغوليا في شهر فبراير سنة ١٢٢٥م[١].

وعلى ذلك فقد سار جنكيز خان شوطًا بعيدًا في سبيل ضم معظم غربي آسيا إلى ممتلكات المغول، كما أنه ثبت قدم المغول في جزء واسع من شمالي الصين ووجه أنظارهم إلى البلاد الصينية، وقد مات جنكيز خان في ١٨ أغسطس سنة ١٢٢٧م وهو يحارب في بلاد التنجوت[٢].

(١) ياقوت – معجم البلدان، ج٨، ص٣٥ و ٤٥١، وابن العبري، ص٤١١– ٤١٣.
D'Ohsson, Tome I, pp. 296– 323.
"غزنة" ولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند.
راجع لفظ غزنة في معجم البلدان لياقوت.
(٢) D'Ohsson, Tome I, pp. 380–1.

٢. عهد خلفاء جنكيز خان (أجطاى وكيوك)

(أ) نشر نفوذ المغول في الصين:

لم يألُ خلفاء جنكيز خان في اتباع الطريق الذي سكله؛ ولذلك فإن ابنه أجطاي عندما خلفه على العرش عول على إخضاع أمراء أسرة كين الذين ثاروا على المغول على أثر موت جنكيز خان وهزموهم ١٢٢٨م، وفي سنة ١٢٣٠م، وقد سار على رأس جيش كبير كما سير أخاه تولوي Talé إلى هونان وكانت النتيجة أن انتصر المغول واكتسحوا أسرة كين من الوجود وأتموا إخضاع الصين الشمالية نهائيًا، بعد أن ظل أفراد هذه الأسرة يحكمون ١١٨ سنة[١].

هذا في الصين الشمالية، أما في الصين الجنوبية فقد عول أجطاي على تنفيذ رغبة جنكيزخان الذي جهز حملة لغزوها ولكنه مات قبل إنفاذها. ولم يمنع أجطاي عن تحقيق هذا الغرض مساعدة ملكها له في حربه ضد أمراء أسرة كين، بل إنه وقد وعد الملك بإعطائه هونان جزاء تلك المساعدة عاد فأخلف الوعد، ولم يكتف بذلك بل فكر أنه حين بدأ محاربة أسرة كين طلب من هذا الملك أن يسمح لجيوشه بالمرور في أرضه ولكنه أبى،

---

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 16- 56.
و Howorth, Vol, I, p. 125.
و Camb. med. hist., IV, p. 625.
ذكر ابن العبري ص٣٩٥ أن جنكيز خان كان له أربعة أولاد من زوجته الخاتون الكبيرة وذكر أسماءهم كالآتي: توشي، جعاتاي، أوكتاي، تولي.

وحين أرسل إليه رسولا لهذا الغرض قتله، ورأى في أعماله هذه سبباً وجيها لإعلان الحرب عليه، وسيّر حملة ضد الصين الجنوبية سنة ١٢٥٣م فكان ذلك اتباعًا للطريق الذي اختطه جنكيزخان وإن لم تكن نتيجة هذه الحملة حاسمة(١). وقد سار خلفاء أجطاي على هذا النمط نحو الصين الجنوبية ولم يفز أحد منهم بنتيجة نهائية بل كانت جيوشهم تغير على بعض المقاطعات وتستولي على بعض المدن ثم لا تلبث أن تعود منها غير عابئة إلا بالحصول على الغنائم(٢).

أما في كوريا فقد اشتد النزاع بين ملكها وأجطاى وكثرت الثورات ضد المغول حتى أنه في سنة ١٢٣١م قُتِلَ رسول الخان وكان ذلك سبباً في إرسال حملة بقيادة سابوتاي Sabutai. الذي انتصر وعين حكامًا من المغول في كثير من مدن كوريا. وفي سنة ١٢٣٢م، ثار أهل كوريا وقتلوا كثيرًا من هؤلاء الحكام المغوليين وخاف ملك كوريا وفر إلى جزيرة سيانج هوا Siang Hua على ساحل كوريا الغربى فاستدعاه أجطاي ليجيب أمامه عن تلك الحوادث ولكنه رفض فكان ذلك سبباً في إرسال حملة ضده سنة ١٢٣٥م.

---

(١) D'Ohsson, Tome II, pp. 76- 83.
و Howorth, Vol. I, p. 137.
و Cam, med. hist. IV p. 637.
(٢) D'Ohsson, Tome II, p. 276.

ولم تأت سنة ١٢٤١م حتى خضع ملك كوريا ووعده بدفع جزية سنوية وإرسال رهائن إلى أجطاي[١] وظل الحال على ذلك أيام الخان مانجو.

(ب) نشر نفوذ المغول في أوربا:

كانت حملة المغول الغربية سبباً في توجيه نظر المغول إلى أوربا، فلما مات جنكيز خان وتولى العرش ابنه أجطاي، قام المغول بأعظم حروبهم في أوربا. ومما يدل على اهتمام أجطاي بغزو أوربا أنه حين جهز سنة ١٢٣٥م الجيوش لغزو الصين الجنوبية وكوريا لم ينس أن يجهز جيشا ثالثا ليوجهه إلى ما وراء نهر الفلجا، كما أنه كان عازمًا على قيادته بنفسه، وعندما اضطرته الظروف إلى البقاء تخلى عن القيادة إلى باتو ابن أخيه جوجي، وأرسل معه أبناءه وأبناء إخوته[٢].

وقد سار هذا الجيش بسرعة كعادة الجيوش المغولية وخرب بلادًا كثيرة من أهمها موسكو وفلدمير، كما استعمل القسوة الشديدة ضد مدينة كسلسك Koselsk التي سماها المغول موبالج Mobalig ومعناها مدينة الآلام؛ مما يدل على أنهم أحسوا بقسوتهم حيالها.

---

(١) D'Ohsson, Tome II, pp. 72-75.
و Howorth, Vol. I, p. 135.
و Cam. med. hist., IV, p. 637.
(٢) D'Ohsson, Tome II, p. 276.

ولم تنج نفجورود منه إلا لذوبان الثلوج وتحول الإقليم المحيط بها إلى مستنقع لا يمكن عبوره. ولم تأت سنة ١٢٠٤م حتى كان قد قارب نهر الدنيبر وخرب مدينة برسلاف Pereslave وشرنيجوف Chernigov وجلوكوف Glokhov ثم استولى على مدينة كييف kive[١]. وانقسم الجيش المغولي بعد ذلك إلى قسمين سار أحدهما إلى شمال قاصدًا بولندة وسار الثاني إلى الجنوب الغربي قاصدًا بلغاريا. أما القسم الشمالي الغربي فتمكن من هزيمة هنري دوق سيليسيا سنة ١٢٤١م ومعه أشراف بولندة ورئيس الفرسان اليوتون في لينتز هزيمة ساحقة وأدخل الرعب في أوربا الغربية كلها من جراء هذا الانتصار ومن جراء أعمال القتل التي قام بها والتي راح ضحيتها كثيرون من الأشراف والبطارقة والراهبات والأطفال. بينما القسم الذي سار نحو الجنوب الغربي عبر الكربات بقيادة باتو واكتسح فرسان هنغاريا في موهى Mohi على نهر نيس واضطر الملك بيلا الرابع Bela Iv إلى الفرار نحو الأدرياتيك، ولم يكتف بذلك بل عبر نهر الدانوب واستولى على جران Gran ولولا موت أجطاي الذي استدعى باتو وقواده إلى بلادهم، لما وُجِد أقل شك في مشاركة باريس وروما لكييف وموسكو في مصيرهما[٢]. وعلى العموم فقد

(١) D'Ohsson, Tome II, pp. 114- 122. .

(٢) Ibid., pp. 124- 160.

شمل عذاب المغول في حملتهم هذه أوربا الشرقية والوسطى وامتد حتى حدود ألمانيا الشرقية ولم تنج منه البوسنة ولا بلغاريا ولا الصرب[١]، كما أن هذه الحملة كانت أعظم مجهودات خلفاء جنكيز خان في أوربا، بل ويمكن اعتبارها الأولى والأخيرة.

(ج) نشر نفوذ المغول في غرب آسيا:

بعد عودة جنكيزخان إلى بلاده رجع جلال الدين من الهند وأخذ يجمع شتات الإمبراطورية الخوارزمية، وقد وفق إلى حد كبير وأصبحت سلطته منتشرة في خراسان وكرمان والعراق العجمي وفارس وأذربيجان، كما هزم الكرج ونهب بلاد الإسماعيلية وقتل منهم عدداً كبيرا وفرض عليهم جزية ثقيلة، كما استولى على خِلاط ولم يتركها إلا بعد أن تحالف صاحبها الملك الأشرف مع علاء الدين صاحب بلاد الروم وهزمه[٢].

Cam. med. hist., Vol. IV, p. 637 و.

(١) Gibbon, decline & fall of the Roman Empire (Ed. Bury). Vol. VII, p. 17.

(٢) ابن الأثير، ج١٢، ص١٩٥- ٢٢٧.

D'Ohsson, Tome II, pp. 1-21, 34-47.

"الكرج بالضم ثم السكون وآخره جيم وهو جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا تفليس ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة... وشوكة وقوة وكثرة وعدد".

راجع لفظ كرج في معجم البلدان لياقوت:

وكان المغول يناوئون جلال الدين في أول الأمر بغير نجاح حتى إذا تولى أجطاي أمرهم بعد موت أبيه، أرسل جيشا قويًا استولى على الري وهمذان وما بينهما من البلاد ثم قصد أذربيجان وخرب ونهب وقتل من ظفر به من أهلها ثم أوقع بجلال الدين ليلا وهو بظاهر آمد سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١) م. فتشتت عسكره أيدي سبأ وفر هو إلى الجبال حيث قتله أحد الأكراد[١]، وبذلك قضى المغول على الدولة الخوارزمية وأصبح نفوذهم تاما في ما وراء النهر وخراسان والعراق العجمي وفارس.

وقد ذكر ابن الأثير أن إرسال هذا الجيش المغولي الذي قضى على جلال الدين كان بناء على طلب الحشيشية بسبب سوء معاملة جلال الدين لهم[٢]، فإذا كان هذا صحيحًا فإنه يدل بلا شك على قصر نظر المسلمين في ذلك الوقت وتعاديهم فيما بينهم وعدم تعاونهم، كما يرينا كيف جر المسلمون على أنفسهم البلاء فقد كان محمد خوارزمشاه حاجزًا منيعًا بين الخلافة العباسية والخطر المغولي عمل الخليفة الناصر على إزالته ثم جاء جلال الدين وحاول أن يقيم هذا الحاجز ويحمي

(١) ابن الأثير، ج١٢، ص٢١٧و ٢٢٠ و ٢٣٠- ٢٣٢ والذهبي، دول الإسلام. ج٢، ص١٠١ وابن العبري، ص٤٣١- ٤٣٢.
و D'Ohsson, Tome III, pp. 23- 37, 47- 62 .
و Howorth. Vol. I, p. 125.
و Raverty (Trans.), Tabakat-i-Nsdiri, p. 298, noto 1.
(٢) ابن الأثير، ج١٢، ص٢٣٠.

العالم الإسلامي من شر المغول فلم يساعده أحد بل ووقع الحشيشية في الخطأ الذي وقع فيه الخليفة من قبلهم.

ولم تقتصر مجهودات جنكيز خان على إتمام ما بدأه بالقضاء على الدولة الخوارزمية بل امتدت أطماعهم شيئا فشيئا، وقد تم في أيام أجطاي إخضاع جزء كبير من الجهات الباقية في غرب آسيا، فوعدت أذربيجان بدفع جزية كما وعد كثير من أمراء بلاد الكرج بمثل ذلك وإن كانت روسودان Rousoudan ملكة تلك البلاد قاومت المغول مدة طويلة ولجأت إلى قلعة أوزانث، أما أرمينية فخربت عاصمتها آني Ani وقتل كثير من أهلها لأنها قاومت المغول الذين ظلوا يحاصرونها زمنا طويلا.

كما عوملت قارص - إحدى مدنها - معاملة سيئة على الرغم من أنها سارعت بتقديم مفاتيحها إلى المغول ولم ينج من مذبحتها إلا الأطفال والصناع، ولكن المغول بعد ذلك عاملوا أرمينية كما عاملوا غيرها؛ إذ قبلوا منها الجزية المعتدلة كما أعادوا أمراءها إليها، وذلك على أثر ذهاب الأمير الأرمني أواك Avak وأخيه تماتا Thamata إلى بلاط أجطاي سنة ١٢٤٠م واستقباله لهما استقبالا حسنا[١].

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 71, 75- 78 .
و133 -Howorth, Vol. I, pp. 132.

بعد موت أجطاي سنة ١٢٤١م استمر تقدم المغول في غرب آسيا وظل هذا التقدم طوال المدة التي كانت فيهما تيركينا أرملة أجطاي ووالدة كيوك صاحبة الأمر والنهي (١٢٤١-١٢٤٦م).

وفي عهد كيوك (١٢٤٦-١٢٤٨م) وأوائل عهد مانجو، فقد أغار المغول على أرزن الروم سنة ١٢٤٣م (٦٤١هـ) واستولوا عليها وقتلوا حاميتها وأسروا كثيرا من أهلها، كما حاربوا السلطان غياث الدين كيخسرو سلطان الروم السلاجقة في آسيا الصغرى، واضطروه إلى دفع جزية سنوية قدرها أربعمائة ألف دينار وعدد من العبيد والخيل والأشياء الثمينة، كما دخل في نفس الوقت قسم آخر منهم الشام وتقدم حتى حلب وعاد بعد أن دفعت لهم مبلغًا من المال.

وفي عودته قدم له حاكم ملطية الخضوع كما قدم كمية من النقود والأواني الذهبية والفضية، وقبل حاكم أنطاكية وغيره من حكام المدن المسيحية دفع جزية سنوية، وكذلك فعل هيتون ملك قيليقية أو أرمينية الصغرى وتسلم شهادة بأنه من أقيال الخان، كما دفعت الموصل لهم جزية سنوية[1].

ومعنى ذلك أن سلطة المغول في تلك الأيام انتشرت في أملاك الدولة الخوارزمية البائدة وفي آسيا الصغرى وفي شمالي الشام.

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 79-88.
و Howorth, I. p. 106.

(د) غارات المغول على أملاك الخلافه العباسية:

يجب ألا ننسى أن الخلافة العباسية لم تسلم من هجمات المغول في ذلك الوقت وأنهم منذ تخلصوا من جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢٨هـ أخذوا يشنون الغارات السنوية على العراق[١] وقد لاقى منهم المستنصر أكبر المتاعب واهتم بأمرهم غاية الاهتمام، فسير عدة رسل يستنجد الأشرف من مصر ويستنجد العربان وغيرهم، كما أخرج الأموال وأخذ يجمع الجند من جميع أجزاء بلاده لمناهضتهم. ولما غزوا آربل سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) - وكانت قد آلت إلى الخليفة منذ سنة ٦٣٠هـ بعد موت صاحبها مظفر الدين كوكبري ابن زين الدين كوجك علي - قتلوا كل من فيها وسبوا ونهبوا حتى نتنت من كثرة القتلى[٢]، ثم رحلوا عنها إلى الموصل، وتربصت لهم قوات الخليفة حتى عادوا وهزمتهم عند جبل حمرين واضطرتهم إلى ترك الأسرى الذين وقعوا في أيديهم عندما هاجموا أربل. ولكن هذا النصر لم يكن حاسمًا لأن المغول عادوا فانتصروا ثانية ثم ساروا شمالا[٣]. وقد غزا المغول العراق سنة ٦٣٥هـ ووصلوا حتى سامراء[٤].

---

(١) Richard Coke, baghdad, p. 135.

(٢) المقريزي- السلوك ج١، ص٢٤٢ والذهبي - دول الإسلام، ج٢، ص١٠٤، ٢٤٧و ٢٥٥.

(٣) الديار بكري - الخميس في أحوال أنفس نفيس ج٢، ص٤١٤.
و Cam. med. hist., IV, p. 636.

(٤) ابن العبرى، ص٤٣٨. و Muir, The Caliphate, p. 586.

وأفزعوا المستنصر واضطروه إلى إعلان الجهاد بعد أن جمع مجلسًا من العلماء وجعلهم يفتون بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله. وقد كان ذلك سببًا في سريان روح الحماس في بغداد حتى صار العلماء والكبراء يخرجون من بغداد إلى الصحراء يشجعون الجند في تدريبهم بل ويشاركونهم في هذا التدريب(١).

حتى قيل إنه استخدم من العساكر ما تزيد عدتها على مائة ألف إنسان وأنه استعان بالجند المرتزقة وأرسل إلى الملك الكامل مائة ألف دينار ليستخدم له بها العساكر فاستخدم له بضعفها وردها غير منقوصة، ثم أرسل له نجدة من لدنه تبلغ عشرة آلاف جندى، وكانت نتيجة أعماله هذه أن طرد المغول(٢).

وقد ظلت هجمات المغول على العراق العربي متوالية في الفترة التي أعقبت موت أجطاي وفي حكم كيوك القيصر، كما بلغ تقدم المغول في تلك الجهات أشده حتى أنه في سنة ٦٤٢هـ (١٢٥٤م) - التي اتخذ فيها الخليفة المستعصم مؤيد الدين محمد بن العلقمي أستاذ داره وزيرًا له - علم الناس في بغداد أن المغول دخلوا شهر زور وهي على مسيرة ثمانية أيام شمالي بغداد وخربوها واضطروا حاكمها من قبل الخليفة العباسي ملك الدين محمد بن صنقر إلى اللجوء إلى حصن منيع.

---

(١) D'Ohsson, III, p. 74.
Coke, Baghdad, p. 135.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٨٥ والديار بكري- الخميس، ج٢، ص٤١٤.
Muir, The Caliphate, p. 586 و.
Sayed, ameer Ali, A short hist., p. 393 و.

وفي سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٦م) تقدموا حتى بعقوبا، ولولا انتصار جيوش الخليفة بقيادة الدفتردار الصغير عليهم وصدها لهم لأضحوا خطراً كبيراً. كما أنهم في سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) تقدموا حتى دقوقاء وقتلوا حاكمها ووصلت طائفة منهم إلى بغداد نفسها وهاجمتها على حين غفلة من أهلها وقتلت عدداً كبيراً منهم ونهبت كثيراً من أقواتهم[١].

أما حكم مانجوخان الذي انتخب سنة ١٢٥١م فقد امتاز بتقدم المغول المطرد نحو العراق العربي، فقد دخلوا العراق العربي في السنة الثانية من حكمه (٦٥٠هـ -١٢٥٢م) وخربوا ديار بكر وميافارقين وتقدموا حتى رأس عين وسروج وقتلوا أكثر من عشرة آلاف شخص وأسروا مثل ذلك، كما أنهم هاجموا قافلة كبيرة كانت في طريقها من حران إلى بغداد وحصلوا منها على غنائم وافرة، من بينها ستمائة حمل من السكر وكثير من نسيج القطن المصري وستمائة ألف دينار.

(١)المقريزي-السلوك لمعرفة دول الملوك ج١،ص٣٢٠و٣٥٥والذهبي-دول الإسلام،ج٢، ص١١٣

وقتلوا الشيوخ والعجائز وساقوا النساء والصبيان معهم وعادوا بعد ذلك إلى خِلاط[1].

هذا إلى أن سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية كان في أيام ذلك الخان العظيم وذلك ما سنتكلم عنه في الباب الثالث.

(١) المقريزي–السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١،ص٣٨٢والذهبي، دول الإسلام ج٢، ص١١٩.
"يعقوبا بالفتح ثم السكون وضم القاف وسكون الواو والباء موحدة... قرية كبيرة... بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان... ودقوقاء بفتح أوله وضم ثانيه وبعد الواو قاف أخرى وألف ممدودة ومقصورة: مدينة بين أربل وبغداد... كان بها وقعة للخوارج.
وميافارقين مدينة بديار بكر.. ورأس عين ويقال رأس العين.. من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر.. وسروج فعول بلدة قريبة من حران من ديار مصر. وخلاط بكسر أوله. وهي قصبة أرمينية الوسطى". (راجع هذه الأسماء في معجم البلدان لياقوت).

الباب الثالث: الفتح المغولي للعراق

الفصل الأول

بغداد قبيل الفتح المغولي

١. طبوغرافية بغداد

أتم أبو جعفر المنصور بناء بغداد سنة ١٤٩هـ وكانت عبارة عن دائرة في مركزها قصر الذهب والمسجد الجامع تحيط بها منازل أبنائه ودواوين حكومته، ومحيطها أسوار ثلاثة من اللبن متعاقبة، بين الداخلي والأوسط مسافة عرضها ٥١٠ ياردات يسكنها الأتباع، وبين الأوسط والخارجي مسافة يبلغ اتساعها ٥٠ ياردة خالية. وكانت محاور هذه الدائرة شوارع أربعة في نهايتها أبواب كبيرة هى باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة[١].

(١) الطبري، ج٩، ص٢٣٠- ٢٣٢و ٢٣٩- ٢٤١.
والخطيب البغدادى ج١، ص٦٩- ٨٣. واليعقوبي، ص٢٣٩- ٢٥٤.

ومنذ أواخر عهد المنصور أخذت بغداد في الاتساع والنمو ولم تعد تقتصر على تلك الدائرة، ولم تؤثر في نموها تلك الحوادث التي نزلت بها كالنزاع الذي قام بين الأمين والمأمون وانتقال الخلفاء إلى سامراء ووقوع الخلافة تحت سيطرة بني بويه والسلاجقة، وأصبحت ثلاثة أقسام:

القسم الواقع على شاطئ دجلة الغربي ومن محلاته شارع دار الرقيق والحربية وباب البصرة والكرخ والمستشفى العضدي(١)،

والقسم الواقع على امتداد الجزء الشمالي من شاطئ دجلة الشرقي ومن محلاته الرصافة والشماسية والمخرم ومحلة القصور البويهية،

والقسم الواقع على امتداد الجزء الجنوبي من شاطئ دجلة الشرقي ويشمل حريم دار الخلافة الذي كان يحيط به سور ويوجد في داخله القصر الحسني وقصر التاج وقصر الفردوس(٢).

ومحلات العامة التي كان منها المأمونية وباب الأزج ومسعودة والريان والمقتدية وقراح ظفر والقاضي وابن رزين وأبي الشحم والتي أحاطها جميعها الخليفة المستظهر وابنه المسترشد بسور عظيم(٣).

وابن الأثيرج٥، ص٢٦٥و ٢٨٦. ومعجم البلدان ج٢، ص٢٣٠- ٢٣٦. وج٤ ص٢٥٤ وصبح الأعشى ج٤، ص٣٣٠ و27 -18 .Le Strange pp.

(١) البغدادي ج١، ص١١٩ ومعجم البلدان، ج٣، ص٢٥٤ و ٢٦٥ وج٥، ص٢١١ و ٢٩١وج ٧، ص٤٠٨و 306 -304 ,Le Strange, pp. 232.

(٢) البغدادي، ج١ ص٩٩ ومعجم البلدان ج٢، ص٣٤٨- ٣٥٠ وج٧، ص٣٦٩ وصبح الأعشى، ج٤، ص٣٣١. 254 -243 .Le Strange, pp.

(٣) ابن الأثير ج١٠، ص١٠٤و ٢٦٢ ومعجم البلدان ج٢، ص٣٤٩، وج٧، ص٤١و ٤٠٨. و 288 -284 .Le Strange, pp.

وعلى الرغم من أن القرن السادس الهجري شاهد استعادة الخلفاء العباسيين لسلطانهم بعد أن اغتصبه بنو بويه ثم السلاجقة أكثر من قرنين (٣٣٤- ٥٤٧هـ)، فإن أقسام بغداد المختلفة في إبانه وفي أوائل القرن السابع الذي تلاه فقدت كثيرًا من عمارتها بسبب كثرة القلاقل والمنازعات التي كانت تقوم بين سكان المحلات المختلفة أو فيضانات دجلة الكثيرة[١]، وقد أثبت ذلك ابن جبير في رحلته حيث قال:

"هذه المدينة العتيقة - إن لم تزل حاضرة الخلافة السياسية ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية - وقد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها، وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص"[٢].

ولو أننا أردنا أن نصف بغداد بأقسامها المختلفة عندما حاصرها هولاكو سنة ٩٥٦هـ لوجدنا أن هذه الأقسام: بغداد الشرقية الجديدة التي كان يقيم بها الخليفة المستعصم وحكومته والتي ركز المغول جهودهم لفتحها.

وجاء في معجم البلدان ج٧، ص٤١ "القراح بفتح أوله وتخفيف ثانيه وآخره جاء اصطلاح بغدادي فإنهم يسمون البستان قراحا.

(١) ابن الأثير، ج١٢، ص١٥٢- ١٥٣.

(٢) رحلة ابن جبير، ص١٩٦.

وقد كانت قصور الخلفاء في هذا القسم مختلفة عما كانت عليه في الماضي، فقصر الفردوس كان قد تهدم وزالت معالمه، والقصر الحسني القديم كان قد تهدم أيضًا ونشأت على أنقاضه منذ القرن الخامس الهجري قصور أخرى تهدمت بدورها ثم نشأت على أنقاضها المدرسة المستنصرية وقصر عرف باسم الريحانيين، كما أن قصر التاج القديم الذي وضع أساسه المعتضد وأكمله المكتفي تهدم ونشأ قصر آخر باسمه إلى الشمال منه. أي أن منطقة حريم دار الخلافة كانت في ذلك الوقت تتكون من الشمال إلى الجنوب من المدرسة المستنصرية على ساحل دجلة الشرقية وقصر الريحانيين بحذائها إلى الداخل ثم قصر التاج إلى الجنوب منهما، هذا عدا قصور أخرى وحدائق غناء. وكانت هذه القصور لا يزال يحيط بها سور يفصلها عن محلات العامة وإن كان هذا السور قد نقل إلى الجنوب من مكانه الأصلي، وكان حريم دار الخلافة في أيام ياقوت يشمل ثلث بغداد الشرقية الجديدة تقريبًا، كما كان له سور يتحيز به ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه إليها كهيئة نصف دائرة، وله عدة أبواب: أولها من جهة الغرب باب الغربة وهو قرب دجلة، ثم باب سوق التمر وهو باب شاهق البناء أغلق في أول أيام الخليفة الناصر لدين الله ابن المستضيء، ثم باب البدرية وعنده باب العتيقة التي تقبلها الرسل والملوك إذا قدموا بغداد، ثم باب العامة وهو باب عمورية أيضًا،

ثم يمتد قرابة ميل ليس فيه باب إلا باب بستان قرب المنظرة التي تنحر تحتها الضحايا، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو غلوتي سهم في شرقي الحريم[١] ولم نعلم بعد ذلك أنه لحق به تغيير كبير.

أما محلات العامة التي كانت توجد خارج سور حريم دار الخلافة - والتى سبق أن ذكرنا منها المأمونية وباب الأزج والريان ومسعودة والمقتدية وقراح ابن رزين وقراح أبي رزين وقراح أبي الشحم وقراح القاضي وقراح ظفر والمختارة - فقد لحقها كثير من التلف بسبب فيضان دجلة سنة ٥٥٤هـ ثم في سنة ٦١٤هـ ولكنها رغم ذلك ظلت عامرة. وقد ذكر ياقوت أن محلة الريان كانت من أعمر المحلات[٢]، كما ذكر أن المحلات الأربع التي كانت تسمى قراح ابن رزين وظفر والقاضي وأبي الشحم كانت لا تزال موجودة في أيامه ولو أنها كانت منفصلة عن بعضها البعض، وأن أبنيتها كانت جيدة وأنها كانت عامرة ومتسعة وفي كل منها مساجد وأسواق ودروب كثيرة، كما ذكر أن محلة أخرى هى محلة العجم كانت موجودة وأنها كانت أشبه بقرية قائمة بنفسها[٣].

(١) معجم البلدان، ج٣، ص٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٤١. و293 -Le strange, pp. 284.

ويجب ألا ننسى أن حريم دار الخلافة ومحلات العامة التي كانت في شرقها كانت جميعها داخل سور كبير بناه الخليفة المستظهر سنة ٤٨٨هـ ثم أصلحه وأعاد بناءه الخليفة المستضيء سنة ٥٦٠هـ. وكانت تتخلل هذا السور أبواب أربعة هي: باب السلطان في الشمال وباب الظفرية وباب الحلبة في الشرق وباب البصلية الذي ينسب إلى محلة البصلية في الجنوب ويسميه ياقوت باب كلواذي. وكانت على هذا السور أبراج قائمة للدفاع عن بغداد، منها برج العجم الذي اشتهر أثناء الحصار المغولي لبغداد وكان يقع عند تلاقي السور الشرقي بالسور الجنوبي[١].

وكان يلي بغداد الشرقية الجنوبية في الأهمية بغداد الغربية، وكان معظم محلاتها القديمة لا تزال عامرة، وإن كانت قد ضاقت رقعتها وتلاشت بعض محلاتها. ومن محلاتها العامرة في ذلك الوقت محلة الحربية وكانت في الشمال منفصلة عن غيرها من المحلات يحيط بها فضاء واسع من الخرائب والأتربة. وقد ذكر ياقوت أن الكثير منها كان قد تخرب في أيامه وأنها أصبحت حول باب حرب فقط، كما ذكر أنه كان يحيط بها سورها الخاص وكان لها مسجدها الجامع وأسواقها الكثيرة العامرة[٢].

---

(١) معجم البلدان، ج٢، ص٢١٠ ورحلة ابن جبير، ص٣٣١ و Le strange, pp. 278- 81.

(٢) معجم البلدان، ج٣، ص٢٤٥.

وإلى الجنوب من محلة الحربية كانت توجد محلة باب البصرة وكان بها جامع المنصور لا بحالته الأولى التي كان عليها حين بناه المنصور، بل بعد أن لحقت به تغيرات كثيرة؛ إذ هدمه الرشيد وبناه من الآجر، كما أن الخليفة المعتضد وسعه بإضافة جزء من قصر الذهب إليه. وكانت محلة باب البصرة هذه مركزا لأهل السنة. وعلى بعد نصف ميل من محلة باب البصرة كانت توجد محلة الكرخ، وكانت مركز الشيعة كما أنها كانت قد تقلصت عما كانت عليه فيما مضى(١)، وكانت – حين كتب ياقوت كتابه - أهم محلات بغداد الغربية محلة القرية التي كانت محتفظة بمسجدها الجامع وأسوارها(٢). وكانت بجانب هذه المحلات الكبيرة محلات أخرى أقل منها أهمية مثل محلة باب المحول التي كانت توجد إلى الجنوب الغربي من الكرخ، وأصبحت في أيام ياقوت منفردة كالقرية المنفصلة ذات جامع وسوق مستغنية بنفسها(٣). ومحلات دار القز والناصرية والعتابية، وكانت توجد إلى الجنوب الغربي من محلة الحربية وسط خرائب واسعة. ومحلة الكاظمية وكانت توجد في أقصى الشمال من بغداد الغربية حول قبر الإمام موسى الكاظم(٤).

---

(١) معجم البلدان، ج٧، ص٢٣٣– ٣٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٧٦– ٧٧.
(٣) معجم البلدان، ج٢، ص٢١– ٢٢.
(٤) Le Strange, pp. 126– 137, 162, 334, 337.

وكانت بغداد الغربية قبيل حصار هولاكو لها تتصل ببغداد الشرقية الجنوبية بجسرين. وقد ذكر صاحب الفخري أن الخليفة الظاهر أعاد في سنة ٦٢٢هـ جسرًا كان فيضان دجلة قد أزاله[١]، كما ذكر ابن العبري أن الظاهر بن الناصر عقد لبغداد جسرًا ثانيًا عظيمًا جديدًا وأنفق عليه مالا كثيرًا فصار في بغداد على دجلتها جسران[٢].

وسواء أكان الظاهر قد عقد جسرا جديدا على ما ذكره ابن العبري أو أنه أعاد جسرًا قديمًا كان قد أزاله فيضان دجلة على ما ذكره صاحب الفخري، فإن بغداد الغربية والشرقية كانتا تتصلان بجسرين. ولم تكن بغداد الشرقية القديمة أو بغداد الرصافة ذات أهمية كبيرة في ذلك الوقت، ولم يكن باقيًا منها إلا المحلة التي كانت قد تكونت حول قبر أبي حنيفة، كما كان إلى الجنوب منها مسجد الرصافة وحوله قبور الخلفاء العباسيين، كما كانت إلى الشرق منها محلة دار الروم التي كان يقيم بها النصارى الذين يعتنقون المذهب النسطوري[٣].

(١) الفخري، ص٢٤٢.
(٢) ابن العبري، ص٤٢٣.
(٣) Le Strange, p. 338.

٢. حكم المستعصم ببغداد

(أ) أخلاقه وصفاته:

تولى المستعصم الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٠هـ وكانت مدة خلافته خمسة عشر عامًا وثمانية أشهر وأيامًا. وقد ذكر المؤرخون أنه كان تقيا ورعًا متمسكا بمذهب أهل السنة والجماعة على ما كان عليه والده وجده[١] كما ذكروا أمثلة تبين رقته ولطف حسه، منها عدم سيره على طريقة من سبقه من الخلفاء في حبس أولادهم مدة خلافتهم، ومنها أنه دخل خزانة الكتب ووجد خويدمًا نائما فانسحب وأمر بإيقاظه برفق وهو بعيد حتى لا يذعر[٢]. ولكنهم في الوقت نفسه لم يضنوا علينا بإظهار صفاته السيئة التي لا تؤهله للحكم والتي تنذر بفشله المريع في إدارة شئون البلاد. ومما ذكروه في هذا الصدد أنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك عديم اليقظة كثير الغفلة قليل البطش، محبا للهو يقضي أكثر أوقاته في سماع الأغاني والتفرج على المساخر[٣].

---

(١) ابن شاكر- فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٧.

(٢) الفخري، ص٢٤٥.

(٣) أبو الفدا- المختصر في أخبار البشر، ج٣ ص١٧٦ وابن شاكر- فوات الوفيات، ج١ ص٢٣٧ والفخري، ص٢٤٤ وابن العبري، ص٤٤٥- ٤٤٦ والسيوطي تاريخ الخلفاء، ص١٨٥ والديار بكري - الخميس ج٢، ص٤٢٠.

هذا إلى أنه كان بخيلا لدرجة الشح. يدل على ذلك أن الملك الناصر داود صاحب الكرك على أثر نزاع بينه وبين الناصر يوسف صاحب حلب ترك بلده وذهب إلى الخليفة المستعصم ليستعين به في مصيبته فأودع لديه وديعة من الجواهر تبلغ قيمتها ما ينيف على مائة ألف دينار[١] على أمل استردادها عند تحسن الأحوال، ولما تحسن حاله وطلبها من الخليفة أخذ يماطله، ولما ألح عليه "أرسل من حاسبه على ما وصله في ترداده إلى بغداد من المضيف مثل اللحم والخبز والحطب والعليف والتبين وغير ذلك، وثمن عليه ذلك بأغلى الأثمان وأرسل إليه شيئا نزرًا، وألزمه أن يكتب بخطه بقبض وديعته وأنه ما بقي يستحق عند الخليفة شيئا. فكتب خطه بذلك كرها وسار عن بغداد"[٢].

وقد انتقد صاحب فوات الوفيات الخليفة المستعصم فقال: "ولو لم يكن فيه إلا ما فعله مع الملك الناصر داود في أمر الوديعة لكفاه عارًا وشنارًا. والله لو كان الناصر من بعض الشعراء وقد قصده وتردد عليه على بعد المسافة ومدحه بعدة قصائد، كان يتعين عليه أن ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته من ماله، فقد كان من أجداد المستعصم بالله من استفاد منه آحاد الشعراء أكثر من ذلك"[٣].

(١) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ص٣٣٧- ٣٣٨.
(٢) أبو الفدا ج٣، ص٣٠٠.
(٣) فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٧.

كما أن السيوطي رماه بالضعف وحقره كل التحقير فقال عند كلامه على الخليفة المستنصر: "وكان له (أي المستنصر) أخ يقال له الخفاجي فيه شهامة زائدة وكان يقول، لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون وآخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم. فلما مات المستنصر لم ير الدويدار ولا الشرابي تقليد الخفاجي خوفا منه وأقاما ابنه أبا أحمد للينه وضعف رأيه ليكون لهما الأمر؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولا من هلاك المسلمين في مدته وتغلّب التتار"[1]. ولم ينس ابن طباطبا أن ينال منه كما نال من غيره، بل وحاول أن يكون أوسع منهم خطى في هذا السبيل فانتقض من عمله ما يشتم منه البعض فائدة ما وذلك في قوله: "وكان يجلس بخزانة الكتب جلوسًا ليس فيه كبير فائدة"[2]. ولكنهم جميعًا كانوا سطحيين في نقدهم، ولم يهتم صاحب فوات الوفيات بغير الناحية الخلقية التي يتجه إليها مؤرخو العرب دائما في كلامهم.

(١) السيوطي- تاريخ الخلفاء، ص١٨٥.
(٢) الفخري، ص٢٤٤.

(ب) الحالة الداخلية في عهده:

ازدادت حالة العراق الداخلية في عهد المستعصم سوءا، بسبب ضعف الخليفة وما اجتمع فيه من الصفات السيئة التي جرّت عليه وعلى بغداد كثيراً من الويلات وانتهت بقتله والقضاء على نفوذ أسرته. فقد كانت قلة معرفة المستعصم بتدبير الملك وانصرافه عن إدارة شئون البلاد وضعف إرادته سبباً في استخفاف أعوانه به وطمعهم فيه وعملهم على الاستئثار بالسلطة دونه، ثم أدى ذلك إلى تنازعهم فيما بينهم وانصرافهم عن شئون الحكم، ومن هنا كان استهتار العامة بالحكومة وكثرة الفتن وتفشي القلاقل ببغداد. كما أن بخله كان سبباً في إضعاف الجيش. وسنتناول فيما يلي شرح النزاع بين الرؤساء في بغداد في أيام المستعصم ثم ضعف الجيش وبعد ذلك اضطراب الأمن في بغداد.

١. **النزاع بين الرؤساء:**

عند موت الخليفة المستنصر سنة ٦٤٠هـ، اتفق الدفتردار الصغير أيبك وكان رجلا كبير المطامع مع الشرابي على اختيار ابنه أبي أحمد بدلا منه، وذلك لما يعرفه فيه من الضعف والانصراف إلى اللهو وحتى تتهيأ له الفرصة لتوسيع سلطته والاستئثار بتصريف الأمور. وقد تمكن من تنفيذ رغبته هذه، وتولى أبو أحمد الخلافة باسم المستعصم.

كما أبعد عمه الخفاجي عنها وكان رجلا قوي الشكيمة[1]. وقد سارت الأمور كما يشتهي الدفتردار سنتين استوزر فيهما المستعصم نصير الدين أحمد بن الناقد وزير أبيه. فلما استوزر بعد ذلك مؤيد الدين محمد بن العلقمي سنة ٦٤٢هـ تغيرت الحال لأنه ترك لهذا الوزير الأمور كلها يديرها كما يشاء[2] كما أن هذا كان كبير المطامع فتدخل في كل صغيرة وكبيرة وتعرضت بذلك سلطة الدفتردار للضياع.

غضب الدفتردار لسلطته المهددة وبدأ التنافس يشتد بينه وبين الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي. ولما كان الخليفة يحب وزيره فقد رأى الدفتردار أن خير طريقة لإبعاد الوزير هي الإرهاب، وقد سلك لهذا الغرض طريقًا غير شريف فجمع حوله كثيرا من العيارين وأخذ يهدد الأمن، ولما أعيته الحيل أخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة وإقامة آخر مكانه. أما الوزير، فقد كان يقظًا لم تفته أعمال الدفتردار وحاول أن يقضي عليها، فأعلم الخليفة بها وطلب منه أن يقضي على مدبريها، وهكذا صرنا نرى الاثنين يواجه كل منهما الآخر.

وقد كان النجاح حليف الدفتردار لأن الخليفة خاف من مؤامراته ودخل الرعب إلى قلبه حين رأى أتباعه الكثرين من العيارين.

---

(١) السيوطي- تاريخ الخلفاء، ص١٨٥.

(٢) الفخري، ص٢٤٧.

ولذلك استدعاه إليه وأخبره بما نقله إليه الوزير وأكد له أن ثقته منوطة به، وأنه لا يسمع ما يقال عنه. ولم يفعل ذلك فحسب بل عندما رأى الدفتردار بعد ذلك يعاود خطته الأولى ويجمع أعوانه ويستعد لمهاجمته كتب بيده إقرارًا ذكر فيه أنه يعتقد أن كل ما قيل عنه من قبيل المكائد والأكاذيب وأن ثقته فيه تامة، كما أعطاه أمانا تامًا ثم أحضره إليه وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة وتخلى عن الوزير ابن العلقمي(١).

ويلاحظ أن الخلاف بين الوزير والدفتردار قد جر البلاء العظيم على بغداد، وذلك لأن الدفتردار عندما كان في أول الأمر بعيدًا عن الخليفة كان يجمع حوله العيارين الذين يعيثون فيها فسادًا والذين نشروا الفوضى في ربوعها حتى مل أهلها حكومة العباسيين(٢). كما أنه بعد أن أصبح الأمر له وقربه الخليفة إليه واستراح أهل بغداد من شر العيارين الذين كانوا يدبرون المؤامرات ويزعزعون الأمن، حنق الوزير مؤيد الدين محمد بن العقلمي لفقد سلطته وانتصار منافسه عليه وأصبح يتحين الفرص لاسترداد سلطته أو الثأر لنفسه، فلما هاجم المغول بغداد لم يخلص في الدفاع عنها.

(١) Quatremere (Trad), Histoire des Mongols, pp. 227- 229 .

(٢) Quatremere, p. 229.

٢. **ضعف الجيش:**

لم يكن الجيش العباسي في أيام الخلفاء العباسيين المتأخرين قوياً بمعنى الكلمة. وقد رأينا كيف أن الخلافة في أيام الخليفة الناصر لم تعتمد عليه في القضاء على سلاجقة فارس، كما أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الجيوش الخوارزمية في أيام الناصر والمستنصر. ولكنه كان على كل حال قوة ثانوية وانتصر انتصارات لا بأس بها فقضى على بعض الخارجين في الداخل، كما انتصر في خوزستان على جيوش خوارزمية صغيرة وصد غارات مغولية متعددة.

وفى أوائل حكم الخليفة المستعصم ظل الجيش العباسي على حاله هذه وانتصر في سنة ٦٤٣هـ على المغول عند بعقوبا من أعمال بغداد[١]. ولكنه بعد ذلك أخذ في الضعف شيئا فشيئا. ويرجع هذا الضعف إلى أسباب متعددة منها أن المستعصم كان بخيلا جداً محباً لجمع المال فلم ينفق على الجيش اللازم.

وقد وبخه على عمله هذا عدوه هولاكو بعد أن وقع في يده، فقد ذكروا أنه عندما استحوذ على ما كان لديه من الكنوز، أمر بأن يقدم للخليفة من هذه الكنوز طعام، ولما قال له الخليفة إن الكنوز لا تزيل جوعاً، رد عليه بقوله: "إذا كانت الكنوز لا تسد الرمق وإذا كانت لا تحفظ الحياة، فلماذا لم تعطها لجنودك ليحموك أو إلى جنودي ليسالموك؟"[٢].

---

(١) الديار بكري ج٢، ص٤١٥ وأبو الفدا ج٣، ص١٨٣.

(٢) Oshorn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 400.

أضف إلى ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمي بعد أن رأى نفوذه قد ولى وأن الخليفة مال إلى أيبك الدفتردار الصغير دونه وأن هولاكو مُقبل على بغداد بجيشه المظفر، أخذ يفكر في عمل شيء يستدر به عطف الفاتح، فأمر بتسريح جيش الخلافة. وسواء أكان ذلك قد تم بعد أن أقنع ابن العلقمي الخليفة بأن الأمراء المسلمين التابعين له كثيرون وأنهم إذا ما حاق الخطر بالبلاد مستعدون للدفاع عنها بجيوشهم[١] أم بعد أن أقنعه بأن الجيش يتكلف كثيرًا من المال وأن الأفضل أن يسترضي المغول بالمال المتوافر من تسريحه[٢]، فإن جيش الخلافة بعد أن كان في أواخر أيام المستنصر وأول أيام المستعصم يبلغ مائة ألف فارس، صار دون العشرين ألفا[٣].

٣. اضطراب الأمن في بغداد:

"جعلت المنازعات بين الأحناف والحنابلة الذين كانوا مصدر اضطراب لبغداد وبين أهل السنة والشيعة الذين كانوا يسكنون ضاحية الكرخ الغربية، ومعظم المعارك بين الرعاع والطبقات الغنية - حياة المستعصم عبئا ثقيلا"[٤].

---

(١) Howorth, Vol. I, p. 197.

(٢) أبو الفدا ج٣، ص٢٠٢ والديار بكري ج٢، ص٤٢٠ وابن خلدون ج٥، ص٥٤٢.

(٣) أبو الفدا – المختصر في أخبار البشر ج٣، ص٢٠٢.

(٤) Sayed Ameer Ail, A short History of the saracens, p. 396.

أما المعارك بين أهل السنة والشيعة، فقد كانت لا تنقطع قبل أيام المستعصم لما بين الفريقين من حزازات وإحن كانت تنفجر لأوهى الأسباب، غير أنها كثرت كثرة مزعجة في أيام المستعصم. وقد تكون الفتنة التي وقعت بين الفريقين سنة ٦٥٥هـ من أهم هذه المعارك؛ لأنها امتازت عما عداها بتدخل عسكر الخليفة فيها وانتصاره لأهل السنة. وقد ذكروا أن أبا بكر ابن الخليفة وركن الدين الدويدار أمرا العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا أعراض النساء وركبوا منهن الفواحش وقتلوا كثيرًا من الرجال[١]، أضف إلى ذلك أن هذه الفتنة كانت السبب المباشر الذي جعل الشيعة يقفون موقف العداء للعباسيين عندما هاجم المغول بغداد على ما سنرى.

ولم تكن المنازعات الطائفية هى وحدها السبب في اضطراب الأمن في بغداد، بل إن المنافسة بين الرؤساء كانت في وقت من الأوقات من أكبر العوامل التي أدت إلى هذا الاضطراب، وذلك حين كان أعوان الدفتردار الصغير من العيارين يهاجمون الأبرياء ويقبضون عليهم ويملأون جو بغداد بفظائعهم وحشة ورهبة، وقد بلغ من أمرهم أن الخليفة المستعصم فزع منهم وأمر فخر الدين الدامغاني رئيس الإدارة باتخاذ ما يلزم للقضاء عليهم[١].

(١) أبو الفدا ج٣، ص٢٠٢ والديار بكري، ج٢، ص٤٢٠، وتاريخ ابن خلدون ج٥، ث٥٤٢. .
(١) Quatremere, pp. 227- 229.

ولم يكن إرضاء الدفتردار طبعا بتقريبه إلى الخليفة قاضياً على مشاغباتهم مرة واحدة بل لا بد أنهم وقد تشبعوا بروح الفوضى مدة من الزمن كانوا يهددون الأمن بين حين وآخر.

(ج) الحالة الخارجية:

ظلت الخلافة في عهد الخليفة المستعصم محتفظة بما كان لها من علاقات طيبة مع الدول الإسلامية وبما كان لها في نفوس المسلمين من احترام وقدسية. غير أنه وقد ضاقت رقعة العالم الإسلامي بعد زوال دولة السلاجقة في فارس والدولة الخوارزمية كما سبق أن ذكرنا، انحصرت علاقات الخلافة وأصبحنا لا نكاد نعثر في ثنايا الكتب على غير ما كان بين الخليفة المستعصم والأيوبيين ثم ما كان بينه وبين المماليك الذين خلفوهم على عرش مصر من علاقات. هذا وسنتناول فيما يلي الكلام عن حالة العالم الإسلامي في الفترة ما بين سنتي ٦٤٠ و٦٥٦هـ ثم بعد ذلك نبين علاقات الخلافة بالأيوبيين ثم بالمماليك.

١. العالم الإسلامي:

طرأ على العالم الإسلامي في تلك الفترة كثير من الأحداث وجرت به كثير من التغيرات أدت جميعها إلى إضعافه وفل شوكته، وإننا لا نكاد نعثر على دولة من بين دوله قوية الجانب نافذة السلطان، بل إننا لا نكاد نجد واحدة من بين هذه الدول لا يتغلغل فيها النفوذ المغولي ولا يخيفها شبح المغول.

(أ) **مصر:**

كان الحكم في مصر في ذلك الوقت للأيوبيين أولا ثم بعد ذلك للمماليك، أي أن نظامه لم يكن مستقراً. وقد حكم من الأيوبيين نجم الدين أيوب من سنة ٦٣٧هـ حتى سنة ٦٤٧هـ وكان قوي الشكيمة تمكن من الاحتفاظ بمركزه في مصر والشام، على الرغم من أن الفرنجة هاجموا مصر في آخر أيامه. وبعد موته استدعى المماليك البحرية - الذين كان الصالح نجم الدين قد استكثر منهم في جيشه - ابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا؛ ليخلف أباه وليقف أمام الفرنجة[١]. على أن حكم الملك المعظم توران شاه لم يطل؛ لأنه بعد أن انتصر على الفرنجة أخذ يعتدي على المماليك البحرية فأوجسوا منه خيفة وقتلوه سنة ٦٤٨هـ ثم ولّوا شجرة الدر[٢] حكم البلاد - وكانت أرملة الصالح أيوب - كما جعلوا عز الدين أيبك التركماني مقدم العسكر، وبذلك انتهى عهد الأيوبيين في مصر[٣]. بدأ عهد المماليك في مصر منذ قتل الملك المعظم على أن الأمور لم تستقر لهم فيها إلا بعد مدة طويلة. وكانت المدة الباقية من الفترة التي نتكلم عنها - أي من سنة ٦٤٨هـ حتى سنة ٦٥٦هـ - تسودها الاضطرابات والفتن.

---

(١) المقريزي- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٣٣٣- ٣٥١ وابن العبري، ص٤٥٢- ٤٥٥. و Lane- poole, The Muhammadan, Dynaties, pp. 77- 78

(٢) ذكرها المقريزي في أكثر من موضع شجر الدر، ولم يذكرها شجرة الدر على ما هو مشهور.

(٣) المقريزي- السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ص٣٥١- ٣٦٢.

فقد تزوج أيبك التركماني من شجرة الدر في ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ ثم خلعت شجرة الدر من الملك بعد أن حكمت نحو ثمانين يومًا، وأصبح عز الدين أيبك التركماني في المُلك ولُقّب بالملك المعز في آخر شهر ربيع الآخر. وبعد ذلك أشرك المماليك مع الملك المعز أحد أفراد أسرة بني أيوب وهو الملك الأشرف موسى ابن الملك الناصر يوسف؛ حتى يجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله وذلك في ٣ جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـ.

كما أن المماليك في يوم ٦ جمادى الأولى نادوا في القاهرة بأن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن الملك المعز نائبه بها. وبعد ذلك صار الأمر للملك المعز والأشرف ثانية. ثم في سنة ٦٥٠هـ أزيل اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وانفرد الملك المعز باسم السلطنة. وفي سنة ٦٥٥هـ، قُتِل الملك المعز بتدبير شجرة الدر وتولى بعده ابنه الملك المنصور نور الدين علي وعمره خمس عشرة سنة تقريبًا، وظل في الملك سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام حتى قبض عليه الأمير سيف الدين قطز يوم السبت ١٤ من ذي القعدة سنة ٦٥٧. وقصارى القول، إن هذه الفترة كانت فترة[١] مضطربة لا يتوافر فيها شيء من الاستقرار وتتوالى فيها الحوادث سراعًا.

---

(١) المقريزي- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٣٦٩- ٤١٧.
و Lane- poole, The Muhammadan Dynasties, p. 81.

(ب) بلاد الشام:

تمكن الأيوبيون في هذه الفترة من الاحتفاظ بنفوذهم في الشام، ذلك أن الناصر صلاح الدين يوسف الذي أصبح صاحب حلب منذ سنة ٦٣٤هـ بعد أن قتل المماليك البحرية الملك المعظم توران شاه في مصر سنة ٦٤٨هـ - استولى على دمشق في نفس السنة، ثم حاول بعد ذلك عدة مرات أن يستولي على مصر ولكن جيوش المماليك صدته. على أن قوة الناصر يوسف لم تكن كبيرة، كما أنه كان يهاب المغول، يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزي عند كلامه على سنة ٦٤٨هـ حيث قال: "وفيها وصل إلى الملك الناصر من قبل القان ملك التتر طمغا (براءة) صورة أمان فصار يحملها في حياصته (حزامه) وسير إلى القان هدايا كثيرة"[١].

أضف إلى ذلك ما كان من إرساله ابنه الملك العزيز إلى هلاكو سنة ٦٥٦هـ ومعه الهدايا وطلب منه نجدة ضد المماليك[٢].

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ص٣٧٩.
(٢) المقريزي: السلوك ج١، ص٣٧٠- ٤١١ وابن العبري، ص٤٥٦و ٤٠٢- ٤٩٠.
و Lane- poole, The Muhammadan Dynadties, p. 78.

(ج) آسيا الصغرى:

سبق أن ذكرنا أن المغول هزموا غياث الدين كيخسرو سلطان الروم السلاجقة سنة ٦٤٠هـ واضطروه إلى دفع جزية سنوية. وقد مات غياث الدين سنة ٦٤٣هـ وخلفه على العرش ابنه الأكبر عز الدين كيكاوس الثاني وبدأت بذلك فترة كلها منازعات واضطرابات زادت في ضعف دولة الروم السلاجقة وخضوعها للمغول. ذلك أن غياث الدين كان له ولدان آخران غير عز الدين أحدهما علاء الدين والثاني ركن الدين لم يرضيا بانفراد عز الدين بالسلطة دونهما. وكان أول الخارجين على عز الدين أخوه ركن الدين الذي سار إلى الخان المغولي كيوك وطلب معونته وكان من أثر ذلك أن اقتسم البلاد مع عز الدين. على أن الأمر لم يستقر بذلك وتجدد النزاع بين الأخوين وانتصر عز الدين على ركن الدين وأسره وحبسه. وقد كان من المصادفات أن وصل في ذلك الوقت القائد المغولي بيجونويان إلى آسيا الصغرى بأمر الخان مانجو ليقوم بأعمال الفتح والتوسع، فطلب من عز الدين أن يقدم له ولجنوده مشتى (سنة ٦٥٤هـ). ولما لم يجب عز الدين القائد المغولي إلى طلبه قامت الحرب بينهما وانتهت بهزيمة عز الدين وفراره إلى الإمبراطور البيزنطي الأشكري Theodore II Lascaris في نيقية فأخرج بيجونويان ركن الدين من سجنه وولاه السلطنة في نفس هذه السنة (٦٥٤هـ).

وقد تبع ذلك رحيل المغول عن البلاد ورجوع عز الدين إلى قونية وقيام النزاع بين الأخوين مدة خربت فيها بلاد سلطنة الروم، ولم ينته إلا في سنة ٦٥٦هـ، حين اتفق الأخوان على جعل نهر قزل أرمق حدًا فاصلا بين أملاكهما. على أن عز الدين وأخاه أرادا أن يعطيا هذا الاتفاق صفة عملية؛ فذهبا إلى هولاكو وهو بهمذان بعد أن ترك بغداد بقليل وحصلا على موافقته[1].

(د) **بلاد الجزيرة:**

لم يكن في بلاد الجزيرة في ذلك الوقت (٦٤٠ - ٦٥٦هـ) قوة إسلامية كبيرة، فقد زال الفرع الأيوبي الذي كان فيها سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥هـ) حين قضى المغول على مظفر الدين غازي، كما أن قوة مظفر الدين كوكبري صاحب أربل انتهت بموته سنة ٦٣٠هـ وأصبحت أربل من بعده خاضعة لنواب الخليفة العباسي.

ولم يبق هناك إلا أتابكية الموصل التي كانت قد آلت إلى بدر الدين لؤلؤ خادم أسرة زنكي ووزير عدة أفراد منها بعد موت ناصر الدين محمود بن القاهر بن نور الدين ووصول التقليد بولايته إياها من الخليفه سنة ٦٣١هـ،

---

(١) ابن العبري، ص٤٤٦- ٤٦٨.
و Lane- poole, The Muhammadan Dynasties. p. 155.
و Cambrirge Medieval History Vol. IV, pp. 503- 510 .
و Encyc Of Islam Arts, Kaika'u II, Kilig Arslan IV.

وظل بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر في الموصل طوال خلافة المستعصم لا يشاركه في ذلك إنسان، بل إنه ملك جزيرة ابن عمر التي كانت تقع على دجلة شمالي الموصل من صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من سلالة أتابك زنكي وأمر بإغراقه.

على أن ذلك ليس معناه أن قوة بدر الدين لؤلؤ بلغت الذروة، إذ إنه كان يخاف المغول ويهابهم حتى أننا نراه يرسل ابنه إسماعيل بالهدايا إلى هولاكو وهو بهمذان على أثر انتهائه من فتح بغداد ثم يذهب بنفسه بعد ذلك ليقدم له الخضوع[1].

(٥) الإسماعيلية:

لم يكن "الإسماعيلية" أحسن حالا من غيرهم من المسلمين، ذلك أنه بعد موت رئيسهم جلال الدين حسن سنة ٦١٨هـ ترك خلَفُه علاء الدين محمد (٦١٨ - ٦٥٣هـ) سياسة الرجوع إلى أحكام الإسلام ومصادقة المسلمين وسار تبعًا لعقائد الإسماعيلية التي تبيح التمتع بالملذات والبعد عن أحكام الإسلام. هذا إلا أنه أصيب بمرض عقلي وأصبحت أوامره ونواهيه بعيدة عن جادة الصواب واضطربت شئون طائفته واعتلت إدارة حكومته حتى كثر اللصوص في أملاكه.

---

(١) المقريزي ج١، ص٢٤٧ وابن العبري، ص٤٣٥و ٤٥٦و ٤٨٢.
و Lane- poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 77, 162-163.

وبعد موته سنة ٦٥٣هـ خلفه ابنه ركن الدين خورشاه الذي يقال إنه حرض على قتل أبيه فسار سيرة سيئة وارتكب كثيرًا من المظالم ونزع إلى الاستبداد وانتهى أمره بقضاء المغول عليه وعلى طائفته سنة ٦٥٥هـ [١].

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 174, 186- 187.
Quatremere, p. 185.

٣. علاقة الدول الإسلامية بالخلافة في أيام المستعصم

تكاد العلاقات بين الخلافة العباسية في أيام المستعصم (٦٤٠-٦٥٦هـ) وبين العالم الإسلامي تنحصر فيما كان بينه وبين أمراء بني أيوب في مصر والشام ثم بينهم وبين المماليك في مصر بعد زوال سلطان الأيوبيين منها بقتل الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨هـ. وليس العيب في هذا راجعًا إلى الخليفة المستعصم، بل إنني لا أستبعد أن يكون هذا الخليفة قد فكر في السير على طريقة الخليفة الناصر (٥٧٥- ٦٢٢هـ =١١٨٠- ١٢٢٥م) ومالت نفسه إلى نشر نفوذ الخلافة على العالم الإسلامي ولكن الظروف لم تساعده على تنفيذ فكرته. إذ كان الإسماعيلية قد عادوا إلى معاداة العالم الإسلامي كما كانت الأمور في دولة الروم السلاجقة تتحرك بالأصابع المغولية، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لا يجرؤ على السير في طريق غير طريق المغول.

ولا يبعد أن يكون الخليفة المستعصم قد تعلق - حين رأى المغول يغيرون على بلاده مرة بعد أخرى ويصبحون المحركين للأمور في دولة الروم السلاجقة - بآخر خيط من خيوط النجاة وأراد أن يحافظ على الحكومات الإسلامية التي كانت في مصر والشام؛ حتى تمد له يد المساعدة حين يشتد به الخطر المغولي،

كما لا يبعد أيضًا أن يكون هذا هو السبب الذي من أجله نرى الخليفة يقوم بمحاولات عدة للتوفيق بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام من جهة، وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم الملك المعز أيبك في مصر من جهة أخرى. فقد أرسل الخليفة المستعصم سنة ٦٤٦هـ الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن بن أبي سعد البادرائي لعقد الصلح بين الملك الناصر يوسف - وكان في ذلك الوقت صاحب حلب فقط - وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب على أثر استيلاء الناصر على حمص من صاحبها الأشرف، ثم سير الصالح نجم الدين أيوب من مصر إلى دمشق وإرساله الجيوش لمحاصرة حمص واستردادها من الملك الناصر، ونجح الرسول في مهمته وتقرر الصلح.

كما أن الخليفة أرسل رسوله هذا سنة ٦٥٠هـ إلى مصر للإصلاح بين الملك المعز أيبك والملك الناصر يوسف، وكان في ذلك الوقت قد أصبح صاحب دمشق وحلب معًا على أثر ما كان من سير الملك الناصر سنة ٦٤٨هـ إلى مصر ومعه كثير من أمراء بني أيوب بغية الاستيلاء عليها وملاقاة الملك المعز له ثم انتصاره عليه واضطراره إلى العودة إلى بلاد الشام. وقد نجح الرسول أيضًا في تقرير الصلح بين الملكين سنة ٦٥١هـ.

وأرسل الخليفة الرسول نفسه مرة ثالثة سنة ٦٥٤هـ لتجديد الصلح بين الملك الناصر والملك المعز على أثر ما كان من تسيير الناصر العساكر سنة ٦٥٣هـ ومعهم بعض المماليك البحرية الذين كانوا قد تركوا مصر عندما قتل الملك المعز الأمير أقطاي خوفا من ازدياد نفوذه سنة ٦٥٢هـ، ونجح الرسول أيضًا كعادته في عقد الصلح[١].

ويرجع نجاح الخليفة المستعصم في محاولته التوفيق بين مصر والشام في ذلك الوقت إلى أن الأيوبيين سواء في مصر أو في الشام كانوا يسيرون على طريقة من سبقوهم من حيث احترام الخليفة العباسي وتلقي الخلَع منه.

وهكذا كان يفعل المماليك حين أصبح لهم الأمر في مصر. فقد بعث الخليفة المستعصم سنة ٦٤٢هـ جمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين بن الجوزي إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ومعه الخلع التي كانت تتكون من عمامة سوداء وفرجية مذهبة وثوبين من ذهب وسيف مذهب وطوق ذهب وعلمين من حرير وحصان فلبسها الملك نجم الدين أيوب[٢].

(١) المقريزي- السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ص٣٣٠- ٣٣١ و ٢٨٢- ٣٨٦و ٣٩٧.
(٢) المقريزي- السلوك ج١، ص٣١٩.

كذلك بعث الخليفة المستعصم ابن الجوزي مرة أخرى إلى الملك الصالح سنة ٦٤٣هـ "ومعه التقليد والتشريف الأسود وهو عمامة سوداء وجبة وطوق ذهب وفرس بمركوب بحلية ذهب، ونصب المنبر وصعد عليه الرسول وقرأ التقليد في الدهليز السلطاني والسلطان قائم على قدميه حتى فرغ من القراءة ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفتي[١]" ولم ينس الصالح أيوب ذلك من الخليفة المستعصم، فلما حضرته الوفاة سنة ٦٤٧هـ لم يعهد إلى أحد بالملك، بل قال: "إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ليرى فيها رأيه"[٢].

ولم يحد المماليك عن طريق احترام الخلافة العباسية والإخلاص لها في ذلك العهد، فلما قتلوا الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨هـ وتركوا جثته في المنصورة على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يدفنوه شفع فيه رسول الخليفة فقبلوا شفاعته ودفنوه[٣].

هذا إلى أنهم عندما وضعوا على عرش مصر شجرة الدر بعد قتل الملك المعظم تورانشاه ولم يرض عن عملهم الخليفة المستعصم وأرسل إليهم كتابا ينكر عليهم فيه تعيين امرأة ويقول: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا"، تقبلوا نصيحته وعزلوا شجرة الدر عن الحكم وعينوا عز الدين أيبك التركماني في الملك ولقبوه بالملك المعز، وذلك في أواخر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٦٠.
(٤) المقريزي- السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ص٣٦٩.

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد، بل إنهم في يوم الأحد ٦ جمادى الأولى نادوا في القاهرة ومصر بأن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن الملك المعز أيبك نائبه بها[١]. وفي سنة ٦٥٤هـ عندما أتم الشيخ نجم الدين البادرائي رسول الخليفة تجديد الصلح بين الملك المعز والملك الناصر يوسف صاحب الشام، أرسل الملك المعز بصحبته الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولا إلى الخليفة ببغداد يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر[٢].

على أن الخليفة المستعصم إذا كان قد نجح في وضع نفسه في موضع الحكم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك الصالح أيوب ثم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك المعز أيبك، وإذا كان قد نجح أيضًا في الاحتفاظ للخلافة بالاحترام في مصر والشام وجعل حكامهما يلتمسون خلع الخلافة وتقاليدها، فإن نجاحه لم يكن عظيمًا لأن الملك الناصر لم يكن شديد القوى كما أن المماليك لم يكونوا قد استقروا بعد في الحكم على ما تقدم.

(١) المصدر نفسه، ص٣٧٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٩٨.

الفصل الثانى

حملة هولاكو

١. إعداد الحملة

رأينا فيما تقدم أن المغول في أيام جنكيز خان وابنه أجطاي وحفيده كيوك تمكنوا من نشر نفوذهم فيما وراء النهر وفي خوارزم وخراسان وفارس والعراق العجمي أذربيجان وبلاد الكرج وأرمينية، كما اعترف بسيادتهم سلطان الروم السلاجقة ووصل نفوذهم إلى شمال الشام، ولم يبق خارجًا عن دائرة نفوذهم في غرب آسيا إلا بلاد الإسماعيلية في قوهستان والخلافة العباسية في العراق العربي، وسنرى فيما يلي أن المغول لم يتركوا تلك الجهات طويلا بل أوقعوا بها كما أوقعوا بغيرها عندما سنحت لهم الفرصة. ذلك أن مانجوخان بن تولوي الذي ارتقى عرش الخانية سنة ١٢٥١م بعد أن وضع حدًا للنزاع القائم بين بيتي جغطاي وأجطاي[١] وبعد أن ثبت مركزه وقتل أحفاد أجطاي الذين دبروا المؤامرة ضده[٢]،

---

(١) Cambridge Medieval History, Vol, IV, p. 641.

(٢) ابن العبري- تاريخ مختصر الدول، ص٤٥٩.
و Browne, Listerary History of persia, Vol, II, p. 452.

أخذ يعيد المجد المغولي القديم ويحيي روح الحماس في نفوس قومه فأعد العدة لإرسال حملتين حربيتين إحداهما إلى الصين والأخرى إلى فارس(١).

أما حملة فارس فهى التي تهمنا، وقد أسندها مانجو إلى أخيه هولاكو وعني بها عناية فائقة، وآية ذلك أنه خصص لها كثيرًا من القوات المغولية المحاربة فوضع تحت تصرف هولاكو الجيش الذي كان قد أرسله إلى إيران تحت قيادة بيجونويان Baigunoyan وجورماجون Gourmajoun والآخر الذي أرسله نحو كشمير وهندستان تحت قيادة طاير بهادور Tair Behadur، كما أمده بألف من الرجال ذوي الخبرة في إدارة آلات الحرب وقاذفات النفط الذين أحضرهم من بلاد الخطا لهذه الغاية. وكانت بعض هذه الآلات عبارة عن جاذبات أقواس ميكانيكية تدور بعجلات ويمكنها أن تجذب ثلاثة أقواس في وقت واحد وكل قوس منها يرمى سهامًا يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أو أربعة أذرع(٢). وكانت السهام مغطاة بريش الصقور والنسور ولها حافات قصيرة قوية. وأمر مانجو فوق ذلك بأخذ اثنين من كل عشرة رجال من جنود جنكيزخان التي قسمت بين أبنائه وإخوته وأبناء إخوته لتكوين حرس خاص لهولاكو.

---

(١) Howorth, Vol, I, p. 193.
و Browne, Literary History of Persia, Vol, II, p. 452.
Cambridge Medieval History Vol. IV, p. 641.

(٢) الذراع مقياس يبلغ طوله ثلاثة أرباع الياردة.

ولم يهمل في الوقت نفسه تموين الجيش فخصص لكل جندي ألف رطل من النبيذ ومثل ذلك من اللبن الحامض الذي كان يحبه المغول وألف رطل من اللحم، كما أنه لم ينس أن يسهل لهذه الجيوش مهمة السير وأرسل رسله إلى البراري والمراعي التي تمتد من قره قورم إلى شاطئ جيحون والتي ستمر بها هذه الجيوش ليدعوا أهلها إلى تقديم المعونة لها أثناء سيرها ولينذروهم من التعرض لها وليقيموا الجسور المتينة على الأنهار العميقة ومجاري المياه السريعة التي تعترض طريق هذه الجيوش(١).

وبعد أن أعد مانجو ما يلزم من الرجال والمؤن والذخيرة لم ينس أن يضع لهولاكو خطة العمل ويزوده بما يلزمه من النصائح وقد كان مما قاله: "لاحظ في كل خطواتك أعمال جنكيزخان وعاداته وقوانينه جملة وتفصيلا. وعامل بالحسنى واغمر بشواهد محبتك وعطفك كل من يخضع لك ويطيع أوامرك ونواهيك من شواطئ جيحون حتى أطراف مملكة مصر. أما إذا ثار عليك إنسان أو عصاك فشتته في الصحراء هو وزوجته وأولاده وأسرته وجميع أقاربه واجعله فريسة للشدة والذل.

---

(١) ابن العبري، ص٤٦٠- ٤٦١.
و D'Ohsson, Tome III p. 135.
و Howorth, Vol. II, p. 193.
و Quatremere, pp. 129- 137.
و Riehard Coke, Baghdad the City of peace, p. 137.
و Browne, Literary History of persia, Vol, II, p. 453.

وعندما تبدأ بقوهستان خرب القلاع والحصون واجعل أعالي كردكوه ولنبسير أسافلها ولا يهمنك إبقاء أي حصن في العالم أو أية بقعة من بقاع الأرض. حتى إذا أتممت كل هذا فسر إلى العراق واقض على سادتها وعلى من فيها من الأكراد الذين يقطعون الطرق بلصوصيتهم. وإذا قدم لك خليفة بغداد فروض الطاعة والخضوع فلا تأخذ منه شيئا، أما إذا تظاهر بالغرور وإذا كانت أقواله ونواياه تعوزها المودة فعامله كما تعامل أعداء الآخرين"[1].

سلسة نسب هولاكو

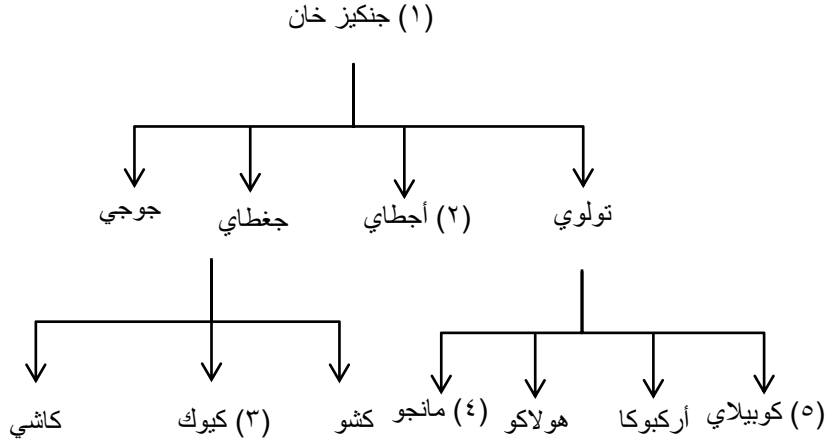

(١) D'Ohsson, Tome III, p. 136- 137. Quatremere, p. 141.

٢. قضاء هولاكو على الإسماعيلية

كان ظهور طائفة الإسماعيلية على يد الحسن بن الصباح، وكان أول مركز لها في ألموت على ما ذكرنا. وقد كان قدوم جنكيز خان إلى ما وراء النهر في أيام جلال الدين جد ركن الدين خورشاه الذي حكم من سنة ١٢١٠م حتى سنة ١٢٢٠م، كما كان رسول جلال الدين هذا أول من قدم إليه فروض الطاعة بعد عبوره نهر سيحون[١]. بل إن الإسماعيلية ظلوا مدة طويلة في صفاء مع المغول ويقال إنهم هم الذين دعوا جنكيزخان إلى القضاء على جلال الدين خوارزمشاه بعد رجوعه من الهند لما لحقهم على يديه من العنت، ولكنهم بعد ما رأوا مطامع المغول لا تقف عند حد وأن فتوحهم مستمرة في الصين وأوربا وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى خافوا خطرهم وعولوا على مناجزتهم وأخذوا يرسلون رسلهم إلى أوربا سنة ١٢٣٨م يطلبون معونة ملوكها الذين عرفوهم إبان الحروب الصليبية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنهم حاولوا عمل اتحاد من جميع الإمارات المجاورة لهم لصد خطرهم المشترك[٢].

---

(١) D'Ohsson, Tome III, p. 174.
و Browne, Liyerary History of Persia, Vol. II, p. 456.

(٢) Cambridge Medieval History, Vol, IV, 1. 638.

ولا بد أن خطة الإسماعيلية هذه أغضبت المغول وكانت سبباً في سوء معاملتهم لرسول شيخ الجبل الذي حضر مجلس انتخاب كيوك سنة ١٢٤٦م[١] كما كانت أيضًا سبباً في تقرير المغول بعد ذلك في مجلس انتخاب مانجو، إرسال حملة من ضمن أغراضها القضاء على الإسماعيلية هي حملة هولاكو. وقد جاء في صبح الأعشى "وعلت كلمة منكوتان (يقصد مانجو خان) صاحب التخت ووصلت إليه كتب أهل قزوين وبلاد الجبل يشكون من سوء مجاورة الملاحدة وهم الإسماعيلية فجهز إليهم منكوتان أخاه مكوقان (لا بد أنها هولاكو خان لأن بقية الكلام تدل على ذلك) لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم"[٢]، أي أنه يُرجع إرسال هولاكو هذه الحملة إلى طلب أهل قزوين وبلاد الجبال المعونة من المغول ضد الإسماعيلية.

وقد خرج هولاكو من قره قورم في فبراير سنة ١٢٥٤م بعد أن أقام مانجو له ولجنوده الولائم، وسار حتى وصل إلى الملغ ثم منها إلى سمرقند في سبتمبر سنة ١٢٥٥م. وبعدها سار في براري كنغول حيث قدم له مسعود بك حاكم ما وراء النهر وتركستان خيمة مطرزة بالذهب، ووصل مدينة كش التي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من سمرقند في يناير سنة ١٢٥٦م.

---

(١) ذكر ابن العبري، ص٤٥٠ أن كيوك صرف رسل الملاحدة مذلين مهانين سنة ٦٤٥هـ. و Browne, Literary History of persia, Vol. II, p. 451.

(٢) صبح الأعشى ج٤، ص٢٠٩.

وقد مكث في هذه المدنية شهراً تقبل فيه فروض الطاعة والولاء من الأمير أرغون حاكم خراسان وغيره من الكبراء الذين جاءوا حاملين الهدايا من العراق وخراسان وأذربيجان وأران وشروان وبلاد الكرج والذين كان من بينهم السلطان عز الدين وركن الدين من بلاد الروم السلاجقة وسام بن الأتابك مظفر الدين من فارس، كما أنه وجه الرسائل إلى ملوك إيران وسلاطينهم، يدعوهم فيها إلى مساعدته ويقول: "أتينا طبقا لأمر الخان الأعظم لندك حصون الإسماعيلية ونقضي على هذه الطائفة قضاء تامًا، فإن حضرتم بأنفسكم أمامي وعضدتم مشروعي بتقديم الجند والذخيرة والآلات احتفظت لكم بما في أيديكم من الولايات والجيوش والقصور، أما إن أظهرتم على العكس من ذلك توانيًا وإهمالا في تنفيذ أوامري سرت إليكم بعد إتمام مشروعي بعون الله ولم أسمع منكم اعتذارًا وعاملت حكوماتكم وأملاككم كما لو كانت ملكًا للكفار"(١).

بقى أمام هولاكو أن يلاقي الإسماعيلية بعد أن اطمأن إلى عدم وجود أخطار وراءه، وبعد أن اكتسب محالفة الأمراء فيما وراء النهر وفارس.

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 137- 138.
و Howorth, Vol. I, p. 193.
و Quatremere, p. 151.
و Richard Coke, p. 137.
و Browne, Literary Hist of persia, Vol. II, p. 453.

وقد عول على ذلك فعلا فعبر بقواته نهر جيحون في أول ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ (٢ يناير سنة ١٢٥٦م) وسار نحو قوهستان. ولما كان قد أرسل من قبل قائده قطبغا نويان بجيش عدده اثنا عشر ألفا في خريف سنة ١٢٥٢م إلى هذه الجهة ليمهد له السبيل، ولما كان هذا قد قام بواجبه خير قيام، فإن هولاكو لم يلق صعوبة كبيرة ولم يبذل مجهودًا شاقا فيها، وكل ما يُذكر له فتحه ساوة وخواف حوالي آخر مارس سنة ١٢٥٦م[١].

وقد ترك هولاكو قوهستان واتجه نحو بحر قزوين مارًا بالمنصورية وسهول راذكان ثم خبوشان التي كانت مخربة منذ حملات المغول الأولى فأعاد بناءها، ولم يحل يوم ١٠ شعبان سنة ٦٥٤هـ إلا وكان أمام أسوار خراكان وبستام[٢] وأصبح عليه أن يفتح معاقل الإسماعيلية الحصينة.

لو أن هولاكو عزم على فتح هذه المعاقل بالقوة للقي من شجاعة الإسماعيلية وروح التضحية المتأصلة فيهم ما أتعبه وأقض مضجعه وأطال حروبه وكبده الخسائر الكبيرة، ولكنه وقد كان بعيد النظر اتبع خطة أخرى وفرت عليه كثيرًا من الجهود وقربت له أمنيته،

(١) Drowne, Lit. Hist, of Persia, Vol. II, p. 458.
(٢) Quatremere, pp. 183, 184.

تلك هى الاستفادة من جبن ركن الدين خورشاه رئيس الإسماعيلية المقيم وقتذاك في ميمون ديزه وإدخال الرعب في قلبه حتى يسلم ثم استخدامه في فتح معاقل الإسماعيلية.

بدأ هولاكو بتنفيذ هذه الخطة وهو أمام أسوار بستام فأرسل حاكم هراة مركتاي Merketai ومعه منكلمش Monkelmesn وأوصاهما بتهديد خورشاه وإرهابه. ثم توالت المراسلات بينهما مدة طويلة[١]. وأخيرًا أرسل إليه هولاكو عطا ملك الجويني حتى إذا لم يصل إلى نتيجة بدأت جيوشه في ضرب المدينة، وهنا أثمرت خطته ثمرتها الأولى إذ خرج ركن الدين خورشاه من ميمون ديزه في يوم ٢٩ شعبان ٦٥٤هـ (١٩ نوفمبر ١٢٥٦م) وقدم خضوعه لهولاكو واستولى المغول بعد ذلك مباشرة على ميمون ديزه وخربوها ونهبوها وأحرقوها[٢]. ثم أيضًا يستغلون ركن الدين خورشاه ويستفيدون من وجوده في أيديهم فعاملوه بالحسنى في أول الأمر حتى أطاعهم ودعا مدن الإسماعيلية إلى التسليم لهم. وقد سلمت لهم نتيجة دعوته أكثر من خمسين قلعة[٣].

---

(١) ابن العبري، ص٤٦٣- ٤٦٤. و Quatremere, p. 185.

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 195- 196. و Browne, Vol, II, p. 458.

(٣) ابن العبري، ص٤٦٤.

و D'Ohsson, Tome III, pp. 197- 198. و Howorth, Vol, I, p. 196.

ويلاحظ أن دوسون يذكر أن المدن التي سلمت للمغول أكثر من أربعين لا أكثر من خمسين.

أما المدن التي أبت سماع دعوة خورشاه بالتسليم مثل ألموت فقد فتحت بالقوة في ٣٠ ذي القعدة سنة ٦٥٤هـ (٢٠ ديسمبر سنة ١٢٥٦م)، وحدث بعد ذلك أن أرسل هولاكو ركن الدين خورشاه إلى قره قورم لمقابلة الخان الأعظم مانجو، ولكن هذا الأخير لم يقابله وأمر بقتله وقتل جميع من بقي على قيد الحياة من أهل طائفته فقضى المغول على الإسماعيلية في إيران كقوة سياسية؛ وإن كان لا يزال لهم حتى الوقت الحاضر نسل في تلك البلاد[١].

وإذا كنا قد رأينا أن جبن ركن الدين خورشاه وسوء تدبيره كانا السبب في قضاء هولاكو على الإسماعيلية بهذه السهولة، فيجب ألا يعزب عن بالنا عامل آخر لا يقل أثرًا وهو الدور الذي قام به نصير الدين الطوسي الذي كان في ألموت عندما دارت المحادثات بين هولاكو وركن الدين خورشاه. وقد أتى بهذا الرجل إلى ألموت نصير الدين حاكم قوهستان من قبل الإسماعيلية في أيام علاء الدين والد ركن الدين خورشاه وظل بها منذ ذلك الحين محترمًا مكرما[٢]. ولكن هذه الاقامة كانت على غير رغبة منه؛ لذلك لم يخلص لحكامها وبلغ كرهه لها أشده في أيام ركن الدين خورشاه.

---

(١) ابن العبري، ص ٤٦٥. و D'Ohsson, Tome III, pp. 101- 102 و Browne, Vol. II, pp. 458- 460.

(٢) D' Ohsson, Tome III,p. 256 . و Browne, Vol, II, p. 456.

ويتلخص الدور الذي قام به في أنه اتفق مع جماعة ممن كانوا يقيمون مثله في ألموت على غير ولاء على تسليم الإقليم لهولاكو إذا استدعى الأمر[١].

وقد خدمته الظروف إذ لم تضطره إلى تدبير مؤامرة لتسليم البلاد ولم تظهر للملأ خيانته هو وإخوانه؛ لأن خورشاه سرعان ما اقتنع بضرورة التسليم للمغول مع أنه الخائن الذي غرر بخورشاه وخدعه وشجعه على التسليم وكلفه بذلك أمرًا أفقده حياته وملكه وطائفته[٢].

(١) Quatremere, p. 185.

(٢) Quatremere, p. 185.

٣. قضاء هولاكو على الخلافة العباسية

بعد انتهاء هولاكو من أمر الإسماعيلية ذهب إلى قرب قزوين في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٥٤هـ وأقام الحفلات لجيوشه المنتصرة، ثم تحرك منها إلى همذان فوصل إليها في أوائل المحرم سنة ٦٥٥هـ (أوائل يناير سنة ١٢٥٧م) وعسكر بجيوشه فيها وأخذ يعمل على تنفيذ الشطر الثاني من برنامج الحملة التي بيده قيادتها. ويلوح لي أن هولاكو عندما فكر في الخلافة العباسية وهو بهمذان عزم لأول وهلة على إبادتها، على الرغم من أن مانجو بنصيحته التي وجهها إليه يوم أقام له ولجيوشه الولائم في قره قورم لم يدعُه إلى القضاء على الخلافة العباسية بل طلب منه أن يترك أملاك الخليفة له إذا قدم فروض الطاعة وأظهر نواياه الحسنة. ويحقق ذلك لدى تقريع هولاكو للقائد المغولي بيجو نويان حين وصل إلى همذان قادمًا من أذربيجان على عدم فتحه بغداد وقضائه على الخلافة[١].

---

(١) Quatremere, p. 223. D' Ohsson, Tome III,p. 206.
ذكر دوسون أن هولاكو غادر الجهات المجاورة لقزوين قاصدًا همذان في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ (مارس سنة ١٢٥٧م) وذكر رشيد الدين (ترجمة كترمير) أن هولاكو وصل همذان في ١٢ رجب سنة ٦٥٥هـ (يوليو سنة ١٢٥٧م) على أن مجرى الحوادث على ما سنرى فيما بعد يدل على أن هذا التواريخ غير صحيحة. إذ كيف نستطيع التوفيق بين هذه التواريخ وبين قول رشيد الدين نفسه فيما بعد إن وصول هولاكو إلى كرمنشاهان كان في ٢٧ من المحرم؟ إن الأقرب إلى الصحة فيما أرى أن تكون مغادرة هولاكو للجهات المجاورة لقزوين وذهابه إلى همذان قد وقعت في أوائل المحرم، وأن يكون سيره منها بعد العشرين من المحرم. وهذا هو الذي أخذت به في هذا الكتاب.

ولا بد أن هولاكو عندما ترك قره قورم كان على رأي الخان الأعظم؛ ولكنه بعد أن سار إلى الغرب ورأى الأمراء يقدمون له فروض الطاعة حيثما وصل بينما الخليفة العباسي لم يكلف نفسه مؤونة إرسال رسول من قبله كما أنه لم يمده بالمعونة عند محاربته للإسماعيلية - لما رأى هولاكو ذلك كله حقد على الخليفة وعزم على الانتقام منه.

وإذا كان هولاكو لم يسيّر جيوشه إلى العراق حالما انتهى من محاربة الإسماعيلية، فمن المحتمل أن يكون ذلك رغبة منه في الاستعداد للحرب، خصوصًا وأن بيجو نويان حين دافع عن نفسه أمام تقريع هولاكو على تركه بغداد دون فتحها بالغ في قوتها ووصفها بقوله: "الحقيقة أن هذه المدينة بسبب كثرة سكانها وجيوشها العديدة، وبسبب ما تحتوي عليه من آلات الحرب والذخيرة وبسبب هذه الطرق الصعبة الضيقة التي يجب سلوكها قبل الوصول إليها. بسبب ذلك كله لا يمكن لأي جيش أن يقتحمها إلا بصعوبة"[1].

إذ ليس من الحكمة والأمر على ما ذكره بيجو نويان الإسراع بمهاجمتها قبل إعداد العدة. كما أنه قد يكون الدافع بهولاكو إلى التريث رغبته في الظهور بمظهر المطيع لتعليمات الخان الأعظم المنفذ لها.

---

(١) D' Ohsson, III,p. 207 .
Quatremere, p. 225.

(أ) دعوة الخليفة المستعصم إلى التسليم:

وعلى كل حال، فقد كان أول ما قام به هولاكو في همذان هو أن أرسل إلى الخليفة المستعصم رسالة يعتب فيها عليه بسبب عدم إمداده بالجند لدى محاربته للإسماعيلية، ويذكره بأن المغول لم يهزموا، ويدعوه إلى تجريد حصونه من السلاح والحضور شخصيًا إليه أو إرسال الدفتردار الصغير وسليمان شاه نيابة عنه. ويقول له إنه إن فعل ذلك ضمن حريته وحفظ مركزه، وإن أبى أحل بنفسه وبأهله الدمار؛ لأن جيوش المغول في تلك الحالة ستسير إلى بغداد وتستولي عليها منه لتخفضه من عزه ولا تدع أحدًا في قيد الحياة في جميع أرضه، ويختمها بقوله:

"القمر يضيء فقط عندما تغيب الشمس فلا تدق مسمارًا بقبضتك ولا تخطئ الشمس بنور الشمعة أو تظن أنه يمكنك التوبة"[1].

أي أن هولاكو اتبع في أول الأمر وصية الخان الأعظم مانجو فدعا الخليفة إلى إظهار ميوله الحسنة نحو المغول وتقديم خضوعه لهم وإن أحاط كل ذلك بتهديدات تفصح عن كراهيته للخليفة ورغبته في النيل منه.

---

(١) D' Ohsson, Tome III,pp. 215- 217 .
و Quatremere, p. 231- 233 .

وقد جاء رد الخليفة المستعصم على هولاكو شديدًا وإن حرص على صوغه في قالب مرن، إذ دعاه إلى الإقلاع عن غروره والرجوع إلى خراسان، وقال له: "أيها الشاب يا من بدأت بحياتك وشيكًا وشربت كأس العز والحظ الحسن من عشرة أيام وجعلت نفسك تبعًا لذلك فوق العالم أجمع وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء، كيف تطلب مني طلبا لا يمكنك تنفيذه؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجمًا من النجوم؟ اتبع طريق الحسنى وعد إلى خراسان.." (١).

وأخذ يذكره بمجد الخلافة الغابر وسلطة الخليفة الحالية وانتشار نفوذه على جميع المسلمين ويقول له: "إن ملايين من الخيالة والرجالة على استعداد للحرب رهن إشارتي حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر"(٢)، كما أنه لم ينس في آخر الأمر أن يذكر أنه لا يريد حربًا لأنه لا يود أن تقاسي رعيته من سير الجيوش. فكانت النتيجة أن هولاكو وجد فيه مبررًا لتشدده إزاء الخلافة العباسية وتكئة لتنفيذ إرادته في سحقها، ورأى أنه إن حارب الخليفة بعد أن ظهرت نواياه السيئة وغروره القبيح لم يتخط الدائرة التي رسمها له مانجو.

(١) D' Ohsson, Tome III,pp. 217- 218 . و Richard Coke, p. 141.
(٢) Quatremere, p. 335.

ويدلنا على ذلك أنه أرسل إلى الخليفة يقول: "إنك تركت نهج آبائك فاستعد للحرب وانتظر جيشا قويًا، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتصرت عليه بعون الله"(١).

لم يهتم هولاكو بعد ذلك ولم يدخل الرعب إلى قلبه حين وصله من قبل الخليفة المستعصم بدر الدين ديريكي وقاضي البندنيجين وأخذا يقولان له إن كل من حاول فتح بغداد فشل ورجع بالخيبة، ويضربان له الأمثال بيعقوب بن الليث الصفار الذي سار لفتحها ولكنه مات، وأخيه عمرو الذي أراد ما أراد أخوه ولكنه وقع في يد إسماعيل بن أحمد الساماني أسيرًا وأرسل إلى بغداد ليلاقي جزاءه، والبساسيري الذي أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر ولكن طغرل بك السلجوقي قضى عليه، والسلطان محمد السلجوقي الذي تقدم لغزو بغداد ولكنه عاد هاربًا ومات في الطريق، ومحمد خوارزمشاه الذي سار لهذا الغرض ولكن البرد اشتد عليه ونزل الثلج على جيشه واضطر إلى التقهقر بعد أن مات كثير من جنوده ثم لم يلبث أن مات هو نفسه في إحدى الجزر النائية في بحر قزوين(٢).

---

(١) Ibid, 233.

(٢) D' Ohsson, Tome III,pp. 212- 222 .و Quatremere, p. 251 .

نعم، لم يتأثر هولاكو بهذه الأقوال، بل ازداد عزمه قوة وتمثل لهما بقول الفردوسي في الشاهنامة "أقيموا حوله مدينة وسورًا من الحديد وشيدوا حصنا وحاجزا من الصلب. اجمعوا جيشا من الشياطين والجن وسيروا بعد ذلك ضدي تحرقكم الرغبة في الثأر، فسأخفضه ولو كان في السماء وسأصل إليه رغم أنفه ولو كان في معقل الأسد"[1].

ثم أخذ يعد العدة لمحاربة الخليفة المستعصم.

(١) Quatremere, p. 253.

(ب) **الاستعداد للحرب:**

ساءت العلاقات بين هولاكو والخليفة المستعصم، ولم يكن لتبادل المراسلات بينهما من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها، وقد رأى هولاكو بثاقب نظره أن يستولي على الجهات الواقعة في طريقه إلى بغداد قبل أن يعزم على السير إليها. لهذا أرسل إلى حسام الدين أكه صاحب مدينة ديرتنك Dertenk وما جاورها من قبل الخليفة واستدعاه إليه وغمره بعطفه وحاول أن يضمه إليه، ولما لم يأنس فيه الإخلاص له ورآه يميل إلى الرجوع إلى صف الخليفة استدعى قطبغا نويان من إيران الوسطى ثم كلفه بمحاربته فسار إليه وقتله واستولى على بلاده ثم رجع إليه منتصرًا[1]. ويلاحظ أن هولاكو لم يكتف بذلك، بل أخذ يثير أحقاد الشيعة والمسيحيين ضد الخلافة العباسية[2].

وعندما تأكد هولاكو أن في إمكانه السير إلى بغداد دون أن تعترضه مصاعب ذات بال بدأ في أخذ رأي الفلكيين على عادة المغول إذا قدموا على غزو أو عزمو على أمر مهم. أما الفلكي حسام الدين الذي أرسله الخان مانجو مع هولاكو وكان سُنيًا يعطف على الخليفة العباسي فقد حاول أن يثني هولاكو عن عزمه وأخذ يبين أن مشروعًا يراد به فتح بغداد لن يعقبه خير،

(١) D' Ohsson, Tome III,pp. 222- 224 و Quatremere, pp. 255-259 .

(٢) Richard Coke, Baghdad the City of peace, p. 142.

وكان مما قاله: "الحقيقة أنه حتى هذه اللحظة كل ملك تجاسر على السير ضد بغداد وأبناء العباس لم يبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الأمير أن يسمع لنصائحي وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ست مصائب كبيرة، أولا: ستموت الخيول جميعها وتصيب الجنود أمراض مختلفة ثانيا: لن تطلع الشمس، ثالثا: لن يسقط المطر، رابعًا: ستهب رياح شديدة وسيعاني العالم من هزات الأرض، خامسا: لن تخرج الأرض نباتا ما، سادسًا: سيموت الخان الأعظم في هذا العام". وقد كان في تحديده وقتا لوقوع هذه الكوارث أكبر الخطأ لأن هولاكو اعتقله عنده حتى حل الوقت المعين ولما لم يحدث ما أشار به قتله[١]. وقد خالف الفلكي خوجة نصير الدين الطوسي حسام الدين وانضم إلى صف الأمراء المغول الذين كانوا متمسكين بضرورة غزو بغداد وكانوا يرون أن حملة ضدها مشروع من أنسب المشروعات. وعندما سأله هولاكو عن رأيه فيما قاله حسام الدين أجابه بأن شيئا من الكوارث التي عددها لن يقع، وأكد له أنه سيحكم مكان الخليفة. ويذكر لنا رشيد الدين[٢] أن نصير الدين الطوسي ذكر ما ذكره لأنه خاف أن يتحققوا من كلامه ويفعلوا به ما فعلوا بحسام الدين، أي أنه يحاول أن يبرئه من وصمة تشجيع هولاكو على غزو بغداد.

---

(١) D' Ohsson, Tome III, pp. 224- 225 . و Quatremere, p. 261 .

(٢) Quatremere, p. 263

بينما يذكر لنا غير رشيد الدين من المؤرخين[١] أن نصير الدين فعل ذلك نكاية في الخليفة العباسي الذي كان يكرهه لاختلافه عنه في المذهب الديني ولأنه جاء مرة إلى بغداد وقدم إليه قصيدة شعرية فلم يجزه عليها.

والواقع، أنني لا أجد في سيرة نصير الدين الطوسي ما يبرئه من هذه التهمة، فهو الذي كان سبباً في إقناع خورشاه بالتسليم لهولاكو، هذا إلى أن هولاكو عندما أحضر حسام الدين ليناقش نصير الدين ويدافع أمامه عن رأيه أخذ نصير الدين يأتي بالحجج الدامغة للدلالة على كذب دعوى حسام الدين، وكان مما ذكره أن كثيرين من أصحاب الرسول ماتوا في الدفاع عن الدين ومع ذلك لم تقع كارثة ما، وأن كثيرين من الناس خرجوا على بني العباس ولم يلحقهم أذى، وجعل يمثل بطاهر قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[٢]. فلو أن نصير الدين لم يكن يكره الخليفة ويعمل على سقوطه أو لو أنه كما يقول رشيد الدين كان مضطرا إلى تحبيذ المشروع؛ لما وقف موقف المدافع عن الفكرة المحبذ لها الذي لا يتهاون فيها ولاكتفى بالقول بنجاح المشروع دون أن يفند أقوال حسام الدين.

---

(١) D' Ohsson , Tome III, pp. 225- 226 .

و Coke, Baghda the City of pease, p. 142 .

(٢) D' Ohsson, Tome III, pp. 226 . و Quatremere, p. 203 .

هذا ما قام به هولاكو استعدادًا للحرب، أما الخليفة المستعصم فعلى الرغم من أنه وافق الدفتردار الصغير وسليمان شاه على المقاومة[١] فإنه لم يقم بما يجب عليه لصد هذا الخطر المدلهم، ولم يقم بعمل الاستعدادات اللازمة، بل إنه بعد أن أمر وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي بجمع الجند وبعد أن نفذ الوزير أمره بعد مراوغة بلغت خمسة شهور عاد فنكص على عقبيه ولم يوزع عليهم شيئا من ماله وعاودته طبيعة البخل المتحكمة فيه[٢]. وقد قيل إنه كان ينتظر معونة إلهية، كما ذكروا أنه كان ينتظر مساعدة أمراء المسلمين له كما قال له وزيره ابن العلقمي[٣]، هذا وقد ذكر ابن العبري[٤] "وكان إذا نبه على ما ينبغي أن يفعله في أمر التتار (كذا) إما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلاتهم على العراق، فكان يقول أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا أيضًا يهجمون عليّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي". وعلى كل حال فإنه لزم خطة الجمود ولم يقم بعمل يستحق الذكر ولم تنزل عليه معونة إلهية ولم يخف الأمراء المسلمون لنجدته، كما أن المغول لم يراعوا عواطفه ولم يفكروا في ترك بغداد له.

---

(١) D' Ohsson, Tome III, pp. 219- 220 .

(٢) Ibid, p. 221 .Quatremere, p. 248.

(٣) D' Ohsson, Tome III, pp. 213 .

(٤) ابن العبري، ص٤٤٥- ٤٤٦.

(ج) مسير هولاكو إلى بغداد:

وضع هولاكو وهو بهمذان خطة السير إلى بغداد، وكانت هذه الخطة ترمي إلى جعل بغداد في وقت من الأوقات محاطة بجيوشه من جميع النواحي على أن يكون هو في القلب، بينما يؤلف جورماجون وبيجونان ومن معهما الجناح الأيمن ويذهبون إلى الموصل عن طريق أربل ويعبرون جسر الموصل ويكوّنون في وقت معين معسكرين غربي بغداد، ويكون الجناح الأيسر مؤلفا من جيش كتبغا نويان بعد أن يخترق لورستان(١).

وقد بدأ هولاكو سيره من همذان في أواخر المحرم سنة ٦٥٥هـ (أواخر يناير سنة ١٢٥٧م) وأخذ معه من أمراء المغول كوكا الكا Kouka IIka وأركاتو Arkatou وأرجوناكا Argounaka، ومن أمراء المسلمين أبا بكر سعد بن زنكي أتابك شيراز وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، ومن الكتّاب والعلماء قرطاي Karatai وسيف الدين وسكرتيره عطا ملك الجويني صاحب كتاب جهان جشا وخوجه نصير الدين الطوسي(٢). ولما وصل إلى أسد أباد أرسل رسولا يدعو الخليفة المستعصم إلى المثول بين يديه، ثم واصل سيره.

---

(١) Howorth, Vol. I, p. 1199.

(٢) D' Ohsson, Tome III, p. 227 . و Quatremere, p. 265.
Browne, Literary History of persla' Vol. II, p. 460.

وفي دينور لقيه رسول الخليفة شرف الدين عبد الله بن الجوزي برسالة كلها تهديد ووعيد وفيها يطلب الخليفة من هولاكو الرجوع ويعده في مقابل ذلك بدفع جزية سنوية. وقد رد هولاكو هذا الرسول وقال له ساخرًا: "لقد قطعنا طريقا طويلا فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة. إننا بعد أن نتشرف بالمثول بين يديه وبعد أن نتحادث معه سنسمع أوامره ونعود مباشرة.."[1]. ثم بعد ذلك استمر في سيره وعبر بجيوشه الجبال الكردية حتى وصل إلى كرمانشاهان في يوم ٢٧ من شهر المحرم سنة ٦٥٥هـ.

صارت جيوش هولاكو في كرمانشاهان قريبة من قوات الخليفة التي كانت معسكرة في المكان الواقع بين بلدتي بعقوبا وباجسرا تحت قيادة جاهد الدين أيبك الدفتردار الصغير وابن قره[2]. وأصبح التصادم بينهم أمرًا لا بد منه. ولكن المغول حالوا دون هذا التصادم بكل الطرائق الممكنة لأنهم على ما يظهر كانوا يخافون عواقبه وقنعوا في أول الأمر بالعمل على تمزيق القوات الخلافية وذلك باستمالة الأتراك الموجودين فيها، وقد استعملوا لهذه الغاية الأتراك الذين يعملون في صفوفهم، معتقدين أن تأثيرهم على أبناء جنسهم لا بد أن يكون كبيرًا،

(١) D'ohsson, Tome III, p. 228 . و Quatremere, pp. 265-267.
(٢) Ibid, p. 281.

ولكنهم فشلوا وأثبت الأتراك الذين في صف الخليفة أنهم مخلصون له وأنهم عازمون على البقاء معه حتى النهاية، وتجلى إخلاصهم في رد أحدهم المسمى قره سنقر الذي كان يقود مقدمة جيش الخليفة على كتاب أرسله إليه أحد الكشاف الأتراك في الجيش المغولي واسمه سلطان جوك Sultan Djouk. فقد كتب سلطان جوك يقول إنه تركي مثله خضع لهولاكو فلم يلق منه إلا كل خير، ودعاه إلى الانضمام إلى هولاكو هو الآخر حتى يحتفظ بحياته وحياة أبنائه وأسرته، ولكن قره سنقر رد عليه ردا شديدا قال له فيه إن كل من حاولوا فتح بغداد أو الاعتداء على الخليفة العباسي باءوا بالفشل، وذكر له أن الخليفة عندما علم بسير هولاكو حنق وعزم على القضاء عليه، ثم طلب منه إذا كان يريد سلمًا أن يبدأ بإقناع هولاكو بالرجوع إلى همذان ووعده بأنه في هذه الحالة سيوسط الدفتردار لإقناع الخليفة بالرضاء بالسلم[1].

اغتاظ هولاكو لهذا الفشل وكان مما قاله عندما علم بما رد قره سنقر: "إن قوتي قائمة على سيف الخالق وليست قائمة على الذهب والفضة، وإذا أحبني الله وقاني، فمن ذاك الذي يخيفني من الخليفة وجنده. إن ناظري لا تختلف أمامه النملة والبعوضة والفيل أو النبع والنهر والبحر والنيل.. [2]"

(١) D' Ohsson, Tome III, pp. 228-229 . و Quatremere, p. 269.
(٢) Ibid, p. 272.

ولكنه مع ذلك لم يجسر على أن يتبع طريق القوة بل أراد أن يراوغ الخليفة ويكسب الوقت فأرسل إليه يقول: "إذا كان الخليفة عازمًا على التسليم فليأت بنفسه إلينا، وإذا كان عازمًا على محاربتنا فليرسل الوزير وسليمان شاه والدفتردار قبل شيء ليصغوا إلى مطالبنا"[١] ثم أراد أن يتخلص من مقاومة جيوش الخليفة له بعد أن فشل في تمزيقها فاستدعى بيجونويان وسنجاك Soundjak وسنتوا Sountoi وبغاتيمور Boukatimour على عجل وأمرهم بالإسراع إلى عبور دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب[٢].

وكان النجاح حليفه؛ لأن قوات الخليفة المعسكرة بين بعقوبا وباجسرا عندما علمت بمهاجمة القوات المغولية لبغداد من الغرب تحركت من مركزها وعبرت نهر دجلة لتصدها وبذلك تركته حرًا طليقا، فسار حتى وصل شاطئ نهر حلوان في يوم ٩ من ذي الحجة سنة ٦٥٥هـ (١٨ ديسمبر سنة ١٢٥٧م) ثم عسكر في خانقين حتى يوم ٢٢ من الشهر نفسه، ثم واصل حتى عسكر شرقي بغداد في يوم ١١ من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٨ يناير سنة ١٢٥٨م) [٣] أي بعد سنة تقريبًا من تركه همذان.

---

(١) D' Ohsson, Tome III, p. 229 . و Quatremere, p. 279.

(٢) Quatremere, p. 267.

(٣) ابن العبرى، ص٤٧٢.و D' Osson, Tome III, p. 232 و Quatremere, p. 281.

ويجب ألا ننسى هنا أن بيجونويان وزملاءه قاموا بهذا الدور تبعًا للخطة التي رسمها هولاكو لجيوشه في همذان، وكل ما في الأمر أنه سيرهم في الوقت المناسب فرمى عصفورين بحجر واحد، إذ وصل أسوار بغداد الشرقية دون أن يلقى مقاومة كما وصلت جيوش بيجونويان وزملائه إلى بغداد الغربية.

وقد بذلت قوات بيجو نويان وزملائه مجهودا كبيرًا؛ إذ أسرعت منذ دعاها رسول هولاكو وقابلته في المكان المسمى طاق كسرى Tak-Kesra ثم تلقت أوامره وأحرقت أكتاف الحيوانات على عادة المغول ثم يممت شطر بغداد الغربية وعبرت نهر دجلة عند تكريت على جسر من القوارب أقامته في أربع وعشرين ساعة بعد أن قطع أهل تكريت الجسر الذي كان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد أقامه لعبورها. وسارت في محاذاة قناة دجيل حتى عسكرت على شاطئ نهر عيسى. وبعد أن استراحت من العناء الذي لاقته طلب سنجاك من بيجو نويان أن يؤمّره على مقدمة الجيش ثم صار حتى وصل قريبًا من حي الحربية، ولكن قوات الخليفة كانت قد عبرت نهر دجلة فلاقته في ٩ المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٦ يناير سنة ١٢٥٨م) وهزمته بقرب الأنبار على بعد تسعة فراسخ من بغداد واضطرته إلى التقهقر والإسراع للانضمام إلى قوات المغول التي تركها وراءه.

وقد حدث بعد ذلك أن سارت قوات الخليفة متتبعة الجيش المنهزم غير مكتفية بما أحرزته من نصر، فاضطرت قوات بيجو نويان وزملائه إزاء ذلك إلى ملاقاتها، ووقعت بذلك موقعة شديدة في منطقة دجيل استغرقت مساء ٩ وصباح ١٠ من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٦ وصباح ١٧ يناير سنة ١٢٥٨م). وعلى الرغم من أن قوات الخليفة أحرزت الغلبة في مساء ٩ المحرم، فإن المغول نجحوا ليلا بسبب قطع أحد الجداول وإغراق ما وراء معسكر الجيش العباسي. ويقول الديار بكري[١] إن أتباع الوزير ابن العلقمي هم الذين أغرقوا المعسكر، كما يقول براون[٢]، إن المغول فعلوا ذلك بمعاونة المهندسين الصينيين الذين أحضروهم معهم. وعلى كل حال، فإن المغول لم يهزموا هذا الجيش في صباح ١٠ المحرم فحسب، بل أنزلوا به الخسائر الفادحة أيضًا، فقتل من قواده فلاح الدين وابن قره وقره سنقر، كما قتل من جنده اثنا عشر ألفا عدا من غرقوا وغطاهم الطين، ولم ينج منهم إلا من رمى بنفسه في الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام أو الحلة أو الكوفة، وكان الدفتردار الصغير ممن نجوا إذ تمكن من الوصول إلى بغداد على رأس شرذمة صغيرة[٣].

---

(١) الديار بكري- الخميس ج١، ص٤٢٠.

(٢) Browen, Litteray History of persia, Vol. II, p. 46 1.

(٣) ابن العبري، ص٤٧٣ والفخرى، ص٢٤٦.

و D' .Ohsson, Tome'III, pp. 228- 230- 232 .

وعلى كل حال، فقد كان انتصار القوات المغولية عظيمًا مكنهم من دخول بغداد الغربية في ١٥ المحرم سنة ٦٥٦هـ (٢٢ يناير سنة ١٥٢٨م) والسيطرة على جميع أجزائها[١].

هذا فيما يختص بالجناح الأيمن والقلب، أما الجناح الأيسر الذي كان يقوده قطبغا نويان فكل ما نعلمه عنه أنه اخترق لورستان وتقدم حتى أصبح في يوم ١٥ المحرم سنة ٦٥٦هـ عند صرصر[٢].

و Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 461.

ملاحظة- كان عسكر الخليفة في هذه الموقعة في غاية القلة على ما ذكره صاحب الفخري (ص٢٤٦) وعشرين ألفا على ما ذكره صاحب طبقاتي ناصري (براون- تاريخ فارس الأدبي ج٢ ص٤٦١)، بينما كان جيش بيجونويان وزملائه يزيد على ثلاثين ألفًا على ما ذكره صاحب الفخري (ص٢٤٦) وثمانين ألفا على ما ذكره صاحب طبقاتي ناصري (براون، ص٤٦١).

وأحب أن أنبه في هذا المقام إلى أن براون أخطأ حين ذكر أن الجيش الذي كان يزيد على ثلاثين ألفا هو جيش هولاكو لا جيش بيجونويان، ناسبا هذا الخبر إلى صاحب الفخري (براون، ص٤٦١) فقد رجعت إلى هذا الكتاب فلم أجد فيه شيئا من هذا القبيل، بل وجدت هذا النص: "فلما وصل العسكر السلطاني إلى دجيل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس خرج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك الدويدار وكان عسكرا في غاية القلة فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريبًا من البلد" وهو يبين بكل وضوح أن الجيش الذي كان يربو على ثلاثين ألفا هو جيش بيجونويان وزملائه الذي هاجم بغداد من الغرب لا جيش هولاكو الذي هاجمها من الشرق، ولابد أن براون حين وجد ابن طباطبا يذكر أن العسكر السلطاني يربو على ثلاثين ألفا، ظنه عسكر هولاكو وهو معذور في ذلك لأن ابن طباطبا ذكر كلمة العسكر السلطاني قبل ذلك مرات وكان يقصد بها دائمًا عسكر هولاكو الذي هاجم بغداد من الجهة الشرقية.

(١) D' Ohsson, Tome III, p. 232 .

و Quatremere, p. 281.

(٢) D' Ohsson, Tome III, p. 232 .

صرصر بالفتح وتكرار الصاد والراء وهما قريتان من سواد بغداد صرصر العليا وصرصر السفلى وهما على ضفة نهر عيسى... وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين (راجع لفظ صرصر في معجم البلدان لياقوت).

(د) **حصار بغداد:**

إذا ذكرنا حصار بغداد فإننا نقصد حصار المغول لبغداد الشرقية، وذلك لأن تلك المدينة الشرقية كانت مقر الخليفة وحكومته، كما أن أهل بغداد الغربية تدفقوا إليها منذ عبرت جيوش بيجونويان وزملائه نهر دجلة عند تكريت عازمة على غزو بغداد من الغرب، ويقول صاحب الفخري: وقد بلغ من شدة رغبتهم في الذهاب إليها أنهم كانوا يعطون الجذافين الذين ينقلونهم بقواربهم من ضفة دجلة الغربية إلى ضفته الشرقية أسورة من الذهب وملابس مطرزة من الذهب وعدد كبيرًا من الدنانير(١).

وقد أحاط المغول ببغداد الشرقية منذ وصولهم إحاطة السوار بالمعصم. فهولاكو الذي وصل عن طريق خراسان عسكر في وسط القوات التي توجد أمام الأسوار الشرقية تجاه برج العجم، بينما عسكر من الأمراء الذين كانوا يرافقونه إلكا نويان iIka Noyan وفربا Ferba أمام باب كلواذي على يسار هولاكو، وانضم إليهم قطبغا نويان الذي كان يكون بجيشه الجناح الأيسر للقوات جميعها. على أن المؤرخين، ومن بينهم هورث ودوسون، لم يذكروا عند كلامهم على ترتيب الجيوش المغولية أثناء حصارها مدينة بغداد شيئا عن انضمام قطبغا نويان إلى هذه القوات التي عسكرت أمام باب كلواذي،

(١) الفخرى، ص١٤٦. و D'Ohsson, Tome III, p. 230 .

ونستطيع أن نؤيد ما ذهبنا إليه مما ذكره هؤلاء المؤرخون في موضع آخر من أن الخليفة بعد أن خرج من بغداد نقل إلى معسكر قطبغا نويان أمام هذا الباب ووضع في خيمة. أما كولي Kouli وبلجا Boulga وتوتا Toutai وشيرامون Shiramoun وأركيو Arkiou، فعسكروا تجاه الجزء الأكبر من السور الشرقي بقرب باب السلطان على يمين هولاكو، هذا بينما عسكرت جيوش بيجونويان وسنجاك في محلة المستشفى العضدي، كما عسكرت قوات بغاتيمور في محلة القرية، وكانت بذلك جميعها تطل على بغداد الشرقية من الغرب وتحول دون وصول المدد إليها عن طريق نهر دجلة[1].

ولم تترك هذه القوات منذ اتخذت أماكنها حول بغداد فرصة تمر دون أن تستخدمها في تقريب الغاية التي تسعى إليها وهي الاستيلاء على هذه المدينة، فأقامت أمام أسوارها أسوارًا أخرى موازية لها من الأتربة، كما حفرت خندقا بجانب المدينة ووراء هذه الأسوار، وأتمت هذه الأعمال جميعها في أربع وعشرين ساعة وتمكنت بذلك من فصل المدينة عما جاورها. هذا إلى أنها كونت من الأنقاض الموجودة حول المدينة أكوامًا عالية جعلتها مقاعد لقاذفات الأحجار (العرادات) وآلات النفط وبذلك جعلت المدينة تحت رحمتها.

(١) D' Ohsson, Tome III, p. 232, 239 .
و Quatremere, pp. 281-283, 299.

أضف إلى ذلك أنها عندما وجدت أن الحجارة التي تحتاج إليها العرادات لا توجد حول بغداد أحضرتها من جبل حمرين وجالولا وهي أماكن تبعد عن بغداد شمالا بمراحل طويلة تقطع في ثلاثة أو أربعة أيام، كما أنها كانت تستعيض بالأحجار عند عدم وجودها بقطع من جذوع النخل. ومن الغريب أن الجيوش المغولية لم تهمل الناحية المعنوية فيها وفي أعدائها، فكانت تضعفها في أعدائها بنشر عوامل الانقسام في صفوفها إما برمي النشرات عن طريق تثبيتها في سهام ترميها داخل الأسوار أو بالاتصال برجال من أعوان الخليفة[1].

بدأ هجوم هذه القوات المغولية على الأسوار الشرقية في ٢٣ من شهر المحرم سنة ٦٥٦هـ (٣٠ يناير سنة ١٢٥٨م) فضربت هذه الأسوار ضربًا شديدًا في جميع نقطها، ويلاحظ أن عدد الأبراج التي كانت تقوم على هذه الأسوار كان يبلغ مائة وثلاثة وستين وكان من أهمها برج العجم. وقد ظل الضرب عدة أيام متوالية ثم أخذ أثره في الظهور في يوم ٢٥ المحرم (أول فبراير) حين تصدع برج العجم أمام هجمات فرقة هولاكو، كما ظهر هذا الأثر أيضًا في يوم ٢٩ المحرم (٥ فبراير) حين استولت هذه الفرقة نفسها على الثغرة التي أحدثتها بالقوة.

---

(١) ابن العبري، ص٤٧٣- ٤٧٤. و D' Ohsson, Tome III, pp. 232, 234 . و Howorth, Vol I, p. 199. و Quatremere, pp. 283- 285.

ثم اشتد حماس القوات المغولية المواجهة لباب السلطان على أثر لوم هولاكو لها على تكاسلها، فهاجمت السور المواجه لها واستولت عليه وأصبح بذلك جميع السور الشرقي في قبضة المغول. ومما تجب ملاحظته أن المغول حين كانوا يهاجمون السور الشرقي لجأ هولاكو إلى إضعاف الروح المعنوية في أهل بغداد في الوقت الذي قوى فيه الروح المعنوية في جنوده، وقد استعمل لهذا الغرض نشرات ثبتها في سهام رمي بها داخل الأسوار وفيها يقول:

"ليتأكد القضاة والعلماء والشيوخ والشيعة والتجار وكل من لا يحمل سلاحًا ضدنا أننا سنصون حياتهم[1]".

وبعد أن سيطر المغول على الأسوار الشرقية أرادوا أن يجعلوا إشرافهم على الجهة الغربية تامًا، حتى لا يتمكن أحد من المحاصرين أن يجد له مهربًا وحتى لا يترك الباب مفتوحًا أمام أهل بغداد ليستمدوا العون من خارجها، فأمر هولاكو بإقامة جسرين من القوارب المسلحة على نهر دجلة شمالي بغداد وجنوبها،

(١) ابن العبري، ص ٤٧٤. و D' Ohsson. Tome III, pp. 233- 234 .
و Howorth, Vol. I p. 199. و Quatremere, pp. 183- 289.
و Coke, Baghdad the City of peace, p. 147.
و Osborn, Islam Under The Caliphs of Baghdad, p. 392.

كما أمر بإقامة حواجز من الأتربة على شاطئ النهر ووضع العرادات عليها، هذا إلى أنه أمر بوضع قوات تشرف على الطرق الموصلة إلى البصرة وعهد إلى بغاتيمور ومعه عشرة آلاف بحراسة طريق المدائن، وكانت هذه الاحتياطات التي اتخذها المغول في محلها. إذ إن الدفتردار الصغير حين رأى أن المغول يضيقون الدائرة على بغداد أراد أن يقنع الخليفة بالفرار عن طريق قناة دجيل والفرات فلما أخفق عوّل على الهرب وحده وسار في دجلة نحو الجنوب؛ ولكن القوات المغولية ردته بوابل من الحجارة وبمقذوفات النفط بعد أن استولت على ثلاثة من القوارب التي كانت ترافقه وبعد أن أفقدته كثيرًا من أتباعه(١).

وعلى كل حال، فإن حلقة الحصار أصبحت كاملة حول بغداد ولم يبق أمامها إلا طريق واحد هو التسليم.

(١) D' Ohsson, Tome III, p. 235 . و Quatremere, p. 291.
و Coke, Baghdad the city of peace, p. 146.

(٥) سقوط بغداد:

منذ تجمعت القوات المغولية حول بغداد وبدأت في حصارها، أحس الخليفة المستعصم بالخطر الكبير الذي يهددها وبدأ يفكر في إنقاذها. وقد اتبع لهذه الغاية طريقة استمالة هولاكو واسترضائه، فأرسل في أول الأمر وزيره ابن العلقمي وأمره بأن يقول لهولاكو باسمه: "طلب مني الأمير المغولي إرسال وزيري وهأنذا اليوم أقتنع بما طلب مؤملا أن يحفظ الأمير كلمته" وقد رمى بذلك إلى إقناع هولاكو بإرسال الوزير إليه والرجوع من حيث أتى. وكان مع الوزير بطريق نساطرة بغداد أرسله الخليفة عندما علم بأن لهولاكو زوجة مسيحية. ولكن هولاكو رد عليه بقوله: "عندما وعدت هذا الوعد (وهو الرجوع إذا أرسل الخليفة وزيره) كنت لا أزال تحت أسوار همذان، أما الآن وأنا أعسكر أمام بغداد وقد أصبح بحر المشاكل والعداوة في أشد الهيجان كيف أكتفي باستقبال أحد كبار رجال الدولة. يجب أن يرسل الخليفة رؤساء حكومته الثلاثة الوزير والدفتردار وسليمان شاه". وفي اليوم التالي أرسل الوزير وتسعة من حاشيته وعدد من أشهر كبار رجال بغداد، ولكنه لم يصل إلى غرضه أيضًا وردهم هولاكو دون أن يعيرهم أي اهتمام[1].

(١) D' Ohsson, Tome III, pp. 233- 234 . و Howorth. Vol. I, p. 199 . و Quatremere, p. 283.

ولما ضيق المغول الخناق على بغداد وحاصروها من جميع جهاتها ولم يمكنوا الدفتردار من الهرب كما تقدم فكر الخليفة مرة أخرى في استمالة هولاكو وأرسل نخر الدين الدامغاني وابن درنوش ثم ابنه الأوسط أبا الفضل عبد الرحمن وكثيرًا من رجال حكومته يحملون الأموال الكثيرة. وفي اليوم الثالث الموافق آخر المحرم سنة ٦٥٦هـ (٦ فبراير سنة ١٢٥٨م) أرسل الخليفة ابنه الأكبر ومعه الوزير وعدد من أشهر رجال الحاشية، ولكن هولاكو لم يسمع لهم وردهم جميعًا وفدًا بعد الآخر يجرون أذيال الخيبة والفشل وطلب من الخليفة إرسال الدفتردار الصغير وسليمان شاه، وهكذا لم تفلح الطرائق التي اتبعها الخليفة لاستمالة هولاكو نهائيا(١).

فهم الخليفة فشله هذا وعرف في الوقت نفسه أن هولاكو مصمم على اتباع طريق العنف فبادر إلى إجابة طلباته حتى يسلم من أذاه على الأقل، فأرسل إليه في أول صفر سنة ٦٥٦هـ (٧ فبراير سنة ١٥٢٨م) الدفتردار الصغير وسليمان شاه فكان ذلك أول خطوة في سبيل التسليم.

---

(١) D' Ohsson. Tome III, pp. 235- 236. و Howorth. Vol. I, p. 200. و Quatremere, p. 295.

وقد خالف ابن العبرى (ص٤٧٤) المؤرخين السابقين حين ذكر أن الدفتردار عاد من الطريق بحجة أنه يرجع ويمنع المقاتلين في الدروب والأزقة؛ لئلا يقتلوا أحدا من المغول.

ولكن هولاكو رأى أن الفرصة سانحة وأن في إمكانه أن يصل إلى درجة أبعد فأعاد الدفتردار الصغير وسليمان شاه إلى المدينة وطلب منهما الرجوع إليه ومعهما أتباعهما، ولما عادوا إليه ومعهما الأتباع الذين خرجوا من المدينة على أمل السير إلى سورية أمر بالأتباع فوزعوا على الجند المغولي وقتلوا أفظع قتلة ثم قتل الدفتردار الصغير وابنه كما قتل سليمان شاه بعد أن أنبه على مسلكه، وكان مما قاله له: "وأنت يا من تعرف سير النجوم (فقد كان فلكيًا) وما يقع من خير وشر لِمَ لَمْ تعرف يوم مصرعك وتنصح سيدك وتدعوه إلى المسالمة" ثم أرسل رؤوس الثلاثة إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصديق سليمان شاه ليعلقها في مجلسه[1]. وهكذا، لم يحل تساهل الخليفة دون وقوع الكوارث المتوالية برجاله ورعيته.

ويجب أن نلاحظ أن قتل سليمان شاه والدفتردار وأتباعها كان له أثر كبير في سير الأمور فيما بعد، ولم يقتصر هذا الأثر على تصرفات أهل بغداد إزاء المغول بل تعدى ذلك إلى تصرفات الخليفة نفسه. أما أهل بغداد فقد دب الرعب في قلوبهم على أثر هذا الحادث وطارت نفوسهم شعاعًا، فأخذ فريق منهم يختبئ في المغارات وفي أفرن الحمامات، كما خرج بعض كبرائهم من المدينة ليعرضوا تسليمها على هولاكو وليعدوا بأن الخليفة أراد بإرسال أولاده أولا أن يحضر بشخصه بعد ذلك.

(١) Howorth, Vol. I, p. 200, D' Ohsson, Tome III, pp. 236- 238. , Quatremere, p. 295.

وقد ذكر ابن العبري[١] أن الذين خرجوا من بغداد في هذه المهمة هم شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني وأن أهل بغداد هم الذين أرسلوهم. ولم يسمع لهم هولاكو ولم يجب طلبتهم، خصوصًا عندما أصابت سهم طائشة خارجة من داخل المدينة عين سكرتيره هندو، بل أمر نصير الدين الطوسي أن ينصب خيامه أمام باب الحلبة ليستقبل من يسلم منهم ثم لم يلبث حين تجمع منهم عدد كبير أن أمر بقتلهم[٢].

أما الخليفة المستعصم، فقد تسرب الخوف إلى نفسه على أثر قتل الدفتردار وسليمان شاه وأتباعهما ولم يلبث حين رأى هولاكو يقتل من خرج إليه من أهل المدينة، أن تحقق مصير بغداد وأهلها، ورأى أن كل شيء لا بد ضائع، خصوصًا وأنه أراد أن يستعين بالوزير فلم يجد منه معينا بل وجد منه مثبطا لهمته ومدخلا لليأس في نفسه. وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قال له عندما سأله عما يصنعه في هذا الموقف الحرج:

يظنون أن الأمر سهل وإنما هو السيفُ حدّت للقاءِ مضاربُه

(١) ابن العبري، ص ٤٧٤.

(٢) D' Ohsson, Tome III, p. 237., Quatremere, p. 397. .

و Osbron, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 393.

ولذلك لم يجد الخليفة بُدًّا من تسليم نفسه إلى عدوه وخرج من بغداد يوم الأحد ٤ من صفر سنة ٦٥٦هـ (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) ومعه أولاده الثلاثة أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك وثلاثة آلاف شخص من السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة وسلم نفسه إلى هولاكو[١].

أدى تسليم الخليفة المستعصم إلى سقوط بغداد في أيدي المغول، وذلك لأن هولاكو منذ رآه أراد أن يتخذه آلة لتحقيق هذا الغرض فقابله بالترحاب وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم، فأجابه الخليفة إلى ذلك وأرسل رسولا من لدنه نادي في طرقات بغداد على الناس أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار، ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو المغول فانقضوا عليهم وقتلوهم[٢].

ولم يكتف هولاكو بذلك بل أمر بردم الخنادق وإزالة أسوار المدينة، كما أمر بنصب جسر على دجلة، ولما تم له ذلك أمر القوات المغولية في شرق بغداد بدخول المدينة من الشرق، كما أمر القوات المغولية الموجودة على الشاطئ الغربي بعبور الجسر ودخول المدينة من الغرب،

---

(١) ابن العبري، ص٤٦٥. و D' Ohsson, Tome III, p. 238 .
و Howorth, Vol. I p. 200. و Quatremere, p. 299.

(٢) D' Ohsson, Tome III, p. 238. و Howorth, Vol. I p. 200.
و Quatremere, p. 299.

فدخلوها في يوم ٧ من صفر سنة ٦٥٦هـ (١٢فبراير سنة ١٢٥٨م) ووزعوا أنفسهم على محلاتها وظلوا فيها أسبوعًا تاركين لأنفسهم العنان، فخربوا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبة وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية النادرة وخربوا المكاتب وأتلفوا الكتب التي بها إما بإحراقها أو برميها في دجلة، كما قتلوا معظم أهل المدينة دون أن يستثنوا امرأة أو طفلا ودون أن يعطفوا على مريض أو يقدروا عالمًا[١].

وكان استهتار المغول بالنفوس بالغًا أشده فقتل اثنان منهم ناءا حملا بما جمعا من الأسلاب رجلا قابلهما في الطريق وشقا جوفه لا لشيء إلا ليتخذاه أداة لحمل ما معهما، كما دخل أحدهم زقاقا وقتل أربعين طفلا شفقة منه ورحمة حين علم أن أماتهم قتلن من قبل[٢].

ولذلك فإن المؤرخين يبالغون في تعداد الأنفس التي أزهقوها حين دخلوا بغداد، فمنهم من قدرها بمليون وثمانمائة ألف نفس[١] ومنهم من قدرها بمليون نفس[٢] وفريق ثالث قدرها بثمانمائة ألف نفس[٣]،

---

(١) أبو الفدا- المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٠٣.

. Howworth, Vol. I, p. 200.و D' Ohsson, Tome III, pp. 239, 241

و Quatermere, p. 301.

و Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 401.

(٢) . Richard Cike, Baghdad the City of peace, p. 146

(١) الذهبي- دول الإسلام ج٢، ص١٢٣ والديار بكري- الخميس ج٢ ص٤٢٠.

(٢) فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٧ والسيوطي- تاريخ الخلفاء، ص١٨٩.

(٣) . D' Ohsson, Tome III, p. 241. , Howorth, Vol. I, p. 200.,

.Coke, Baahdad, p. 148., Browne, Lit, Hist, Vol. II, p. 463.,

بل وهناك من قدرها بألفي ألف نفس[١]. ومما لا شك فيه أن المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة، كما أن الثروة الأدبية والفنية التي سهر على جمعها خلفاء بني العباس منذ اتخذوها عاصمة لهم ضاعت وأصبحت أثرًا بعد عين[٢].

هذا ولم ينفرد جنود المغول دون رئيسهم بارتكاب ما ارتكبوه من الفظائع، بل إن هولاكو شاركهم وزاد عليهم فدخل بغداد الشرقية حين دخلوها وأقام معسكره في محلة المأمونية حتى إذا كان يوم ٩ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٥ فبراير سنة ١٢٥٨م) ذهب هو وأمراؤه إلى قصر الخليفة المستعصم الذي كان يرافقهم ونهبوه وأذلوا صاحبه وقتلو الأنفس البريئة التي تقيم فيه، وكان سلوك هولاكو في ذلك اليوم سلوكًا سيئا تتجلى فيه قلة الذوق والوحشية إذ بدأ عمله بأن طلب من الخليفة أن يقدم له ولأمرائه ما يليق بهم وهم ضيوف في قصره،

ولما أتى له بألفي كساء وعشرة آلاف قطعة ذهبية وبعض الأحجار الكريمة وحليًا من أصناف مختلفة، أخذها منه بازدراء وقدمها إلى أتباعه وقال له: "إن الكنوز التي تملكها والتي توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها وهي تحت تصرفي وتصرف أتباعي،

---

(١) المقريزي- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤١٠.

(٢) Browne, Literary History of persia, Vol. II, p. 463 .

إنما ما نريده هو أن تظهر لنا ثروتك المدفونة وتبين لنا موضعها" ولما أخبره الخليفة أن وسط القصر جرة مملوءة بالذهب أمر بالحفر في الموضع الذي عينه. وقد وجدوا بها عددًا كبيرًا من القطع الذهبية التي تزن الواحدة منها مائة مثقال. هذا إلى أنه جرد القصر من سبعمائة جارية كانت به وألف خصي ولم يدع للخليفة إلا مائة جارية فقط من هذه الجواري.

أما في اليوم التالي، فقد أرسل سنجاك أحد القواد المغول الذين كانوا في صحبة بيجونويان عندما هاجم بغداد من الغرب إلى القصر فجمع ما به من ثروة اقتناها الخلفاء العباسيون في مدة خلافتهم الطويلة وعاد بها إلى حيث وضعت حول خيمة هولاكو فصارت كجبل قائم[1].

ولم تقف أعمال هولاكو القاسية عند هذا الحد، بل إنه بعد ذلك بعدة أيام (١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ)= (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) وفي الوقت الذي أمر فيه جند المغول بالكف عن أعمال النهب والقتل في بغداد على أثر مقابلته لوفد ممن بقي في قيد الحياة من أهلها، على رأسه شرف الدين المراغي وشهاب الدين الونجاني، ارتكب أكبر جرائمه بقتله الخليفة المستعصم وولده الأكبر أبا بكر

(١) ابن العبري، ص٤٧٥.
و D' Ohsson, Tome III, pp. 239- 240.
و Quatremere, pp. 301- 303.,

وخمسة من خصيانه المخلصين الذين لم يتركوه عندما نزلت به المصائب، وكان ذلك في قرية وقف، في مساء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) [١].

وقد كتب عن مسألة قتل الخليفة المستعصم كثير من مؤرخي العرب والفرس والفرنجة، ويظهر الخلاف بينهم حين يتناولون تحديد تاريخ هذا القتل أو طريقته، فالمؤرخون من العرب يذكرون أن القتل حدث في المحرم سنة ٦٥٦هـ دون أن يحددوا اليوم الذي قتل فيه[٢] بينما الفرس يذكرون أنه حدث مساء يوم ١٤ من صفر سنة ٦٥٦هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) وعنهم يأخذ الفرنجة[٣].

ويظهر الخلاف بين هؤلاء المؤرخين كذلك في الطريقة التي قتل بها الخليفة، فيقول بعض مؤرخي العرب إنه قُتِل رفسًا، ويقول البعض إنه وضع في عدل ورفس حتى مات، كما يذكر البعض الآخر أنه خنق، ويقول غير هؤلاء إن جسمه مزق إربًا، كما يذكر غيرهم أنه لُفّ في بساط وألقي في دجلة[١].

---

(١) D' Ohsson, Tome, III, pp. 241- 242. و Quatremere, p. 305.
و Howorth, Vol. I, p. 200.

(٢) فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٧. والخميس ج٢، ص٤٢٠.

(٣) D' Ohsson, Tome III, p. 242. Howorth, Vol. I, p. 201 .
و Quatremere, p. 302.

(١) أبو الفدا، ج٣، ص٢٠٣ وفوات الوفيات ج١ ص٢٣٧ والخميس ج١، ٤٢٠ وتاريخ الخلفاء، ص١٨٩.

أما مؤرخو الفرس والأرمن ومن أخذ عنهم من مؤرخي الفرنجة، فقد ذكروا عن الطريقة التي قتل بها الخليفة أن هولاكو وضع أمامه شيئا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وطلب منه أن يأكلها إذا أراد بعد أن وضعه في حجرة مغلقة[1]. وعلى كل حال، فإن هذه المسألة غامضة ولعل غموضها يرجع إلى أن هولاكو أخفى عن الناس قتل الخليفة ردحًا من الزمن فلم يقفوا على الطريقة التي لقي بها حتفه، أو إلى أن هذا الحادث كان شديد الوقع على المؤرخين من العرب فأدهشهم وحال بينهم وبين تدوينه، وقد جاء هذا الرأي في كتاب فوات الوفيات حيث ذكر ما نصه "توفي الخليفة في أواخر المحرم سنة ٦٥٦هـ وما أظنه دُفِن، وكان الأمر أعظم من أن يوجد من يؤرخ موته أو يواري جسده"[1].

هذا وقد اعتمدت عند الكلام على حوادث الحصار المغولي على التواريخ التي ذكرها مؤرخو الفرس ومن أخذ عنهم من الفرنجة، وذلك لأنها تتفق وحوادث الفتح ولأن مؤرخي العرب لم يحددوا التاريخ الذي وقعت فيه هذه المأساة للسبب الذي أدلى لنا به ابن شاكر.

---

(١) D' Ohsson, Tome III, pp. 244- 246.Coks,Baghdad, pp. 151- 152. و Browne, Literary History of persia, Vol. II, p. 463.

(١) فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٧.

أما فيما يختص بطريقة قتل الخليفة، فلا أرى داعيًا إلى الأخذ برأي دون رأي، وحسبي أنني تعرضت لذكر هذه الآراء على اختلافها.

ولم يكن قتل هولاكو للخليفة المستعصم راجعًا إلى كراهة شخصية، بل كان للتخلص منه باعتباره عدوًا سياسيًا كان في بقائه في قيد الحياة خطر كبير، يهدد نفوذ هولاكو وسلطانه في بلاد العراق. لذلك نجده يأمر في اليوم التالي بتعقب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعًا، ويقال إنه ظفر ببغيته هذه ولم ينج من أفراد هذه الأسرة المنكوبة إلا أصغر أبناء الخليفة واسمه مبارك شاه، وكان ذلك بناء على طلب زوجة هولاكو، وقد أُرسِل إلى الشرق حيث تزوج من مغولية، وممن نجا أيضًا ابنة الخليفة التي أرسلت إلى الخاقان مانجو والتي يقال إنها عندما وصلت إلى سمرقند استأذنت المرافقين لها في أن تزور قبر قثم بن العباس[1]. ولما أجابوها إلى طلبها وقفت على القبر وقالت: "ربي، إذا كان لقثم بن العباس عندك قدر فاقبض عبدتك إليك ونجّها من أيدي هؤلاء الناس" واستجاب لها ربها وسقطت على القبر ميتة[2].

(١) هو قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم أخو عبد الله بن العباس، خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان إلى سمرقند فاستشهد هناك (الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢، ج٥، ص٣٣١).

(٢) D' Ohsson, Tome III, pp. 244- 246, Coke, Baghdad, p. 151 .

وكانت واقعة بغداد وقتل الخليفة من أعظم الوقائع، قال الشيخ شمس الدين الكوفي يذكر خراب بغداد وينوه بقتل الخليفة وأسرته:

عندي لأجلِ فِراقِكُم آلامُ ... فإلامَ أعذَلُ فيكُمُ وألامُ
مَن كان مِثلي للحبيبِ مُفارقًا ... لا تعذِلوه فالكلام كلام
قفْ في ديارِ الظاعنين ونادِها ... يا دارَ ما صنعتْ بِكَ الأيامُ
يا دارُ أينَ الساكنونَ وأين ... ذيّاكَ البهاءُ وذلكَ الإعظام
يا دارُ أينَ زمانُ ربعِكِ مونِقًا ... وشعارُك الإجلالُ والإكرام
يا دار مُذْ أفَلَتْ نجومُكِ عَمَّنا ... واللهِ مِنْ بَعدِ الضياءِ ظلامُ
فَلِبُعدِهِم قَرُبَ الرّدى ولِفقدِهِم ... فُقِدَ الهُدى وتزلزلَ الإسلامُ
فمتى قبلتِ من الأعادي ساكنًا ... بعدَ الأحِبّةِ لا سقاكِ غمام

كما ذكر أيضًا يرثي أهلها[1]:

إنْ لم تقرّحْ أدمُعي أجفاني ... مِن بَعدِ بُعدِكُمُو فما أجفاني
إنسانُ عيني مُذْ تناءتْ دارُكم ... ما راقَهُ نَظَرٌ إلى إنسانِ
ما للمنازلِ أصبحتْ لا أهلُها ... أهلي ولا جيرانُها جيراني
وحياتُكُم ما حلّها من بعدِكم ... غيرُ البِلى والهدمِ والنيرانِ
مالي أرَدّدُ ناظريّ ولا أرى ... الأحبابَ بينَ جماعةِ الإخوانِ

(١) فوات الوفيات ج١، ص٢٣٧- ٢٣٩.

وبعد أن استولى الجيش المغولي على بغداد ونهبها وقتل سكانها وبعد أن قتل هولاكو الخليفة وأعوانه وأفراد أسرته، أصبح الأمر في هذه المدينة لهولاكو. ولذلك نجده في نفس اليوم الذي تخلص فيه من الخليفة يعين الحكام فيها وفيما جاورها من البلاد، فيجعل على بهادور حاكمًا عليها ويحتفظ لابن العلقمي بالوزارة ويجعل نخر الدين الدامغاني صاحب الديوان ويسلم أحمد بن عمران إدارة المناطق الواقعة شرق بغداد، ويعين نظام الدين عبد المؤمن قاضيًا للقضاة[١].

هذا وقد كان في عدم ذكر الخليفة في الخطبة في يوم الجمعة التالي لوقوع بغداد في أيدي المغول[٢] اعتراف ضمني بالأمر الواقع زاده تأكيدًا تلك الفتوى التي أصدرها علماء الشريعة الإسلامية في الاجتماع الذي عقدوه في المدرسة المستنصرية، حيث طرح عليهم هولاكو هذا السؤال: "أيهما أفضل: السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟"، وأفتوا بأن الكافر العادل يجب أن يفضل على المسلم الجائز[١].

وأحب أن أنوه في هذا المقام بأن علماء المسلمين حين أفتوا بأن الكافر العادل يجب أن يفضل على المسلم لمصلحة القوى تحت ضغط الخوف ولم يكن موقفهم هذا فريدًا في بابه،

---

(١) D' Ohsson, Tome III, pp. 246- 248.
و Howorth, Vol. I, p. 201. و Quatremere, p. 309.
(٢) D' Ohsson, Tome III, pp. 250- 254.
(١) Ibid, pp. 254- 255.

بل إن التاريخ يوضح لنا أن الناس دائمًا يميلون مع القوة على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ومراكزهم، وإلا فكيف نفسر موقف الباب زخارياس Zacharias حين أرسل إليه بيبين Pippin ابن شارل مارتل Charle Martei حاجب قصر الفرنجة وصاحب الأمر والنهي في المملكة يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكًا: أهو صاحب اللقب الذي لا قوة عنده أم صاحب القوة الذي لا يحوز لقبًا؟ ورد عليه بأن صاحب القوة يجب أن يحوز اللقب أيضًا ويصبح ملكًا. وبذلك شجعه على خلع آخر ملك من الفرع الميروفنجي Merovingians الذي أسسه كلودويج Cloduig ملك الفرنجة المتوفى سنة ٥١١م والقضاء على حق موروث بالقوة القاهرة سنة ٧٥١م[١].

ولو أن هولاكو لم يكن مطمئنا إلى أن بغداد قد أصبحت في قبضة المغول نهائيا، لما رفع معسكره من جوار قرية وقف في يوم الجمعة ٣٠ من صفر سنة ٦٥٦هـ (٨ مارس سنة ١٢٥٨م) ليصل بعد نحو خمسة أسابيع (١١ ربيع الآخر= ١٧ أبريل) قرب همذان، غير تارك في بغداد سوى ثلاثة آلاف فارس مغولي على رأسهم الكانويان وقره بقا Cara Boca[٢].

---

(١) Thatchor & Schwill, A General History of Europe, Vol. I, p. 42 .

(٢) D' Ohsson, Tome III, pp. 248, 256 . و Quatremere p. 309.

(و) إتمام فتح العراق:

بعد فتح بغداد لم تبق أمام المغول أية مقاومة في العراق، وقد ذكر لنا المؤرخون أن أهل حلة من الشيعة أرسلوا إلى هولاكو وهو يحاصر بغداد يقدمون خضوعهم ويلتمسون إرسال حاكم عليهم من قبله ويذكرون له أن الأحاديث التي تناقلوها عن الإمام علي والأئمة الاثني عشرية تؤكد نجاحه في القضاء على الخليفة العباسي. ويذكر المؤرخون أيضًا أن هولاكو أجابهم إلى ما طلبوا وأرسل إليهم بغاتيمور زوج أخته على رأس قوة مغولية حتى يتأكد من إخلاصهم، وأنهم قابلوه بالترحاب وأقاموا على الفرات جسرًا عبر عليه هو ومن معه إلى بلدهم. وقد اقتنص بغاتيمور هذه الفرصة ليخضع جنوب العراق لسلطان المغول فسار إلى واسط وحاصرها بقواته في ١٧ صفر سنة ٦٥٦هـ (٢٣ فبراير سنة ١٢٥٨م).

ولما قاومته فتحها بالقوة وقتل الكثيرين من أهلها، وقد ذكروا أن عدد القتلى بلغ أربعين ألفًا. وبعد ذلك استولى على تستر والبصرة وغيرها من البلاد. ثم رجع إلى بغداد في ١٢ ربيع الأول من نفس السنة، بعد أن أتم فتح العراق العربي وانضم إلى القواد الذين تركهم هولاكو في بغداد[١].

---

(١) D' Ohsson, Tome III, pp. 254- 256. Howorth, Vol. I, p. 202 و Quatremere, p. 311 و.

الفصل الثالث

موقف أهل بغداد من الفتح

رأينا فيما تقدم أن أهل بغداد كانوا طوائف مختلفة، منهم أهل السنة والشيعة والنصارى واليهود، كما رأينا أن لكل طائفة ميولا خاصة بها ومركزا يختلف عما لسواها. وسنرى فيما يلي أن موقف كل طائفة من هذه الطوائف إزاء غارة المغول اختلف تبعًا لميولها ومصالحها. أما أهل السنة الذين كانوا يكوّنون السواد الأعظم من الأهلين فقد دافعوا دفاع المستميت خوفا على نفوذهم، وأما من كان يجد في الحالة الراهنة عبئا عليه فقد اقتنص هذه الفرصة ليحرر نفسه من القيود ويتخلص من هذا العبء. والآن سنتناول الكلام بشيء من الإيجاز عن موقف كل من هذه الطبقات.

١. موقف أهل السنة

كانت هذه الطائفة هي صاحبة الأمر في بغداد لأن مذهبها هو مذهب الخليفة العباسي صاحب الأمر والسلطان، وكانت تعتبر سقوط بغداد سقوطًا لها وضياعًا لنفوذها؛ لذلك كانت هى التي وقفت أمام المغيرين وهي التي لاقت من ظلمهم الشيء الكثير. وقد كان رأس هذه الطائفة الخليفة المستعصم وأتباعه الدفتردار الصغير وسليمان شاه. وإذا أردنا أن ندرس موقف هذه الطائفة وجب أن نتكلم عن موقف كل من هذه الشخصيات الثلاث لأن الجميع كانوا يسيرون وراءهم ويأتمرون بأمرهم.

(أ) **الخليفة المستعصم:**

أما الخليفة المستعصم فكان تقيًا طيب القلب إلا أن آفته كانت في ضعف إرادته وانقياده لأتباعه وتردده، وهو من هذه الوجهة كلويس السادس عشر والتبعة التي تقع عليه في سقوط بغداد كالتبعة التي تقع على لويس السادس عشر في قيام الثورة الفرنسية. فكما أن آباء لويس السادس عشر أورثوا له عوامل الثورة الفرنسية، كذلك أورث الخلفاء السابقون عوامل ضعف الدولة العباسية وانهيارها للمستعصم. وكما أن لويس السادس عشر ارتكب بضعف إرادته وتردده وانقياده للملكة ماري أنطوانيت والأشراف أغلاطا جرّت عليه الثورة من الشعب وفقدان ملكه وحياته،

كذلك المستعصم بانقياده للدفتردار الصغير وسليمان شاه وضعف إرادته جرّ على نفسه وعلى الإسلام الدمار. ولو أنه نفذ نواياه وجرى على خطة اختطها لكان من الجائز أن تتخذ الحوادث مجرى غير الذي سلكته. فقد كان من أول الأمر ـ وعندما وصل إليه خطاب هولاكو يعتب عليه فيه عدم مساعدته له ضد الإسماعيلية ويدعوه إلى التسليم – يتفق مع وزيره ابن العلقمي في ضرورة مسالمة المغول واستمالتهم بالمال، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى عدل عن رأيه هذا بسبب تردده وانقياده واتبع رأي الدفتردار الصغير وسليمان شاه الذي يقضي بمقاومة المغول، ولذلك نجده يرسل خطابه الثاني المملوء بعبارات التهديد إلى هولاكو، ثم يتابع سياسة العداء ويقدم بذلك إلى هولاكو تكئة يعتمد عليها في تبرير خطته التي ترمي إلى القضاء على الدولة العباسية أمام الخان الأعظم مانجو الذي أوصاه بعدم مهاجمة الخلافة العباسية إلا إذا وقف الخليفة منه موقف العداء والحرب كما تقدم.

ولو أن الخليفة المستعصم كان قوي الإرادة حازمًا لما ضره أن يأخذ برأي الدفتردار وسليمان شاه الذي كان يقضي بضرورة المقاومة، لكنه وقد عرف بالطيبة والضعف والبخل قد أخطأ خطأً عظيما حين اتبع مشورتهما. ويتجلى ذلك من مجرى الحوادث، فقد أمر الوزير وهو لا يزال متحمسًا لفكرة الدفتردار وسليمان شاه بجمع الجند استعدادًا لملاقاة المغول، ولكنه بعد ذلك حين عاد إلى حالته الطبيعية وأخبره الوزير بأنه قد جمع الجند وأنهم ينتظرون توزيع

الأموال عليهم عاد فأهمل أمر التعبئة ولم يتكون الجيش اللازم لصد الأعداء[١]. أضف إلى ذلك أنه بميله إلى الكسل وضيق نظره كان يضيّع الفرص إذا واتته، وليس أدل على صحة ما نقول من أنه لم يحرك ساكنا حين أخذ هولاكو يمهد الأمر لغزو بغداد واستمال حسام الدين حاكم مدينة ديرتنك وما جاورها. وعلى الرغم من عمل حسام الدين هذا للتقرب من الخليفة وتكليفه ابن صلايا صاحب أربل بالتوسط بينهما، فإنه لم يطب للأمر وأضاع هذه الفرصة الذهبية - فرصة كسب صاحب ديرتنك الذي كان في مقدوره أن يقف في وجه المغول ويحول دون مواصلتهم السير إلى بلاده ولو إلى حين[٢].

كذلك كان من أثر تردد الخليفة وضعف إرادته ضياع حياته، لأنه حين استولى المغول على الأسوار الشرقية وأمر هولاكو بإقامة جسرين على دجلة شمالي بغداد وجنوبها وبذلك ضيق على بغداد الخناق، عرض الدفتردار عليه فكرة الفرار عن طريق قناة دجيل والفرات ولكنه لم يبت في الأمر، مما جعل الدفتردار يفكر في الفرار وحده على ما ذكرنا سابقا، هذا إلى أن تباطؤ الخليفة وبقاءه في بغداد في الوقت الذي كان فيه المغول يشددون في حصارها كان معناه ضرورة تسليمه لهم في يوم من الأيام ما دام لا يبدي نشاطًا يستحق الذكر.

---

(١) D' Ohsson, Tome III, p. 221 . و Quatremere, p. 249.

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 222- 224 .و Quatremere, pp. 255- 257.

(ب) **الدفتردار الصغير:**

كان الدفتردار الصغير رجلا أنانيًا يعمل لمصلحته، وقد اتبع طرائق شاذة حتى نال الحلوة عند الخليفة وأصبح أمره نافذا في شئون الدولة، فجمع الأوباش والعيارين حوله وأخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة ويأتي بالأعمال المنكرة. ولكن موقفه إزاء الفتح لا غبار عليه. فقد سار من أول الأمر على رأس جيش الخليفة لانتظار هولاكو على حدود العراق الشرقية وصده عند اللزوم، وعسكر بين بعقوبا وباجسرا، ولكنه رجع بهذه القوات قبل ملاقاة هولاكو عندما علم بأن بيجو نويان وزملاءه قد عبروا دجلة عند تكريت ويمموا شطر بغداد الغربية، ولاقى جماعة من المغول وعلى رأسها سنجاك وهزمهم عند الأنبار ثم تبعهم حتى منطقة دجيل حيث دارت بينه وبين قوات بيجو نويان وزملائه معركة انتصر فيها أولا ولكنه اضطر إلى الفرار والرجوع إلى بغداد، حين علم بأن المغول قد لجأوا إلى الحيلة وأغرقوا معسكره ليلا[1].

وقد ظل الدفتردار الصغير ببغداد الشرقية حتى ضيق هولاكو عليها الخناق ففكر في الفرار، وبعد أن فشل في إقناع الخليفة بالفرار معه دبر أمر الفرار وحده وسار عن طريق دجلة جنوبًا ولكن المغول كانوا قد اتخذوا الحيطة فأحبطوا عمله[2].

---

(١) D' Ohsson , Tome III, pp. 230- 232 .و Quatremere, p. 281.

(٢) Ibid, pp. 291- 293 .و D' Ohsson, Tome III, p. 235 .

ولو أنه نجح في الفرار، لكان من المحتمل أن يجمع جيشًا لمناوأة المغول في غير بغداد، ولكن فشله قد جعل خضوع العراق أمرًا محتومًا بعد سقوط بغداد. وقد تبع ذلك خروج الدفتردار مع سليمان شاه في أول يوم من صفر سنة ٦٥٦هـ وذهابه إلى هولاكو تنفيذا لأوامر الخليفة ثم قتله هو وابنه في اليوم الثاني على ما ذكرنا.

(ج) **سليمان شاه:**

لا يختلف الدور الذي قام به سليمان شاه عن الدور الذي قام به الدفتردار الصغير، فقد كان سليمان شاه رجلا عسكريًا أقنع الخليفة بضرورة مقاومة هولاكو، وكان مما قاله له إنه مستعد للدفاع عن البلاد ضد المغول، وأن "أعز شيء للرجل الشجاع أن يموت وسط القتال"، ولذلك عينه الخليفة قائدًا للجيش ووكل إليه أمر الدفاع[1]. وقد اشترك مع الدفتردار الصغير في الوقائع التي تقدمت الإشارة إليها كما قتل على يد هولاكو في يوم ٢ من صفر سنة ٦٥٦هـ وقتل معه سبعمائة من أتباعه.

(١) D' Ohsson, Tome III, p. 220 و. Quatremere, p. 244.

٢. موقف الشيعة

أما الشيعة فكان موقفهم إزاء الفتح من أسوأ المواقف، لم يراعوا معاملة العباسيين لهم بالحسنى طوال مدة خلافتهم ولم يراعوا أن العراق وطنهم يجب الدفاع عنه أمام غارة المغيرين. وقد حاول بعض المؤرخين من الشيعة أن يدافع عن موقفهم الشاذ ويجد لهم عذرًا فذكر أنهم ثأروا لأنفسهم مما حل بهم من البلاء في الفتنة التي وقعت ببغداد سنة ٦٥٥هـ على أيدي أهل السنة ورجال الشرطة الذين هاجموا محلات الشيعة وارتكبوا كثيرا من الجرائم. ولكنني لا أجد في هذا ما يبرر عملهم. وأرى في الوقت نفسه أن أهل السنة وإن كانوا قد بطشوا بهم بعض البطش فليس ذلك ببالغ معشار ما ارتكبه الشيعة في أيام الدولة البويهية الشيعية، فقد قال هلال الصابئ: "كانت طائفتهم (يقصد طائفة الشيعة) قد أسرفت بالتبسط والتسلط وركوب المنكرات وإتيان المحظورات" (١).

بدأت نوايا الشيعة في الظهور عندما رأوا قوات المغول تطوق بغداد. فقد بذلوا كل ما في استطاعتهم لمساعدتهم في هجومهم، كما أن المقيمين منهم في حلة أرسلوا إلى هولاكو وهو يحاصر بغداد وفدًا يحمل رسالة يذكرون فيها أنه لا بد منتصر على الخليفة، طبقا لحديث أثر عن الإمام عليّ والأئمة الاثني عشرية ويطلبون منه أن يعين حاكمًا عليهم.

(١) هلال الصابئ- ذيل الذيل لتجارب الأمم، ص٣٣٩.

وقد أجابهم إلى ما طلبوا وأرسل إليهم بغاتيمور أخا أولجاي خاتون زوجته ليتبين حقيقة ميولهم، فقابلوه بالترحاب وأقاموا له جسرا على نهر الفرات، كما كافأهم على مسلكهم هذا فوضع بناء على طلبهم مقابر عليّ والحسين تحت حراسة مائة جندي مغولي، في الوقت الذي قام فيه المغول بأعمال التدمير والنهب في بغداد [١].

وقد جاء في كتاب الخميس ما يأتي: "وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد من أن التتار يبذلون السيف في أهل السنة فجاء بخلاف ما أراد وبذلوا السيف في أهل السنة والرافضة كلهم[٢]" كما ذكر ابن شاكر الكتبي[٣] في معرض كلامه على الوزير مؤيد الدين بن العلقمي أيضًا "حكي أنه جالسًا بالديوان فدخل عليه بعض التتار ممن ليس له وجاهة راكبًا فرسه فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد، وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده، وقال له بعض أهل بغداد يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حمية وحميت الشيعة وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلقا (كذا في الأصل وصحتها خلق) لا يحصى وارتكبت الفواحش مع نسائهن، فقال بعد أن قتل الدوادار (الدفتردار) ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك".

---

(١) Quatremere, p. 311., Coke, Baghdad, p. 149.
Howorth, Vol. p. 202, D' Ohsson, Tome III, p. 255.

(٢) الخميس، ج٢، ص٤٢٠.

(٣) فوات الوفيات، ج٢، ص١٥٢.

ومعنى ذلك أن الشيعة قد حل بهم في أثناء الاضطرابات ما حل بأهل السنة، وهذا بعيد لا أصدقه خصوصًا إذا علمنا أن ميدان فظائع المغول كان بغداد الشرقية التي لم يسكنها الشيعة، كما نعلم أنه حين دخل المغول بغداد الغربية وتحول أهل السنة إلى بغداد الشرقية ظل هؤلاء الشيعيون في أماكنهم ولم يبرحوها. وليس من المعقول أن تكون العلاقة بين هولاكو والشيعة على ما ذكرنا في أثناء الحصار ثم لا يحميهم من جنده وهو الذي أرسل مائة من جنوده لحماية قبر من يتشيعون له، كما أنه هو الذي عين فخر الدين الدامغاني صاحب الديوان ببغداد ونظام الدين عبد المؤمن قاضيًا لقضاتها وهما من الشيعة. وعلى كل حال، فإنه إذا كان قد حل بالشيعة عنت ما، فإنه لا بد أن يكون قليلا بالنسبة لما حل بأهل السنة.

(أ) موقف الوزير ابن العلقمي:

ومما يوضح هذا الموقف الذي وقفته الشيعة ما فعله مؤيد الدين بن العلقمي وهو كما نعلم من أكبر الشخصيات البارزة فيهم. فإنه على الرغم من أنه كان وزير الخليفة المستعصم لم يسلم من وصمة الخيانة ولم ينزهه كثير من المؤرخين عما فعله غيره من الشيعة. وسنحاول فيما يلي أن نفصّل الكلام عن آراء المؤرخين في موقف ابن العلقمي من الفتح المغولي لبغداد ثم ندلي برأينا بعد ذلك.

١. المؤرخون الذين يتهمون ابن العلقمي بالخيانة وأقوالهم:

تنقسم المراجع الأصلية التي تكلمت عن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي إلى قسمين، أحدهما يحمل أصحابه وهم من الفرس والعرب على السواء على الوزير حملة شديدة ويتهمونه بالخيانة ولا يكادون يتركون شيئا في سبيل إلصاق هذه التهمة به. وهؤلاء يدينون بعقائد المذهب السني الذي يختلف عن المذهب الشيعي الذي يدين بعقائده الوزير، وهم في الوقت نفسه كثيرون، وليس من عجب في ذلك إذا علمنا أن العصر الذي تلا سقوط بغداد كان لا فيه كتاب إلا وعليه هذه العبارة: "لعن الله من لم يلعن ابن العلقمي". ومن بين هؤلاء المؤرخين ابن شاكر في كتابه فوات الوفيات وأبو الفدا في كتابه المختصر في أخبار البشر والديار بكري في كتابه الخميس في أحوال أنفس نفيس وابن خلدون في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر المشهور باسم تاريخ ابن خلدون والسيوطي في كتابه الخلفاء والمقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك والحافظ شمس الدين الذهبي في كتابه دول الإسلام، وهؤلاء كلهم من مؤرخي العرب[١].

ومنهاجي سراج صاحب كتاب طبقاتي ناصري وميرخند ووصاف الحضرة الذين كتبوا في حكم أحد المغول وهم من الفرس.

---

(١) يمكننا أن نضيف إلى هؤلاء القلقشندي فقد ذكر في كتابه صبح الأعشى ج٣، ص٢٧٧ أن الوزارة ظلت في الدولة العباسية حتى انقرضت بقتل التتار المستعصم سنة ٦٥٦هـ ثم قال "وزيره يومئذ مؤيد الدين بن العلقمي وقتله هولاكو ملك التتار بعد قتل المستعصم لممالأته على المستعصم مع التتار، غير أن القلقشندي متأخر كما أنه يخالف جميع المؤرخين في قوله إن هولاكو قتل ابن العلقمي.

ويتلخص رأي أصحاب هذا الفريق من المؤرخين في رمي ابن العلقمي بالتهم الآتية:

أولاً: أنه حث المغول على الاستيلاء على بغداد. وفي ذلك يقول المقريزي[١]: "إنه استجر التتار حتى كان ما كان"، ويقول أبو الفدا [٢]: "إنه أرسل إلى التتر أخاه يستدعيهم"، بينما يذكر ابن خلدون[٣] أن الوزير أوصى ابن الصلايا صاحب أربل وهذا أرسل كتابا إلى هولاكو وهو في طريقه إلى قلعة ألموت يستحثه للمسير إلى بغداد ويسهل عليه أمرها. أما ابن شاكر[٤]، فقد أظهر الوزير بمظهر الماكر الغادر حيث يقول: "إنه لما كان يكاتب التتار تحيل إلى أن أخذ رجلا وحلق رأسه حلقا بليغًا وكتب ما أراد عليه بالإبر ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه وقال إذا وصلت مرهم يحلق رأسك ودعهم يقرون (هكذا) ما فيه، ولم يهمل الذهبي إلصاق هذه التهمة بالوزير فذكر[٥]: "أنه أخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل".

(١) المقريزي- السلوك، ج١، ص٤١٢.
(٢) أبو الفدا، ج٣، ص ٢٠٢.
(٣) تاريخ ابن خلدون ج٥، ص٥٤٢.
(٤) فوات الوفيات ج١، ص١٥٢.
(٥) دول الإسلام ج٢، ص١١٩.

ثانياً: أنه مهد لانتصار المغول بأن أقنع الخليفة بإنقاص الجند ودعاه إلى بذل المال المتوفر من ذلك في استمالة المغول، وقد قال الديار بكري[1]: "فإن وزيره (يقصد المستعصم) ابن العلقمي الرافضي كان كتب كتابا إلى هولاكو ملك التيار في الدشت (هكذا) أنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك. وكان قد داخل قلب اللعين الكفر، فكتب هولاكو أن عساكر بغداد كثيرة فإن كنت صادقا فيما قلته وداخلا في طاعتنا فرّق عساكر بغداد ونحن نحضر. فلما وصل كتابه إلى الوزير دخل إلى المستعصم وقال إن جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة والعدو قد رجع من بلاد العجم والصواب أنك تعطي دستور الخمسة عشر ألفا من عسكرك وتوفر معلومهم، فأجابه المستعصم لذلك، فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الإقامة بها، ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفا من الديوان، ثم كتب إلى هولاكو بما فعل. وقال السيوطي[2] عند كلامه على الخليفة المستعصم: "وكان أبوه المستنصر قد استكثر من الجند جداً وكان مع ذلك يصانع التتار ويهادنهم ويرضيهم، فلما استخلف المستعصم كان خلياً من الرأي والتدبير فأشار عليه الوزير بقطع أكثر الجند وأن مصانعة التتار وإكرامهم يحصل به المقصود. ففعل ذلك".

ولم يخالفهم المقريزي[3] بل قال إنه قطع أرزاق الجند.

---

(١) الخميس ج٢، ص٤٢٠.

(٢) السيوطي- تاريخ الخلفاء، ص١٨٧.

(٣) المقريزي- السلوك- لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤١٣.

ثالثا: ولم يكتف أفراد هذا القسم الأول بإلصاق التهمتين السابقتين وهما مراسلة التتار واستدعاؤهم لفتح بغداد ثم التمهيد لهم بإنقاص جيش الخلافة، بل أضافوا إلى ذلك تهمة أشد ورموه في الصميم حين ذكروا أنه عندما استجاب المغول دعوته وجاءوا إلى العراق أخذ يساعدهم ضد الخلافة العباسية التي يتولى وزارتها بشتى الطرائق، فمن ذلك أنه كان إذا جاء خبر من التتار كتمه عن الخليفة وكان يطالع بأخبار الخليفة التتار[١]".

هذا إلى أنه أرسل أتباعه ليلا فقطعوا دجلة وأغرقوا معسكر الدفتردار الصغير[٢] وبذلك مكنوا المغول من الانتصار في منطقة دجيل بعد أن هزموا في الأنبار. وأهم من ذلك أنه أقنع الخليفة بالخروج من بغداد ومقابلة هولاكو كما أخرج منها كثيرًا من العلماء وكان بذلك سببًا في قتلهم وتسليم بغداد، وفي ذلك يقول أبو الفدا[٣]: "وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة،

---

(١) السيوطي- تاريخ الخلفاء، ص١٨٧.
(٢) الديار بكري- الخميس في أحوال أنفس نفيس ج٢، ص٤٢٠.
(٣) أبو الفدا- المختصر في أخبار البشر ج٣، ص٢٠٢.

ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان بينهم محيي الدين ابن الجوزي وأولاده، وكذلك بقي يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم". وذكر السيوطي[1] أيضًا: "ولما دخلت سنة ٦٥٦هـ وصل التتار إلى بغداد وهم مائتا ألف ويتقدمهم هولاكو، فخرج إليهم عسكر الخليفة فهزم العسكر ودخلوا بغداد يوم عاشوراء، فأشار الوزير – لعنه الله – على المستعصم بمصانعتهم وقال أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح، فخرج وتوثق لنفسه منهم وورد إلى الخليفة وقال إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة كما بقي صاحب الروم في سلطنيته (كذا) ولا يريد إلا أن تكون الطاعة له كما كان من أجدادك مع السلاطين السلجوقية وينصرف عنك بجيوشه فليجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، والرأي أن تخرج إليه، فخرج إليه في جمع من الأعيان فأنزل في خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم". ولم يختلف ما ذكره الديار بكري أو الذهبي[2] في ذلك عما تقدم.

---

(١) السيوطي– تاريخ الخلفاء، ص١٨٦.

(٢) الديار بكري– الخميس ج٢ ص٤٢٠ والذهبي – دول الإسلام، ج٢، ص١٢٢– ١٢٣.

هذا ولم يغفل هؤلاء المؤرخون عن ذكر بعض الأسباب القوية التي دفعت مؤيد الدين محمد بن العلقمي إلى هوة الخيانة. ومن تلك الأسباب حنق الوزير على الخليفة المستعصم لتقديمه الدفتردار الصغير عليه وغل يده بعد أن كان متصرفا في جميع الشئون. وقد أدلى ابن شاكر بهذا السبب[1] ولم يكتف بذكره مجردًا، بل حاول أن يزيد في أهميته وذكر أن المغول بعدما نالوا ما يريدون عاملوا الوزير معاملة سيئة وأن الناس ذكروا ذلك للوزير فقال لهم: "بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك" كما أتى أيضًا بشعر ونسبه إلى الوزير محاولا أن يثبت أن الوزير أحس بضياع نفوذه وأنه غضب له، وها هي الأبيات:

وزيرٌ لـه مِن بأسِه وانتقامِه ... بطيّ رقاعٍ حشوُها النظمُ والنثرُ
كما تسجعُ الورقاءُ وهي حمامةٌ ... وليسَ لـها نهيٌ يُطاعُ ولا أمر

وقد ذكر السيوطي[2] ما يثبت أن الوزير كان يأمل رجوع نفوذه على أيدي المغول، حيث قال:

"إن الوزير كاتب التتار وأطمعهم في البلاد وسهل عليهم ذلك وطلب أن يكون نائبهم فوعدوه بذلك".

---

(١) فوات الوفيات، ج٢، ص١٢٥.
(٢) السيوطي- تاريخ الخلفاء، ص١٨٧.

وهناك سبب آخر ذكره المؤرخون هو انتقامه لطائفته الشيعة لما نزل بها من أعمال الظلم والعنف على أثر فتنة قامت بينها وبين أهل السنة سنة ٦٥٥هـ وتدخل ابن الخليفة أبو بكر والدوادار وأمروا الشرطة فنهبوا الكرخ محلة الشيعة وأساءوا إلى الأهلين، وقد ذكر هذا السبب أبو الفدا والديار بكري.

أما أبو الفدا فقال عند كلامه على سنة ٦٥٦هـ[1]: "في أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها في العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي كان رافضيًا وكان أهل الكرخ أيضًا روافض، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جاري عادتهم، فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر، فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش؛ فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد".

وقال الديار بكري[2]:

"وفي سنة خمس وخمسين وستمائة ثارت فتنة مهولة ببغداد بين السنية والرافضة أدت إلى نهب عظيم وخراب وقتل عدة من الرافضة فغضب لها وتمر ابن العلقمي الوزير وجر التتار على العراق ليشتفي من السنية".

---

(١) أبو الفدا- المختصر، ج٣ ص٢٠٢.

(٢) الديار بكري - الخميس ج٢، ص ص ٤٢٠.

وهناك سبب ثالث يضاف إلى هذين السببين هو رغبة ابن العلقمي في إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية محلها. وقد ذكر الذهبي[١] أن: "ابن العلقمي الرافضي جهد أن يزيل دولة بني العباس ويقيم علويًا".

كما ذكر الديار بكري[٢]: "وكان قصد الوزير بمجيء هولاكو أشياء منها أنه كان رافضيًا خبيثا وأراد أن ينقل الخلافة من بنى العباس إلى العلويين" وقال السيوطي[٣] أيضًا: "ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار وناصحهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل عليّ".

وإذا كان قد ذكرنا أن ميرخند ووصاف الحضرة ومنهاجي سراج من ضمن أفراد هذا القسم الأول الذي يتهم الوزير ابن العلقمي بالخيانة، فليس ذلك منا إلا اعتمادًا على ما ذكره بعض مؤرخي الفرنجة، إذ إن سيد أمير علي[٤] يذكر أن ميرخند ووصاف الحضرة من ضمن المؤرخين الذين يرون أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي كان خائنا كبيرًا.

---

(١) الذهبي – دول الإسلام ج٢، ص١١٩.

(٢) الديار بكري – الخميس ج٢، ص٤٢٠.

(٣) السيوطي – تاريخ الخلفاء، ص١٨٦.

(٤) Sayed Ameer Ali, A short History of the saracens, p. 396'.

كما أن براون[١] يذكر لنا أن منهاجي سراج صاحب كتاب طبقاتي ناصري اتهم الوزير بالخيانة ويصمه بأنه أنقص قوات الخليفة وأقنعه بالتسليم لهولاكو ويرجع ذلك إلى طمعه ورغبته في الانتقام لطائفته مما حل بها على أيدي ابن الخليفة الأكبر من العنت والإرهاق، ويستعمل أشنع الأوصاف إذا ما تكلم عنه وينزل عليه أشد اللعنات. ولم ينس دوسون أن يذكر لنا شيئا يوضح رأي وصاف الحضرة في الوزير، ومن ذلك ما نقله عنه من قوله[٢] "أخطأ ابن العلقمي في حسابه حين ظن أنه سيحوز حكومة بغداد لأن ابن عمران هو الذي حاز هذا المركز وضم إليه ابن العلقمي لذلك أخذ هذا يعدل عن سياسته التي تنطوي على الخيانة بعد أن رفض طاعة الخليفة وأصبح تابعًا لحاكم بعقوبا". كذلك ذكر دوسون رأي ميرخند في الوزير بقوله إن ما ذكره ميرخند لا يختلف إلا قليلا عما ذكره الذهبي، بعد أن بين هذا يرى أن الوزير كاتب التتار وجرهم إلى بغداد بعد أن أنقص جند الخلافة وأقنع الخليفة بعد ذلك بالتسليم[٣]. وعلى ذلك، فإن آراء وصاف الحضرة وميرخند ومنهاجي سراج والتهم التي يرمون بها الوزير لا تخرج عما ذكرنا حين لخصنا آراء مؤرخي العرب.

---

(١) Browne, Literary History of persia, Vol. II, p. 464 .

(٢) D' Ohsson, Tome III, p. 252. Note I .

(٣) Ibid, p. 253, Note. I.

٢. المؤرخون الذين يبرئون ابن العلقمي وأقوالهم:

أما القسم الثاني من المؤرخين فلا يتهم أفراده مؤيد الدين بن العلقمي بالخيانة، بل يحاولون أن يظهروه بمظهر الوطني الغيور، ومنهم ابن طباطبا صاحب الفخري في الآداب السلطانية ورشيد الدين الذي ترجم كترمير Quatremere جزءًا من كتابه جامع التواريخ وسماه Hist- des Mongols تاريخ المغول. وقد سلك هؤلاء المؤرخون طريقا يختلف كل الاختلاف عن الطريق الذي سلكه الأولون. فابن طباطبا يذكر بصريح العبارة ما يأتي عند كلامه على ابن العلقمي: "ونسبه الناس إلى أنه خامر، وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة (يقصد دولة الخانات فارس) فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير (ابن العلقمي) وأحسن إليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه". ويروي ابن طباطبا بعد ذلك هذه الحكاية، زاعما أنها تبرئ الوزير[١]: "حدثني كمال الدين أحمد بن الضحاك وهو ابن أخت الوزير مؤيد الدين بن العلقمي قال: لما نزل السلطان هولاكو على بغداد أرسل يطلب أن يخرج الوزير إليه. قال: فبعث الخليفة فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه فقال له الخليفة: قد أنفذ السلطان يطلبك وينبغي أن تخرج إليه.

(١)الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٤٨- ٢٤٩.

فخرج الوزير من ذلك وقال: يا مولانا إذا خرجت فمن يدبر البلد ومن يتولى المهام؟ فقال له الخليفة لا بد من أن تخرج. قال: فقال: السمع والطاعة. ثم مضى إلى داره وتهيأ للخروج ثم خرج، فلما حضر بين يدي السلطان وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان وكان الذي تولى تربيته (كذا في الأصل ولعلها ترتيبه بمعنى إدخاله على السلطان للمثول بين يديه كما يفعل الأمناء في الوقت الحاضر) في الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسي – قدس الله روحه – فلما فتحت بغداد سلمت إليه وإلى علي بهادر الشحنة فمكث الوزير شهورًا ثم مرض ومات رحمه الله في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة".

أما رشيد الدين[1] فيتكلم عن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي باعتباره رجلا مخلصًا يريد للخلافة كل خير ولكنه يخالف غيره من أتباع الخليفة فيرى ضرورة مسالمة المغول واستمالة هولاكو بالمال، ويذكر من أقواله: "ببذل المال يمكننا أن نتغلب على منافس كهذا" ولذلك دعا الخليفة المستعصم – بعد أن تسلم خطاب هولاكو الثاني الذي أرسله إليه من همذان يدعوه إلى الاستعداد للحرب – إلى تقديم الخيل العربية المطهمة إلى أمراء هولاكو وإرسال الرسل العقلاء لكسبه هذا إلى التسليم بالخطبة له وصك العملة باسمه.

(١) Quatremere, pp. 227- 299, 237- 239, 249, 303, 307, 313 .

وقد كان الدفتردار الصغير وسليمان شاه قائد جند الخليفة يريان غير رأيه في ضرورة مقاومة المغول بالقوة، ولذلك ترى رشيد الدين يذكر في أكثر من موضع، أن الدفتردار الصغير هو الذي اتهم الوزير بممالأة المغول، من ذلك ما ذكره أن الوزير ابن العلقمي أخبر الخليفة بما كان يدبره الدفتردار وأعوانه عن المؤامرات والمكايد،
حتى أن الخليفة استدعى الدفتردار وسأله عن حقيقة تلك المؤامرات ثم أمره بالإقلاع عنها، فقال له الدفتردار أن "الوزير رجل مضلل أقصته نزغات الشيطان على الطريق المستقيم، وأدى به عقله المظلم إلى مساعدة هولاكو والجيش المغولي. ولقد حاك المكائد ضدي حتى يحول الشكوك التي تحوم حوله. ولا شك أنه عدو الخليفة وأنه يتآمر لمصلحة هولاكو، حتى أنهما يتبادلان الجواسيس والأخبار بعضهما مع بعض".

ومن ذلك أيضًا ما ذكره نفس المؤلف عند كلامه على الوقت الذي أعقب المراسلات بين هولاكو والخليفة فقد قال: "فى هذه الفترة كان الدفتردار عدو الوزير وأعوانه الذين كانوا من عامة الشعب ومن المشاغبين في بغداد يقولون، إن الوزير على اتفاق مع هولاكو خان وأنه يرغب في نصرة هذا الأمير وفي ضياع الخلافة ويعمل على تدبير مؤامرة ترمي إلى تحقيق سياسته".

وعلى كل حال، فإن رشيد الدين لا يظهر أقل شك في سيرة الوزير بل ويحاول أن يوهم القارئ بأنه رجل يعمل على إنقاذ الخلافة من محنتها وأن الخليفة ظلمه حين قرب الدفتردار الصغير وجعل له الكلمة النافذة في الوقت الذي شل فيه يد الوزير ابن العلقمي.

٣. مجهود الفرنجة في بحث موقف ابن العلقمي:

الآن وقد انتهينا من سرد آراء أصحاب المراجع الأصلية من عربية وفارسية في الحكم على الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي وجب علينا أن نذكر آراء مؤرخي الفرنجة المحدثين في هذا الموضوع. ومن الغريب أن نجد هؤلاء المؤرخين الذين لم يدعوا موضوعًا إلا وكشفوا عن مجاهله حين يتكلمون في هذا الموضوع لا يأتون بجديد، بل يخرجون منه كما دخلوا فيه، ثم لا يسعهم إلا الإقرار بأن الباب ما زال مفتوحًا للبحث والتنقيب.

وقد يكون أسبرين Osborn صاحب كتاب الإسلام في عهد خلفاء بغداد أقل مؤرخي الفرنجة اهتمامًا بهذا الموضوع؛ لأنه إذا ما تكلم عنه ظهر لنا اقتناعه بخيانة الوزير ابن العلقمي فسرد ما قاله أصحاب القسم الأول فيه من أنه دعا المغول للقضاء على الخلافة العباسية، ومهد لهم بإنقاص قوات الخلافة[١].

(١) Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, pp. 94- 395 .

ويأتي في الصف الثاني السيد أمير علي في كتابه موجز تاريخ الأمم الإسلامية، وسير وليام ميور في كتابه الخلافة قيامها وانحلالها وسقوطها، فإنهما اكتفيا بالقول بأن هناك مؤرخين يتهمون ابن العلقمي بالخيانة وآخرين يعتبرونه وطنيا غيورًا ولكنهما لم يبديا رأيًا خاصا أو يأخذا بأحد الرأيين.

قال السيد أمير على في هذا الصدد[١]: "ويقال إنه – أي مؤيد الدين محمد بن العلقمي – دعا التتار للحضور إلى بغداد، وقد وصف مؤرخو العرب من أمثال ابن خلدون وأبو الفدا والمقريزي والسيوطي الوزير بأنه خائن، وأيدهم في ذلك ميرخند ووصاف. أما رشيد الدين وحده فيصفه بأنه خادم أمين كان يرغب كل الرغبة في إنقاذ البيت العباسي من السقوط المحقق ولكنه لم يكن له حول إزاء جنون الخليفة وتردده" على حين يقول سير وليام ميور[٢]: "ومن العجيب أن الوزير كان شيعيًا. لذلك نرى المؤرخين السنيين يحملون عليه بل ويتهمونه بالعمل ضد مواطنيه المنكوبين باتصاله بالمغول، بينما يتكلم عنه غيرهم باعتباره وطنيا غيورًا. والحقيقة أننا لا نرى حاجة إلى البحث فيما وراء أعمال الخليفة الجنونية واضطراب أمور مملكته المتداعية إذا ما أردنا استقصاء أسباب هذا السقوط المريع".

---

(١) Sayed Ameer Ail. A short History of the Saracens, p. 396 .

(٢) Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall, p. 587 .

أما هورث وريتشارد كوك فقد سارا خطوة أبعد ممن ذكرنا فنراهما يميلان إلى أحد هذين الرأيين دون أن يحكما على ابن العلقمي كشخصية مستقلة بل كأحد أفراد الشيعة. وفى ذلك يقول هورث[١]: "ويتهمه أغلبية مؤرخي المسلمين بالخيانة، ولما كان من طائفة الرافضة فقد كان طبيعيًا أن يفرح بالقضاء على نفوذ الأسرة العباسية وإقامة نفوذ العلويين،

ومن المحتمل أن تكون الفقرة (لعن الله من لم يلعن ابن العلقمي) لها ما يحققها". كما قال ريتشارد كوك[٢]: "وقد لطخ المؤرخون السنيون اسم الوزير. ويجب أن نقول هنا إن الحوادث مضاف إليها عدم إخلاص الشيعة الذين ينتسب إليهم تؤدي إلى الشك في أنه كان على اتصال مشين بالمغول. وقد كان الشعور ضده على أشده بين أهل السنة، حتى أن الكتب التي ظهرت بعده بسنين عدة وكانت تدرس في معاهد العلم الإسلامية كانت تحمل هذه العبارة "لعن الله من لا يلعن العلقمي" وبصرف النظر عن سلوك الوزير الشخصي فإن مساعدة الشيعة الخونة والمسيحيين للمغول لا تدع إلا مجالا ضيقا للشك".

وقد تكون أبعد خطوة في بحث مسألة ابن العلقمي وإبداء رأي فيها لدوسون وبراون. أما دوسون فإنه بعد أن أدلى بآراء المؤرخين الذين

---

(١) Howorth, History of the Mongols, Vol. I. p. 201 .

(٢) Richard Coke, Boghdad the City of peace, p. 152 .

يتهمون ابن العلقمي بالخيانة قال[1]: "يتهم الوزير ابن العلقمي عادة بالخيانة.. والحقيقة أن سلوكه يساعد على تحقيق هذا الرأي". وأما براون فهو الوحيد من بين مؤرخي الفرنجة الذين اهتموا بهذا الموضوع، فقد خصص له صفحتين في كتابه[2] وأتى برأي صاحب طبقاتي ناصري ممن يتهمون الوزير بالخيانة ثم برأي ابن طباطبا الذي يدافع عنه،

وذكر أنه يأسف حين يرى أن ما أتى به ابن طباطبا يمكن استعماله ضده، وأخيرًا أدلى برأيه قائلا إنه لا يستبعد أن يكون ابن العلقمي قد اغتر بوعود المغول فاشترك مع نصير الدين الطوسي - الذي كان شيعيًا مثله، والذى سبق أن خان الحشيشة وحرض هولاكو على القضاء على الخلافة العباسية - في إقناع الخليفة بالتسليم للمغول وبذلك كان سببًا في سقوط بغداد وقتل الخليفة. ويرى براون أن موت الوزير بعد قتل الخليفة بثلاثة شهور يؤيد رأيه في أن المغول استغلوه حتى حصلوا على ما يبتغون ثم نبذوه نبذ النواة.

ولكنه في آخر الأمر يقول: "ومع ذلك، فالمسألة مشكوك فيها وكل الاحتمالات تجعل وضوحها الآن على درجة من التحقيق مستحيلا، لذلك يجب على من لا يتبع ابن الطقطقي في الدعاء

---

(١) D' Ohsson, Histoire des Mongols, Tome III, pp. 249, 252- 254 .

(٢) Browne, Literary History of persis, Vol. II, pp. 464- 465 .

للوزير بالرحمة إلا يؤيد على الأقل اللعنات التي صبها عليه مؤلف كتاب طبقاتي ناصري، الذي أظهر تعصبًا لأهل السنة أشد مما أظهره ابن الطقطقي للشيعة".

ومن ذلك نرى أنه قد ترك هذه المسألة دون أن تحل حلا نهائيًا.

٤. تحليل أقوال المؤرخين في موقف ابن العلقمي:

بقي علينا وقد استعرضنا آراء المؤرخين من أقدمين ومحدثين ومن عرب وفرس وفرنجة أن ندلي برأينا في هذا الموضوع الدقيق. وسنتبع دون شك نصيحة براون فلن نغالي في اتهام الوزير ولن نغالي في تبرئته وإنما سنحاول أن نتخذ لنا رأيا يؤيده الواقع وتسنده البراهين القوية. ونحب قبل أن ندلي برأينا أن نعلق على آراء الفريقين من أصحاب المراجع الأصلية كل بما يستحقه.

١. تحليل أقوال المؤرخين الذين يتهمون ابن العلقمي:

أما الفريق الأول الذي اتهم الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي بالخيانة فلا شك أنه بالغ كثيرًا وحمل الحقائق أكثر مما يجب أن تحمل. يتضح ذلك إذا ما تناولنا آراءه بالتحليل، فمثلا اهتمام أفراده بالقول بأن ابن العلقمي جر المغول إلى بغداد ومبالغتهم في التبعة التي تقع عليه من وراء ذلك، أمر يدل على ضيق نظرهم وجهلهم بالشئون الخارجية في العالم إذ ذاك، ولو أن محيط معارفهم كان متسعًا لعلموا أن المجلس الذي اختار الخان الأعظم مانجو قرر إرسال حملة بقيادة هولاكو للقضاء على الحشيشية وإخضاع الخليفة العباسي[1]، ولو كانوا بعيدي النظر لعلموا أن الوزير لو فرض وأنه استدعاهم ما كان ليؤثر فيهم لو لم تكن دعوته موافقة لمبادئهم.

---

(١) Browne, Literary History of Bersla. Vol, II, p. 452 .
و Howorth, Vol. I, p. 193 .و Camb, Med. Hist. Vol. IV, p. 641.

كما أنهم حين ذكروا أن الوزير مهد للمغول بإنقاص جند الخليفة لم يشذوا عن هذه القاعدة. ونحن من جانبنا لا يمكننا أن نقبل ما ذكروه فيها على علاته؛ لأننا نعلم أن الخليفة كان قد سلب كل السلطة من الوزير وأبعده عنه وقرب الدفتردار وسليمان شاه[1]. وكيف يمكن للوزير في مثل تلك الظروف أن ينقص الجند ونحن نعلم في الوقت نفسه أن الدفتردار وسليمان شاه كان من رأيهما مقاومة المغول. ولو فرضنا أن الوزير كان قد مهد لهولاكو وأنقص الجند قبل مجيئه بعدة سنين، فلماذا لم يبادر الدفتردار وسليمان شاه بجمع الجند والاستعداد لملاقاة العدو بعد أن صار لهما الأمر والنهي؟ وقد ذكر أحد أفراد الفريق الأول كما سبق أن الوزير أرسل بعض أعوانه لقطع دجلة وإغراق معسكر الخليفة عند دجيل ليلا، ولا يمكننا أن نصدق هذا الخبر، لأن مثل هذا العمل يستدعي معرفة الوزير وتتبعه أخبار المعارك التي دارت بين جيش الخليفة والمغول أولا بأول. ولو علمنا أن الوزير في ذلك الوقت كان في بغداد بعيدًا عن ساحة القتال وأن الحوادث كانت متلاحقة فانتصر جيش الخليفة على جيش سنجاك عند الأنبار في يوم ٩ المحرم سنة ٦٥٦هـ ثم تبعه وتلاقى مع جيوش المغول التي كانت تحت قيادة بيجو نويان عند دجيل في اليوم التالي وانتصر عليها في آخر النهار ثم أغرق معسكر جيش الخليفة

(١) Quatremere, p. 229 و D' Ohsson, Tome III, p. 214- 2-5

الذي أدى إلى هزيمته في المساء[1] – إذا عرفنا ذلك صعب علينا أن نصدق أنه كان للوزير دخل في هذه المسألة، ولو أنه فعل ذلك فهل من المعقول أن يظل تدبيره خافيا على الخليفة؟ وإذا كان الخليفة قد علم به فهل من المعقول أن يظل الوزير في بغداد دون أن يلحقه أذى مع أن أعداءه الدفتردار وسليمان شاه كانا يتربصان به الدوائر؟ أضف إلى ذلك أن الخليفة أرسله عدة مرات في مراسلات إلى هولاكو، وهذه أمور لا تترك مجالا للشك في أن الخليفة كان لا يزال يثق به، وإن كان قد أعطى السلطة لأعدائه الدفتردار وسليمان شاه تحت ضغط الخوف وأنه لم يصله شيء عن عمل الوزير على إغراق الجيش. ومع ذلك فنحن نعلم أن مهاجمة الجيوش المغولية لبغداد الغربية دبرت فجأة ولم يعلم بها أحد في حاضرة الدولة العباسية بدليل أن جيوش الخلافة كانت على حدود العراق الشرقية ولم تتركها إلا بعد أن علمت بذلك الهجوم. هذا وقد ذكر براون أن إغراق معسكر الخليفة قام بتدبيره المهندسون الصينيون الذين كانوا يرافقون الجيش المغولي[2]، كما ذكر دوسون أن المغول هم الذين أغرقوا السهل الواقع خلف معسكر الخليفة[1]، وهذا القول أقرب في نظري إلى الحقيقة.

---

(١) Ibid, pp. 279–281 .

(٢) D' .

(١) D' .

وليست هذه الأمثلة هي كل ما يدل على شطط أفراد الفريق الأول، بل هناك مسألة أخرى لا تقل أهمية عما ذكرنا وهي مبالغة هؤلاء المؤرخين في أهمية إقناع الوزير للخليفة بالخروج إلى هولاكو، كأنهم يعتقدون أنه لولا إقناع الوزير للخليفة وقوله إن هولاكو يريد أن يزوج ابنته من ابنه أبي بكر لما خرج، وهذا خطأ محض. والواقع أن حصار المغول لبغداد كان قد بلغ أشده في ذلك الوقت وأن مركز الخليفة كان قد أصبح حرجًا خصوصًا بعد أن قتل المغول الدفتردار وسليمان شاه وأتباعهما وبعد أن دب الرعب في قلوب البغداديين؛ فخرج بعضهم يعرض تسليم المدينة على هولاكو. ولو أن الخليفة لم يسارع إلى الخروج وتقديم نفسه إلى هولاكو لاضطر فيما نرى إلى التسليم بعد قليل أو لدُكت عليه بغداد دكًا.

٢. تحليل أقوال المؤرخين الذين يدافعون عن ابن العلقمي:

وإذا كنا لم نوافق الفريق الأول على مبالغته فأجدر بنا ألا نوافق الفريق الثاني على رأيه من أساسه. وليس هذا من جانبنا تسرعًا بل لأننا لو حاولنا أن نحلل ما قاله أفراد هذا الفريق لما ثبت لنا منها شيء. فابن طباطبا حين يحاول أن ينفي عن ابن العلقمي تهمة المخامرة ويدلل على ذلك بحسن معاملة هولاكو ويقول "فلو كان قد خامر على الخليفة وقع الوثوق إليه" يبرهن على غير ما يقصد كما قال براون ويثبت بذلك أنه نظري يتناسى الناحية العملية في الموضوع.

إذ المعقول أن هولاكو وقد خامر من أجله الوزير لا بد أن يكافئه ويقربه ثم يشركه في حكومة بغداد على أثر انتصاره كما أشرك غيره ممن خامر مثل ابن عمران. وليس هذا هو كل ما نراه في هذه المسألة المهمة بل إن ابن طباطبا حين يحاول مرة أخرى تبرئة ابن العلقمي في هذه الحكاية الطويلة التي تقدمت الإشارة إليها لا يوفق التوفيق كله لأن: أولا: الذي يحكي عنه هذه الحكاية الطويلة هو ابن أخت الوزير، وثانيا: لأنه يقول فلما حضر (ابن العلقمي) بين يدى السلطان (هولاكو) وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان". وأي كلام يستحسنه هولاكو إلا إذا كان في مصلحته. وأي رجل يرضى عنه إلا إذا كان في صفه أو على الأقل قد ارتاح إليه. وثالثا: لأنه يقول إن الذي تولى ترتيبه في الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسي. وهو على ما نعلم الخائن الذي كان سببًا في تسليم ركن الدين خورشاه رئيس الحشيشية، كما أنه هو الذي حرض هولاكو حين حذره الفلكي حسام الدين من غزو بغداد على عدم سماع كلامه وعلى السير في تنفيذ خطته حتى النهاية، وأكد له أنه سينجح فيما يقدم عليه. رابعا: لأنه يقول في آخر الأمر إن بغداد لما فتحت سلمت إلى الوزير وإلى علي بهادر، وهل يعقل أن يسلمها هولاكو إليه دون أن يكون ذلك مكافأة له على عمل أتاه؟

وأي عمل أعظم في نظر هولاكو من مساعدته على الوصول إلى غرضه من دخول بغداد وإزالة الخلافة العباسية منها.

أما رشيد الدين فإنه وإن حاول أن يظهر الوزير كرجل مخلص لا يختلف عن غيره من أتباع الخليفة الذين عملوا على نصرته في محنته اللهم إلا باختلاف رأيه في ضرورة استمالة المغول، فإنه في سياق كلامه ذكر أمورًا لا يسعنا أن ندعها تمر دون أن نأخذها عليه لأننا نرى أنها كفيلة بهدم رأيه:

أولا: ما ذكره من أن رسل هولاكو عندما جاءوا إلى بغداد لأول مرة يحملون الرسالة الأولى التي يدعو هولاكو فيها الخليفة إلى تجريد بغداد من الحصون وتقديم فروض الطاعة، أهانهم أهل بغداد وبصقوا عليهم ومزقوا ثيابهم وأن الوزير هو الذي أرسل من خلصوهم منهم[١].

ثانيا: بعد أن ذكر رشيد الدين أن الدفتردار وسليمان شاه أقنعا الخليفة بضرورة استعمال القوة ضد المغول قال[٢]: "وقد كان من أثر ذلك أن طلب الخليفة من الوزير أن يعد الجند حتى يوزع عليهم الذهب والفضة وأن يسلم قيادتهم لسليمان شاه حتى يبر بوعده،

(١) Quatremere, p. 237 .

(٢) Ibid .

وقد أحس الوزير بعدم رغبة الخليفة في صرف أمواله ولكنه أراد ألا يتعرض لغضب أعدائه فأمر بجمع الجند ولكنه طلب أن يكون جمعهم برفق وببطء حتى لا يحس العدو بحركتهم هذه، وبعد أن أخبر الضابط الذي عهد إليه بجمع الجند الوزير بأن مهمته قد انتهت بعد خمسة أشهر وأن الجند ينتظرون الخليفة ليوزع عليهم الأموال، لم يكن من الوزير إلا أن أخبر الخليفة بذلك" فهو هنا يذكر أن الوزير عندما أمره الخليفة بإعداد الجند لم تكن له رغبة في إعداده ولولا خوفه من أعدائه لما نفذ هذا الأمر، هذا إلى أن المؤرخ رشيد الدين لا يخفي عنا أن الوزير حين بدأ في التنفيذ أخذ يماطل، محتجًا بأن العدو عن قرب ويجب ألا يحس بحركتهم هذه، وهذا يكفي فيما أرى لإظهار نواياه السيئة نحو الخلافة ولا أهمية لما ذكره قبل ذلك من أنه أحس بعدم رغبة الخليفة في صرف أمواله لأنه لو كان يريد حقا جمع الجند لما فقد الوسائل لجمع المال اللازم لهم.

ثالثا: هذا إلى أن رشيد الدين ذكر لنا أن الوزير خرج أكثر من مرة إلى هولاكو أثناء تبادل المراسلات بينه وبين الخليفة، ومع ذلك لم يذكر لنا أن هناك أحدًا اعتدى عليه، مع أن الدفتردار وسليمان شاه كان نصيبهما القتل عندما وقعا في يد هولاكو[1].

(١) Quatremere, p. 283, 295 .

رابعًا: أن رشيد الدين لم يضن علينا بما حدث في آخر الأمر حين ضاقت الدنيا في أعين الخليفة، فإنه ذكر أنه لما اشتدت به الحال على أثر قتل هولاكو للدفتردار وسليمان شاه استدعى وزيره وسأله عما يفعله فأجابه بقوله:

يظنون أن الأمرَ سهلٌ وإنما هو السيفُ حدّتْ للقاءِ مضاربُه

كما يذكر لنا أيضًا أن هولاكو بعد أن ذهب من بغداد إلى قرية وقف في ١٤ من صفر سنة ٦٥٦هـ استدعى الخليفة إليه، وأن الخليفة في ذلك الوقت العصيب سأل وزيره عما يفعله فلم يكن منه إلا أن أجاب بقوله "إن ذقننا طويلة" متهكمًا ومشيرا إلى ما قاله الدفتردار عنه عند بدء الخطر المغولي(١). فقد أشار الوزير على الخليفة بإرسال هدية ولكن هذا لم يسمع له وسمع للدفتردار الذي نهاه عن سماع الوزير واصفا له بهذا الوصف الذي قصد به أنه ما كر خبيث.

(١) Quatremere, pp. 299, 303 .

٥. الرأي الأخير في ابن العلقمي:

إننا لا يسعنا بعد كل هذا إلا أن نقول إن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي لا يمكن أن يكون بريئا من تهمة الخيانة للخلافة العباسية، إلا أنه في الوقت نفسه لا يمكن أن يكون قد ارتكب كل الجرائم التي حاول المؤرخون السنيون أن يسندوا ارتكابها إليه. وكل ما في الأمر أنه غضب لما حاق بطائفته من المظالم ولتقديم الدفتردار الصغير عليه، ولكنه كان عاجزا كل العجز عن أخذ الثأر لنفسه وإبعاد الأذى عن طائفته. فلما جاء المغول وأحاطوا ببغداد وجد فيهم من يأخذ بثأره وثأر طائفته، كما رأى ببعد نظره أن النصر سيكون حليفهم لقوتهم وضعف الخلافة العباسية، لذلك نراه لا يتردد في اتخاذ سياسة تقربه من المغول وفي الوقت نفسه لا تثير شك الخليفة فيه، ولذلك أيضًا نراه يتظاهر بأن من رأيه استمالة المغول بالمال لا ملاقاتهم بالقوة، حتى إذا جاءت رسل هولاكو إلى بغداد تحمل رسالته الأولى وهاجمهم البغداديون عند عودتهم أرسل الوزير بعض أعوانه ليخلصوا هؤلاء الرسل من أيديهم، ومما تجب ملاحظته أيضًا أن الوزير تباطأ في جمع الجند عندما كلفه الخليفة بجمعهم تنفيذا لرأي الدفتردار وسليمان شاه. وما امتناع الوزير عن تقديم المشورة للخليفة في آخر أمره وعندما أصبح الموقف حرجًا إلا لأنه رأى أن الانتصار قد أصبح من نصيب المغول،

كما أراد أن ينتقم من الخليفة الذي أبعده وشل يده عن مباشرة أمور الدولة. وليس ببعيد أن يكون ابن العلقمي في مراسلاته العديدة بين الخليفة وهولاكو عمل على الحصول على ثقة هولاكو بإخباره بما يدور في بغداد، كما أن نصير الدين الطوسي الذي كان مقربًا من هولاكو محترمًا عند المغول استعمل نفوذه في مساعدته للحصول على رضا هولاكو فمهد له الطريق كل التمهيد، وإن لنا من قول ابن طباطبا الشيعي لدليلا على صحة هذا القول الأخير.

٣. موقف أهل الذمة

علمنا مما تقدم كيف كان النصارى واليهود في بغداد يتمتعون بالطمأنينة في أحيائهم المنبثة في جميع الأنحاء، ورأينا كيف كان رؤساؤهم ينعمون بالغنى والاحترام، هذا إلى أنهم كانوا جميعا يتمتعون بالحرية في أداء شعائر دينهم. وقد يدعونا ما كان لهم من مركز ممتاز في بغداد إلى الاعتقاد بأنهم سيقفون جميعًا صفًا واحدًا أمام أي خطر ينزل بالعباسيين، ولكننا سنرى فيما يلي أن الواقع يكذب هذا الاعتقاد.

حقيقة أن اليهود وقفوا إزاء فتح المغول لبغداد موقفا يحسدون عليه، فقد حاربوا حتى آخر لحظة مع إخوانهم المسلمين وقاسوا معهم ما قاسوا من المذابح التي أعقبت دخول بغداد[١]، ولكن المسيحيين وقد كانوا يفوقونهم عددا كما كانوا أكثر منهم تقربًا إلى الخلفاء واتصالا بالحياة العامة في بغداد لم يفعلوا مثل ما فعل اليهود، بل سالموا المغول وتقربوا إليهم وتمكنوا من كسب عطف هولاكو بتأثير زوجته المسيحية دوكوز خاتون [٢]

ولو أن فعل المسيحيين اقتصر على ذلك، لكان من السهل إيجاد مبرر لهم سواء في حبهم في الحياة وتعلقهم بها أو في خوفهم من المغول خصوصًا بعد أن أصبح نجاحهم أمرًا متوقعًا.

---

(١) Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 152 .

(٢) D' Ohsson Tome III, p. 270 .

ولكنهم وقد ضنوا بالحياة على بعض المسلمين عندما كان في قدرتهم تقديم المساعدة لهم لن يجدوا من يحاول الدفاع عن موقفهم. فقد صرح هولاكو للبطريق النسطوري بجمع المسيحيين في إحدى الكنائس حتى يميزوا عن غيرهم فلا يتعرض لهم الجند المغولي عند نهب بغداد، ففعل، وحاول بعض المسلمين أن يأووا إلى الكنيسة مع إخوانهم المسيحيين حتى ولو بتقديم كل ثرواتهم فلم يقبل البطريق النسطوري وتركهم تحت رحمة السيف المغولي(١).

وعلى كل حال، فإن المسيحيين لم يشتركوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة التي عاشوا فيها زمنا طويلا تحت ظل الخلفاء العباسيين ونجوا من العذاب الذي صبه المغول على تلك المدينة وأهلها وكان موقفهم في هذا الأمر يشبه تمامًا موقف الشيعة. ولم يدافع عن بغداد في محنتها ويلاقي العذاب ألوانًا إلا أهل السنة واليهود.

(١) D' Ohsson, Tome III, p. 241 .
و Richard Coke, Baghdad the City of peace, p. 149.

خاتمة القول في زوال الخلافة العباسية من بغداد

سرت موجة الضعف في الخلافة العباسية منذ أيام المعتصم وانتهى الأمر بوقوع الخلافة تحت سيطرة الأجانب من بويهيين وسلاجقة. وهي وإن تمكنت بعد ذلك من استعادة السلطة والتخلص من الأجانب والاستقلال بأمورها (٥٥١- ٦٥٦هـ)، فإن ذلك لم يكن سوى استيقاظ فجائي تبعه الزوال، كما يحدث حين يتوهج المصباح قبل أن يخبو نوره.

ولا يمكننا أن ننسب زوال الخلافة العباسية من بغداد إلى سبب واحد أو أن نبالغ كما بالغ مؤرخو العرب في الدور الذي قام به مؤيد الدين محمد بن العلقمي حتى كادوا ينسبون إليه وحده بسبب زوال الخلافة العباسية، بل يحق لنا أن نرجع هذا الزوال إلى عدة أسباب مشتبكة بعضها ببعض، منها اختلال الحالة الداخلية في آملاك الخلافة من جميع نواحيها الحربية والسياسية والطائفية والعمرانية في عهد الاستقلال الأخير، ومنها اشتداد ساعد النغول وتوسعهم في الفتح حتى أصبحوا في أواخر عهد المستعصم يطوقون أملاك الخلافة العباسية من جميع الجهات تقريبا. ولا نكون مغالين إذا قلنا إن من هذه الأسباب نجاح الخلافة العباسية في سياستها الخارجية في ذلك العهد،

لأنه يحتمل أن يكون ذلك النجاح قد نظر إليه من ناحية الخلفاء بأكثر مما يستحق فظنوا أن الدول الإسلامية التي تحترمهم يمكنها أن تعين الخلافة إذا نزل بها مكروه أو حاق بها خطر من الأخطار، على حين كانت هذه الدول قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال حتى أصبح أكثرها خاضعًا لسلطان المغول. ولا يبعد أن يكون الخليفة المستعصم قد ترسم خطا الخلفاء الذين سبقوه في هذا المضمار، ولا أدل على ذلك من عدم اهتمامه بدعوة هولاكو له إلى التسليم وركوبه متن الشطط حتى قال له في كتابه إليه كما سبق أن ذكرنا: "إن ملايين من الخيالة والرجالة على استعداد للحرب رهن إشارتي حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر".

كان زوال الخلافة على أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ حدا فاصلا بين عهدين في بغداد، عهد تسلط على العالم الإسلامي في السياسة والآداب والعلوم والفنون انقضى وعهد تقلص فيه النفوذ السياسي والأدبي والفني بدأ يظهر شبحه المخيف. فقد كانت بغداد قبل هذا الحادث المشئوم حين كان يقيم فيها الخليفة العباسي - اللهمإ لا إذا استثنينا هذه الفترة التي انتقلت فيها حاضرة الدولة إلى سامراء (٢٢١- ٢٧٩هـ)- رأس العالم الإسلامي وقلب الإسلام النابض. وكانت وإن فقدت قوتها المادية لما أصاب الخلافة من ضعف وانحلال لا تزال محل احترام جميع المسلمين،

كما أن نفوذها المعنوي كان لا يزال ينتشر في الأرجاء الإسلامية، وكان الأمراء والسلاطين المسلمون يلتمسون القوة لعروشهم والثبات في نظر الجماهير باعتراف الخليفة العباسي بسلطانهم. هذا إلى أن الخلفاء العباسيين كانوا يعملون على تشجيع العلماء وتقريب أهل الأدب ويشيدون العمارات الفخمة ويجمعون الكنوز النفيسة التي أدهشت المغول حين استولوا على بغداد، كما أدهشت كنوز فارس العرب عندما فتحوا تلك البلاد في فجر الإسلام.

وبعد أن انتشر النفوذ المغولي ذبلت بغداد وتخلت عن مركز الرئاسة السياسية، وذلك لأن أبناء هولاكو حين أقاموا مملكة لأسرتهم في غرب آسيا تدخل تحت سيطرتها فارس والعراق العربي قسموها إلى قسمين، وجعلوا بغداد عاصمة لأحدهما وهو العراق العربي ولكنها لم تكن ذات نفوذ وكان يزورها أبناء هولاكو أحيانا كما كان بعضهم يقضي الشتاء فيها، وكانت أصبهان عاصمة للقسم الثاني أعلى منها درجة وأرفع مكانة[1].

تلك هي حالة بغداد السياسية منذ زالت الخلافة منها على أيدى المغول. أما الحالة الأدبية فيها فقد انحطت تمامًا بعد ذلك الوقت؛ إذ أحرق المغول الكتب وقتلوا الأدباء وشتتوا من نجا منهم من الموت،

(١) Coke, Baghdad, p. 155.
Nicholson, Literary Hist. of the Arabs, p. 443.

كما أنهم بعد أن استقر لهم الأمر في بغداد لم يكن يهمهم ازدهار الأدب العربي وذلك يفسر لنا كيف تخت بغداد عن مركز الصدارة الأدبية وخلفتها في ذلك مدينة القاهرة التي أصبحت في أيام المماليك مركزًا للعلماء والأدباء، والتي ساعدت على نقل آراء الشرق إلى الغرب، ثم كانت بذلك من بين العوامل في إيقاظ النهضة في أوروبا(١).

ولم يقتصر التغيير الذي حدث في بغداد بعد زوال الخلافة العباسية منها على الناحية السياسية والأدبية بل تعدى ذلك إلى الناحية الاجتماعية وحالة الطبقات. فالشيعة الذين مالأوا المغول وتقربوا إلى هولاكو ظلوا طوال حكم أحفاده ايلخانات فارس في أحسن حال، وبلغ من ذلك أن بنى السلطان غازان محمود (١٢٩٦م) تكايا تعرف بدار السيادات لأحفاد على الفقراء،

كما أن أخاه السلطان أولجايتو اعتنق مذهبهم وحاول أن يفرضه على أفراد أسرته(٢). وكان السنيون على العكس من ذلك في أسوأ حال في حكم المغول. أما المسيحيون الذين ساعدوا هولاكو فقد لاقوا من ايلخانات فارس كثيرًا من العسف وفقدوا ما كان لهم من الحقوق في أيام الخلفاء العباسيين، وكان ذلك أحسن جزاء لهم على خيانتهم،

(١) Camb. Med. History Vol, pp. 464- 643.

(٢) Coke, Baghdad the City of peace, pp. 163, 165.

وقد بلغ من سوء حالهم أن البطريق النسطوري اضطر إلى نقل بطريرقيته من بغداد إلى أربل؛ ليتفادى ما كان ينزل به من اضطهاد، كما أن جميع المسيحيين في بغداد في أيام السلطان محمود غازان (١٢٦٩- ١٣٠٥م) حين قوي الشعور ضدهم اضطروا إلى التزام منازلهم وصارت نساؤهم يذهبن إلى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم؛ وذلك لأنهن كن يلبسن ثياب المسلمات فلا يمكن تمييزهن[١].

ولم يقتصر الأثر الذي أحدثه زوال الخلافة العباسية على تغيير الحال في بغداد، بل تعدى ذلك إلى العالم الإسلامي كله، ذلك لأن زوال الخلافة العباسية من بغداد كان معناه زوال آخر حكومة عربية لها شبه سيطرة على العالم الإسلامي وتحول النفوذ إلى الدول الأعجمية. فالمغول نشروا نفوذهم في فارس والعراق العربي (١٢٥٧- ١٣٣٥م) وقامت على أنقاض دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى عشر إمارات تركية صغيرة[٢].

وتمكن المماليك بعد صد تيار المغول وهزيمتهم في عين جالوت من تركيز سلطتهم في مصر والشام،

---

(١) Coke, Baghdad the City of peace, pp. 158, 164.

(٢) هذه الإمارات هي كراسي Karast وصاروخان Sarukhan وأيدين Aydin ومنتشا Manasha وتكا Takka وحميد Hamid وقرمان Karaman وكرميان Karmiyan وقوزال أحمدلي Kizil Ahmadly وعثمان Osman.

كما قامت في شمال أفريقية أسرات حاكمة من البربر على أنقاض دولة الموحدين مثل الأسرة المرينية أو أسرة بني مرين التي حكمت في مراكش مدة طويلة (٥٩١- ٨٧٥هـ= ١١٩٥- ١٤٧٠م) والأسرة الحفصية التي حكمت في تونس أكثر من ثلاثة قرون (٦٢٦- ٩٨١هـ= ١٢٢٨- ١٥٧٤م) والأسرة الزيانية أو أسرة بني زيان التي حكمت في الجزائر منذ سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٦م) حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٦٢هـ (١٥٥٤م)[١].

وإذا كانت قد ظهرت في العالم الإسلامي بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد دويلات عربية، فقد كانت هذه الدويلات ضعيفة عاجزة، كما أنها لم تتمكن من الاحتفاظ بسلطتها زمنا طويلا بل انتهى أمرها بالزوال على أيدي الأعاجم أو بالخضوع لهم، مثال ذلك إمارة بني نصر في غرناطة التي قامت في إسبانيا سنة ٦٢٩هـ (١٢٣٢م) على أنقاض دولة الموحدين وإمارة بني رسول التي قامت في بلاد اليمن وحكومات أشراف مكة والمدينة التي دانت بالطاعة لسلاطين المماليك في مصر ثم لسلاطين العثمانيين وظلت على ذلك حتى القرن التاسع عشر[٢].

---

(١) Lone- poole, Muh. Dyns, pp. 49- 57, 80, 184- 194, 246, 259. Cam Med. Hist. Vol. IV, p. 643. Encyc. Islam: Arts. Hafsids Zayanids.

ملاحظة: أسس إمارة بني رسول عمر بن رسول الذي كان حاكمًا لمكة من قبل بني أيوب سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م.

(٢) Lane- poole, Muh. Dyns., pp. 27, 99- 103.

و Enc. Islam, Arts. Mekka, Medina, San'a Zabid.

هذا فيما يتعلق بحالة بغداد وحالة العالم الإسلامي بعد زوال الخلافة العباسية على أيدي المغول. أما الخلافة نفسها فلم يكن في زوالها هذه المرة نهاية العهد بها، بل إنها انتقلت إلى مصر حين رأى الظاهر بيبرس (٦٥٨- ٦٧٦هـ= ١٢٦٠- ١٢٧٧م) أحد السلاطين المماليك في مصر أن وجودها يشد من أزره ويكسب حكمه صبغة شرعية هو في أشد الحاجة إليها لاستناده على القوة وحدها.

وقد اتبع السلاطين المماليك الذين جاءوا بعده هذه الطريقة، واستمرت الخلافة في القاهرة نحو قرنين ونصف قرن (٦٦٠- ٩٤٩هـ= ١٢٦٢- ١٥٤٣م)، وكان أفرادها شبه أسرى يعتمدون على كرم المماليك وعطفهم ولا يتدخلون في شئون الحكم، بل يقضون أوقاتهم في زيارة الأمراء وحضور الولائم، كما أنهم كانوا يحضرون تقليد السلطان الجديد، وبالجملة فقد كانت حالتهم لا تختلف كثيرا عن حالة مشايخ الطرق الصوفية في أيامنا هذه[1].

(١) Enc. Islam, art, Khalifa.

مصادر الكتاب

(أ) المصادر العربية:

١. ابن الأثير (٦٣٠هـ- ١٢٣٨م)- علي أحمد بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ ١٢ جزءًا (المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢هـ)

٢. البنداري (من علماء القرن السابع)- الفتح بن علي زبدة النصرة ونخبة العصرة (القاهرة سنة ١٢١٨هـ)

٣. ابن جبير (٦١٤هـ- ١٢١٧م).

٤. رحلة ابن جبير (القاهرة سنة ١٩٠٨)

٥. حسن إبراهيم حسن (الدكتور)

٦. الفاطميون في مصر (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢م)

٧. حسن إبراهيم حسن (الدكتور).

٨. تاريخ الإسلام السياسي (القاهرة سنة ١٩٣٥م)

٩. ابن خلدون (٨٠٨هـ- ١٤٠٤/ ١٤٠٥م)

١٠. العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء (بولاق سنة ١٢٨٤هـ)

١١. ابن خلكان (٦٨١هـ- ١٢٨١م)

١٢. وفيات الأعيان جزءان (بولاق سنة ١٢٧٥هـ)

١٣. الديار بكري (٩٦٦هـ- ١٥٥٨/ ١٥٥٩م)

١٤. الخميس في أحوال أنفس نفيس جزءان (القاهرة سنة ١٨٢٣)

١٥. الذهبي (٧٤٨هـ- ١٣٤٧/ ١٣٤٨م)- شمس الدين محمد بن أحمد - كتاب دول الإسلام جزءان (مطبعة دائرة المعارف النظامية- حيدر أباد سنة ١٣٣٧هـ)

١٦. السيوطي (٩١١هـ- ١٥٠٥م) - عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين

١٧. تاريخ الخلفاء (القاهرة سنة ١٣٠٥هـ)

١٨. ابن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ- ١٣٦٣م)
١٩. فوات الوفيات جزءان (بولاق سنة ١٢٩٩م)
٢٠. أبو شجاع (٤٨٨هـ- ١٠٩٥م) - محمد بن الحسين بن عبد الله الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراوري
٢١. ذيل كتاب تجارب الأمم (القاهرة سنة ١٩١٤م)
٢٢. الصولي (٣٣٠هـ- ٩٤١/ ٩٤٢م)- أبو بكر محمد بن يحيى
٢٣. كتاب الأوراق الجزء الثالث (القاهرة سنة ١٩٣٥م)
٢٤. ابن طباطبا (انتهى من وضع كتابه سنة ٧٠١هـ)
٢٥. الفخري في الآداب السلطانية (القاهرة سنة ١٩٢٧م)
٢٦. ابن العبري (٦٨٤هـ -١٢٨٦م) - جريجوري أبو الفرج بن هرون الملطي
٢٧. تاريخ مختصر الدول (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت سنة ١٨٩٠م)
٢٨. أبو الفدا (٧٣٢هـ- ١٣٣١م)
٢٩. المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء (المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٢٨٦هـ)
٣٠. القلقشندي (٨٢١هـ- ١٤١٨م)- أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ جزءًا (القاهرة سنة ١٩١٣- ١٩١٧م)
٣١. المسعودي (٣٤٦هـ- ٩٥٦م)
٣٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر، جزءان (بولاق سنة ١٣٠٣هـ و ١٨٨٥م)
٣٣. مسكويه (٤٢١هـ- ١٠٣١م)
٣٤. تجارب الأمم (القاهرة سنة ١٩١٤م)
٣٥. المقريزي (٨٥٤هـ- ١٤٤١م)

٣٦. السلوك في معرفة دول الملوك الجزء الأول في مجلدين (نشره الدكتور زيادة)
٣٧. النسوي (من علماء القرن السابع)- شهاب الدين محمد بن أحمد، سيرة جلال الدين منكبرتي (باريس: سنة ١٨٠١م تصحيح موداس)
٣٨. هلال الصابئ (٤٤٨هـ- ١٠٥٦م)- أبو الحسن ابن المحسن بن أبي إسحاق إبراهيم
٣٩. الجزء الثامن من تاريخ الوزراء (القاهرة سنة ١٩١٤م)
٤٠. ياقوت (٦٢٦هـ- ١٢٢٩م)- شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي
٤١. معجم البلدان ١٢ جزءًا (القاهرة سنة ١٩٠٦م).

(ب) المصادر الإفرنجية:

1. Arnold (T.w.), The Caliphate (Oxford, 1924).
2. Asher (trans), Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, vols 1-11. (London & Berlin 1840, 1841).
3. Browne, Literary History of persia, vols., I (London 1909). II (London 1906).
4. Browne, Account of a Rare Manuscript History of the Seljuks. (Hertford, 1906).
5. Coke (Richard), Baghdad the City of Peace. (London 1927).
6. Gilman. The Saracens from the Earliest Times to the Fall of Baghdad. (London, 1895).
7. Harold Bowne. life and Times of Aly Ibn Iea "The Good Vizier". (Cambridge, 1926).
8. Howorth, History of the Mongols, I- IV. (London 1927).
9. Khuda Bukhsh, Contributions to the History of the Islamic Civilisation. (Calcoutta, 1905).
10. Lane- Poole (Stanley), The Muhammadan Dynasties, Chronological and Coniological Tables with Historical introduction. (Westminster, 1893) and (Paris, 1925).
11. Muir (William), The Caliphate, its rise, Decline & Fall. (Edinburgh, 1924).
12. Nicholson, Literary History of the Arabs (London 1914).
13. Noelaeke, Sketches from Eastern History.

14. D'Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguiz Khan Jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan, Tomes I -IV (Amstrtdam, 1852).
15. Osborn, Islam under the Caliphs of Baghded London, 1876).
16. Quatremère (trad), Histoire des Mongoles.
17. Sayed Ameer Aly, A Short History of the Saracens (London 1916).
18. G. Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphete. (Oxford 1900).
19. Cambridge Medieval History, Vol. IV.
20. Encyclopedia of Islam.
21. Encyclopedia Brittanica.

سلسلة نسب الخلفاء المتأخرين

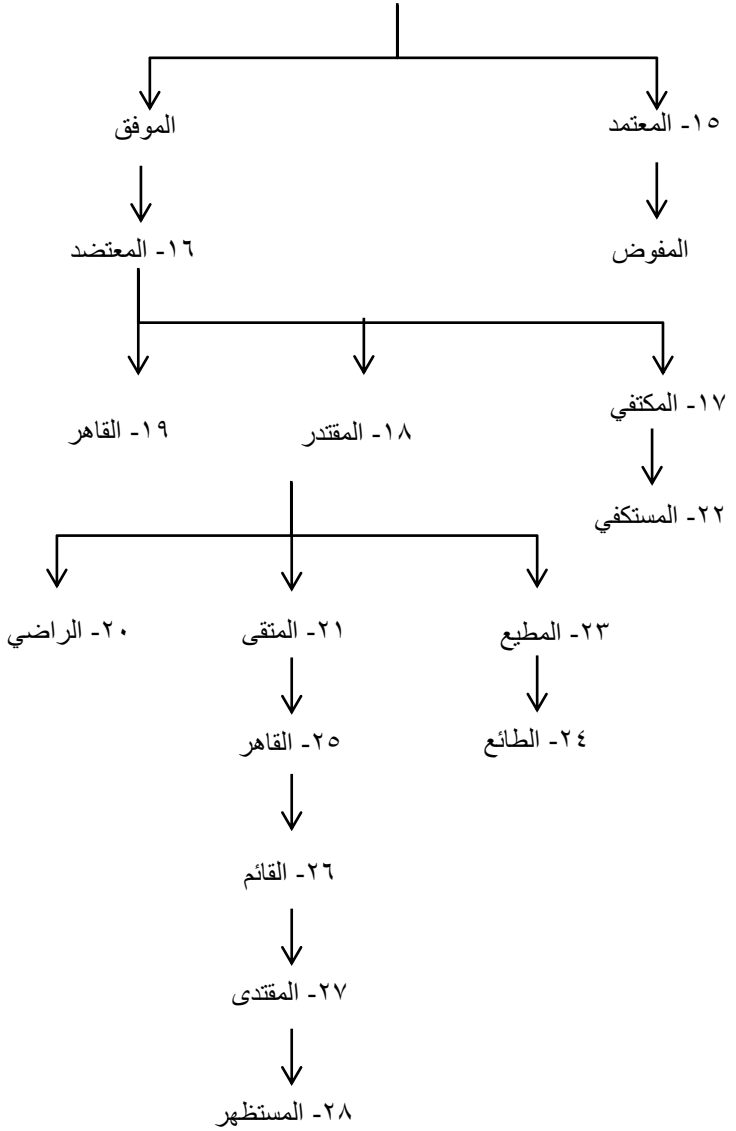

(تابع) سلسلة نسب

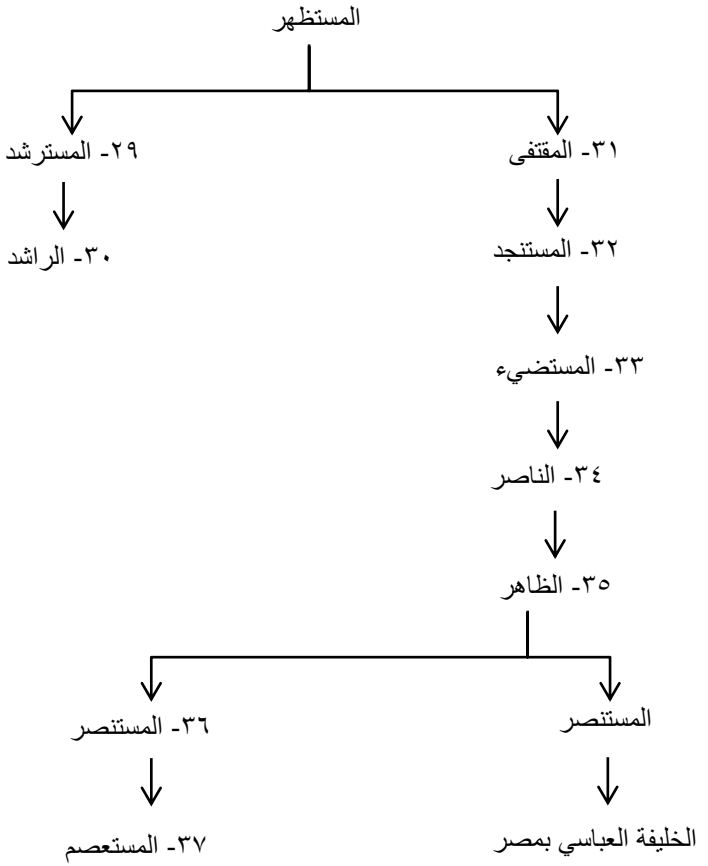

جدول
يبين مدة حكم الخلفاء العباسيين المتأخرين
(٢٥٦-٦٥٦هـ/ ٨٧٠-١٢٥٨م)

الاسم	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
المعتمد	٢٥٦	٨٧٠
المعتضد	٢٧٩	٨٩٢
المكتفي	٢٨٩	٩٠٢
المقتدر	٢٩٥	٩٠٨
القاهر	٣٢٠	٩٣٢
الراضي	٣٢٢	٩٣٤
المتقي	٣٢٩	٩٤٠
المستكفي	٣٣٣	٩٤٤
المطيع	٣٣٤	٩٤٦
الطائع	٣٦٣	٩٧٤
القادر	٣٨١	٩٩١
القائم	٤٢٢	١٠٣١
المقتدي	٤٦٧	١٠٧٥
المستظهر	٤٨٧	١٠٩٤
المسترشد	٥١٢	١١١٨
الراشد	٥٢٩	١١٣٥
المقتفي	٥٣٠	١١٣٦
المستنجد	٥٥٥	١١٦٠
المستضيء	٥٦٦	١١٧٠
الناصر	٥٧٥	١١٨٠
الظاهر	٦٢٢	١٢٢٥
المستنصر	٦٢٣	١٢٢٦
المستعصم	٦٤٠- ٦٥٦	١٢٤٢- ١٢٥٨

دار إضافة
للنشر والتوزيع
الإسكندرية
ج . م . ع

www.Idafabooks.com